قرطبة في العصر الإسلامي

تاريخ وحضارة

تأليف

الدكتور أحمد فكري

أستاذ الحضارة والآثار الإسلامية السابق
بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨٣

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ بالإسكندرية

قرطبة في العصر الإسلامي

تاريخ وحضارة

تأليف

الدكتور أحمد فكري

أستاذ الحضارة والآثار الإسلامية السابق
بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
ت : ٣٩٤١٢٠ الإسكندرية

فى هذه البيئه العلمية الطيبة نشأ الدكتور أحمد فكرى وقد تشبع بما حوله من أجواء تعبق بالعلم والمعرفة وأتم دراسته الثانوية فى عام ١٩٢٢ فحصل على البكالوريا المصرية ، فأوفده أبوه الى فرنسا ليتابع دراسته الجامعية فى جامعاتها ، وكانت أول ثمرة من ثمرات دراسته بفرنسا دبلوم الدراسات العليا فى التاريخ والجغرافية الذى حصل عليه من جامعة جرينوبل فى يونيو سنة ١٩٢٧ ، ثم استقر به المقام فى العاصمة باريس وهناك ألقى نفسه فى عالم يبهر بساطع الاضواء ، يموج بالباحثين والكتاب والفنانين والشعراء . فلم يتردد فى الاندماج والمشاركة ، واستغرق بشغف فى مجاله المتفتح ، ولم يلبث أن حصل على درجة الليسانس فى الآداب من جامعة باريس فى سنة ١٩٢٨ ، كما ظفر فى يونيو من نفس العام بدبلوم عال من مدرسة اللغات الشرقية بنفس الجامعة ، وعاد على أثر ذلك الى مصر ، فعين مدرسا للتاريخ بالمدرسة الابراهيمية الثانوية فى أول أكتوبر من السنة ذاتها . ولم يطل به المقام فى القاهرة فقد أوفدته وزارة المعارف فى مايو سنة ١٩٢٩ فى بعثة علمية الى فرنسا لاعداد درجة الدكتوراه فى الآداب من جامعة باريس ، فواصل فيها ما انقطع منذ عودته الى مصر ، وتفاعل من جديد فى هذا المجتمع الباريسى المتألق ، فأقبل بحماس منقطع النظير على التزود بالعلوم والفنون التى ترتبط بموضوعات رسالتيه للدكتوراه فى نفس الوقت الذى عكف فيه على تحصيل مادة بحثه لهذه الدرجة فالتحق بمدرسة اللوفر ، وحصل منها فى مايو ١٩٣٣ على دبلومين أحدهما دبلوم مدرسة اللوفر والثانى دبلوم ادارة المتاحف . ومن الجدير بالذكر أن الدكتور أحمد فكرى حقق كل ذلك دون أن يخل بخطته التى ارتسمها لانجاز رسالتيه للدكتوراه ، وموضوع الرسالة الرئيسية عن الفن الرومانسكى فى بلدة « بوى » والتأثيرات الاسلامية ، بينما خصص الرسالة

الصغرى لدراسة المسجد الجامع بالقيروان • وفى أثناء ذلك كان لا ينقطع عن التردد على الاثار الرومانسكية باقليم الاوفيرنى فى فرنسا ، وعلى الآثار الدينية والمدنية بقرطبة حاضرة الخلافة الاموية فى الاندلس ، وعلى الاثار الاسلامية التونسية • التى زارها مرتين منذ عام ١٩٣٣ بتوصيات تلقاها من وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية بالقاهرة • وكان خلال هذه الزيارات التى تطول أحيانا الى عدة شهور يعكف على دراسة العناصر المعمارية والزخرفية فى هذه الآثار وتناولها بالدرس والبحث والتحليل

كما كان لا ينقطع فى كل مرة عن رسم المخططات والتصميمات لهذه الآثار وعناصرها فى صبر الباحثين وأناة المتخصصين من الفنانين والمهندسين ، كما سجل لها صورا كانت وثائق هامة استند عليها عندما تولى ترميم جامع سوسة الذى تعرض جانب كبير منه للتخريب أثناء الحرب العالمية الثانية • وقد توصل بفضل دراساته العميقة وتحليلاته الدقيقة لمختلف العناصر الزخرفية والمعمارية الى أفكار تعتبر ثورية فى تاريخ الفن الاسلامى ، كما اكتشف أن هذه الآثار التونسية بالذات معين لا ينضب من العناصر الفنية الاصيلة ، ومصدر خصب للتأثير على الفنون الخلافية فى الاندلس والفنين الرومانسكى والقوطى بفرنسا • وقد توج الدكتور أحمد فكرى هذه الجهود المضنية بالحصول على دكتوراه الدولة فى الآداب من جامعة باريس بمرتبة الشرف الاولى فى يوليو سنة ١٩٣٤ ، وعاد الى أرض الوطن ليؤدى واجبه حياله ، ويسخر علمه وأفكاره ومنهجه فى تكوين جيل رائد من الباحثين فى حقل الآثار الاسلامية ، فعين فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٣٤ مدرسا بمدرسة الفنون الجميلة العليا ، وظل يعمل بها زهاء خمس سنوات انتدب بعدها للعمل أمينا لدار الآثار العربية فى ١٤ من اكتوبر

سنة ١٩٣٩ • ولكن الدكتور أحمد فكرى الاستاذ الكبير العالم ، وصاحب الآراء العلمية المبتكرة ، والمصحح الجرىء لاخطاء كبار علماء الغرب المتخصصين فى الفنون والآثار ، لم تهدأ نفسه : فهو لم يحقق بعد أمنيته ، ولم يشبع رغبته التى كان يكتمها فى نفسه وبين حنايا ضلوعه ، لم يرض الدكتور فكرى أن يقضى زهرة عمره حبيسا فى مكتب داخل جدران متحف ،

وانما كان هواه أن يؤسس قسما فى الجامعة للآثار الاسلامية يحقق من خلاله ما يسعى جاهدا الى تحقيقه من دراسات مثالية ، وأن يكون مدرسة علمية من الباحثين يلقنهم دروسه وتجاربه ، ويبثهم علمه الغزير وفكره المتطور وآراءه ومنهجه ، وآثر أن ينطلق من داخل نطاق المتحف الى افاق الجامعة الرحبة الفسيحة حيث يمكنه أن ينفذ خطته وهدفه ، فيعمل بالتدريس فى جامعة الاسكندرية الفتية التى كانت مناط الرجاء ومعقد الامل فى احياء التراث السكندرى العريق ، وينشىء بها قسما للآثار الاسلامية ، ويحقق بذلك أعز أمانيه • وعلى هذا النحو عين أستاذا مساعدا للتاريخ الاسلامى والآثار بكلية الآداب التابعة لجامعة « فاروق الاول » (الاسكندرية حاليا) فى أول سبتمبر من عام ١٩٤٤ • وكان أول تلاميذه فى هذا القسم الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد الذى خلف أستاذه فيما بعد فى شغل كرسى الحضارة الاسلامية بنفس قسم التاريخ • ومع ذلك فلم يكن الدكتور أحمد فكرى قد حقق بعد كل ما كان يستهدف تحقيقه فلم تزل فكرة تأسيس قسم للآثار الاسلامية تلح عليه وتسيطر على تفكيره وتدفعه الى السعى الى تنفيذه ، وساعده على ذلك وقوف عدد من الباحثين المستشرقين بقسم التاريخ والدراسات الاسلامية والآثار الى جواره يؤازرونه ويشجعونه نذكر منهم الاستاذ البروفيسور ألان ويس والعالم الاثرى اتين كومب ، الى أن جاءت اللحظة التى ظفر فيها بموافقة

الجامعة على انشاء هذا القسم ، وتم ذلك فى صيف عام ١٩٤٦ عندما اختير هو رئيسا لهذا القسم الجديد ، وكنت — مؤلف هذه السطور — أول ثمرة لهذا الغرس الذى أنبته أستاذى الراحل ، فتعهدنى منذ بدء تأسيس هذا القسم بعنايته ، وحبانى بحبه ورعايته ، ولم يضن على بنصح أو ارشاد أو توجيه ، وقدم لى عصارة تجاربه ، وخلاصة فكره .

وبدأت جامعة الاسكندرية تكتشف بالتدريج مواهبه وأستاذيته ، وساعد على ذلك تقارير علمية سجلها بعض كبار الزوار من العلماء الفرنسيين والاسبان نبهت المسؤولين فى الجامعة الى هذه الثروة العلمية الكبرى المثلة فى شخص أستاذنا الكبير ، وبينت ما يحمله هؤلاء العلماء لبحوثه من تقدير تام وادراك للوزن الحقيقى لعلمه ، ومن بين هؤلاء العلماء الاستاذ ليفى بروفنسال Lévi — Provençal أستاذ الحضارة الاسلامية بالسوربون ومدير معهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس ، ويكفى دليلا على المكانة العلمية التى كان يشغلها الدكتور أحمد فكرى فى العالم قراءة فقرات من التقرير الذى قدمه الاستاذ ليفى بروفنسال الى جامعة الاسكندرية فى ختام زيارته لجامعة الاسكندرية فى مارس ١٩٤٧ ، وهى فقرات ترفع الدكتور أحمد فكرى الى مصاف العلماء المتخصصين القلائل فى مجال الاثار الاسلامية فى العالم أجمع ، وفيما يلى بعض ما جاء بالتقرير :

"La Facutté des Lettres, de l'Université Farouk Ier a le privilége d'avoir parmi ses professeurs un savant archéologue qui fût autorisé à explorer ces lieux saints de Tunisie. En effet, le professeur Ahmed Fikry s'est consacré depuis dix huit ans à des études archéologiques sur l'Espagne et le Maghreb et notamment les monuments de la Tunisie. Malheuresement, les évènements de la guerre ont interrompu ses études dans ce domaine. Les travaux déjà publiés par

notre callegue le Dr. Fikry sont hautement appréciés en France Par les archéologues et les historiens de l'art, et ceux qu'il prépare actuellement, et que je counais personnellement, sont suivis avec intérêt par les archéologues et les urabisauts ... Les recherches de Dr. Fikry sur le Djawi al-zaytoûna sont absolument inédites et apparteront, j'en suis convaincu, des élément, noaveaux et utiles à nos connaissances sur l'art musulman" (1)

تتميز كلية الآداب بجامعة فاروق الاول بوجود عالم فى الآثار من بين أساتذتها أتيح له أن يكشف النقاب عن الآثار الدينية المقدسة فى تونس . والواقع أن الاستاذ أحمد فكرى قد تفرغ منذ ثمان عشرة سنة للدراسات الاثرية فى اسبانيا والمغرب الاقصى ، وخاصة لدراسة آثار تونس غير أن حوادث الحرب قد أوقفت للاسف أبحاثه فى هذه المنطقة ، ومن المعروف أن علماء الآثار ومؤرخى الفنون فى فرنسا يقدرون تقديرا ساميا مؤلفات زميلنا الدكتور فكرى المنشورة . أما البحوث التى يعدها للنشر والتى أعرفها شخصيا فان علماء الآثار والمستعربين يتتبعونها باهتمام كبير ... وأبحاث الدكتور فكرى عن جامع الزيتونة فى تونس أبحاث مبتكرة كلها ولم يسبق نشرها اطلاقا ، وانى على يقين أن هذه الابحاث ستضيف الى معلوماتنا عن الفن الاسلامى عناصر جديدة قيمة .

وقد أوصى الاستاذ ليفى بروفنسال فى ختام تقريره المسؤولين فى جامعة الاسكندرية ، بايفاد زميله الدكتور أحمد فكرى فى مهمة علمية لمدة ستة أشهر الى البلاد التونسية والى فرنسا والمغرب لتمكينه من اعادة بنيان المسجد الجامع بسوسة الذى تهدم جانب كبير منه بفعل الغارات الجوية ، من واقع الوثائق والمخططات والمصورات والرسوم البيانية التى

Repport Préesnté par le prof. E- Lévi-Provençal, le 18 Mars 1947 au doyen de le Fuaité de Lettres de l'Université F. Ier (Dossier Ahmad Fikry No. 344/I/3, archives de la Famlté des Lettres. Univ d'Alexandre.

كان قد أعدها الدكتور فكرى عن هذا الاثر قبل أن يتعرض للتدمير • ويؤكد الاستاذ ليفى بروفنسال فى نهاية التقرير على الاهمية الكبرى التى تكمن فى وثائق الدكتور فكرى لامكانية الاستعانة بها فى أعمال اعادة تشييد هذا المسجد الجامع العريق « يرجع تاريخ بنائه الى سنة ٢٣٦ هـ » وقد تم بالفعل ايفاد الاستاذ الدكتور أحمد فكرى الى تونس للاشتراك فى اعادة بنيان ما تخرب من الجامع المذكور بالاضافة الى استكمال أبحاثه الاثرية فى البلاد التونسية وهى أبحاث شرع فيها أيام كان يعد دراسته للدكتوراه •

ثم رشح الدكتور أحمد فكرى لتشغل كرسى تاريخ الحضارة الاسلامية الذى كانت تموله بلدية الاسكندرية منذ عام ١٩٤٢ ، ورقى سيادته الى وظيفة أستاذ ب فى أول سبتمبر ١٩٥٠ ثم الى وظيفة أستاذ أ لكرسى الحضارة الاسلامية سالف الذكر فى ٨ فبراير سنة ١٩٥٣ ، واختير رئيسا لقسم التاريخ منذ سنة ١٩٥٤ ، ثم انتدب للعمل مستشارا ثقافيا بسفارة مصر فى باريس لمدة عام اعتبارا من الثامن من فبراير عام ١٩٥٦ ، وقبل أن ينتهى العام عمل سيادته مندوبا دائما لمصر فى منظمة اليونسكو من أول يناير سنة ١٩٥٧ وحتى ٣١ من أغسطس سنة ١٩٥٩ • وعاد الى جامعة الاسكندرية بعد هذا التاريخ ليواصل أداء رسالته أستاذا للتاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، ورئيسا لقسم التاريخ •

كان الاستاذ الدكتور أحمد فكرى باحثا منهجيا ، وعالما متبحرا فى الفنون الاسلامية والاثار ، له نظرياته وآراؤه التى يقدرها الباحثون فى الاثار الاسلامية فى العالم حق التقدير ، ويأخذون بها فى بحوثهم ومصنفاتهم • وقد امتدح كثير من علماء فرنسا واسبانيا وأمريكا ، المتخصصين فى التاريخ والفن الاسلامى والاثار أبحاثه العلمية ، وعلى

رأس هؤلاء لويس بربيه Louis Brehier ، عضو المجمع العلمى الفرنسى ، وهنرى بيرين Henri pirenne عضو المجمع العلمى الملكى البلجيكى ، وهنرى فوسيون H - Fociuon عضو المجمع العلمى الفرنسى ، وفـــردينان لوت Teidinand lot الاســـتاذ بالسوربون وعضو المجمع الفرنسى وجورج مارسيه georges Marcais الاستاذ بجامعة الجزائر هذا بالاضافة الى الاســـتاذ كريسويل Creswell الاستاذ بجامعة القاهرة .

والواقع أن الدكتور أحمد فكرى كان منذ توليه التـــدريس بجامعة الاسكندرية طرازا نادرا من الاساتذة أصحاب المدارس والرسالات » على حد تعبير الزميل الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد(١) ، فقد وهب نفسه ، ونذر حياته وأوقفها لخدمة التراث الاسلامى والاثار الاسلامية ، وعنى بتكوين جيل من صفوة تلاميذه شملهم برعايته وتفانى فى اعدادهم وتشكيلهم ، وغرس فيهم حبه للبحث والدراسة الجادة المنهجية ، فرسخت فى أعماقهم دروسه وعملوا على نشر آرائه القيمة وترويجها فى جامعاتهم شرقا وغربا . وبالاضافة الى قيامه بالتدريس فى جامعـــة الاســـكندرية ، وتلبيته لدعوة بعض الجامعات العربية والاوربية والامريكية أستاذا زائرا، ومشاركته فى كثير من المؤتمرات الدولية فى التاريخ والاثار الاسلامية ،

---

(١) سـعد زغلول عبد الحميد ، المؤثرات الاسلامية على الفن الرومانسكى فى أوربا الغربية نراها فى أعمال الدكتور احمـــد فكرى ، بحث مقـــدم الى ندوة الحضاره الاسلامية (١٦ــ١٠ الى ٢٠ــ١٠ــ١٩٧٩) بكلية الاداب جامعـــة الاسكندرية بمناسبة الذكرى الاولى لوفاة الدكتور احمـــد فـــكرى ، ص ٥ ، الاسكندرية ١٩٨١ .

ورئاسته للجان العلمية ، لم يتردد الدكتور أحمـــد فكرى فى القيام بكثير من الاعمال القومية والسياسية ، فمثل مصر مستشارا ثقافيا فى فرنسا ، ومثلها فى العضوية الدائمة لمنظمة اليونسكو ، وشـــارك فى لجنـــة وضـــع الدستور سنة ١٩٥٥ ، وظل يوصل رسالته العلمية أستاذا وعالمـــا وباحثا أثريا داخل مصر وخارجها الى أن استقر به المقام فى جامعة الاســـكندرية أستاذا غـــير متفرغ فى الفترة ما بـــين عامى ١٩٧٣ ، ١٩٧٥ الى أن وافاه الاجل بالقاهرة بين يدى شريكة حياته ونضاله الاستاذة الجليلة الدكتورة درية فهمى ليلة الجمعة الموافق ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٧٥ • فخسرت مصر والعالم العربى كله بوفاته علما بارزا ، وابنا بارا من أبناء مصر ، ولم يتردد اتحاد المؤرخين العرب فى أن يقيم له ندوة باسمه فى الذكرى الاولى لوفاته فى المدرج الموجود باسمه بكلية الاداب جامعة الاسكندرية دعا اليها علماء التاريخ والاثار من زملاء الفقيد وتلاميذه فى العالم وذلك فى الفترة من ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٦ الى ٢٠ من نفس الشـــهر ، كما خصـــص جائزتين لاحسن بحثين فى التاريخ الاسلامى والحضارة •

وأبحاث الاستاذ الدكتور أحمد فكرى فى التاريخ الاسلامى والفنون والآثار الاسلامية عديدة ومتنوعة ، ويمكننا أن نوزع هذا الانتاج الكبير على ثلاثة مراحل :

ففى المرحلة الاولى (١٩٣٤–١٩٤٤) تتدرج بحوثه الكبرى التى كان يعدها للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة باريس ، وقد أصدر معظمها باللغة الفرنسية عندما كان يعمل أستاذا بمدرسة الفنون الجميلة العليا ، كما أصدر بعضها أثناء اشتغاله أمينا لدار الآثار العربية ومن أبرز بحوث تلك المرحلة ما يلى :

1 — L'art Roman de puy et les influences paris 1934 -

2 —2La grande Mosquée de kairouan paris 1934

وقد صدرت الترجمة العربية لهذه الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٣٦

3 —Les Mosquées tunisiennes'R. Beaux arts Paris. 1934

ومنها بحثان صدرا بالقاهرة ، أحدهما بالفرنسية عنوانه :

L' Espagne et L' Occident, Revue du Caire, 1939.

والثانى باللغة العربية عنوانه : « بدائع الفن الاسلامى بدار الآثار العربية ، مخطوط ومصور ، القاهرة ١٩٤١

وفى هذه المرحلة صدرت له بعض المقالات بالعربية عن الفن الاسلامى والمساجد التونسية نشرها بمجلة المقتطف لسنة ١٩٤٢

وتتسم بحوث المرحلة الثانية (١٩٤٤—١٩٥٩) وتبدأ منذ أن عين أستاذا مساعدا بجامعة الاسكندرية فى أول سبتمبر سنة ١٩٤٤ حتى أغسطس ١٩٥٩ تاريخ تسلمه لعمله أستاذا للحضارة الاسلامية ورئيسا لقسم التاريخ بعد أنتهاء مدة ندبه مندوبا دائما لمصر فى منظمة اليونسكو تتسم بالاصالة والقوة والتوثيق الدقيق تاريخيا وأثريا . ومن بين بحوث تلك المرحلة ما يلى :

بحث بالفرنسية عن آثار سوسة عنوانه

It (Les monuments de sousse, 1945)

ثم عدد من المقالات عن الكتابة الكوفية وعن بدعة المحاريب وعن الملوك وعن خطرات فى الفنون ، صدرت بمجلة الكاتب المصرى فى الاعداد الصادرة عامى ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ وأهمها مقال عن جامع الزيتونه بتونس نشره فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع لسنة ١٩٥٢ وعنوان البحث :

La mosquèe az—zaytouna a Tunis'·Recherche.. a.cheolagiqus . dans «The Egyptian Souety of Hosto. ical studies, vol. 2, 1952

كما صدر لـــه فى هذه المرحلة أيضا بحث تاريخى قيم بالغة العربية عـــن موقعة عين جالوت صدر فى مجلة الفرســـان ، العدد ١٤ ، نوفمبر ١٩٥٣ ، ومقال بالفرنسية

L' Egypte Nouvelle, dans Annales du centre Uniiveisitaire mediterraneen, vol VII, 1953, 1954.

وأخيرا دراسة قيمة عن الفن الاسلامى قدم بها الترجمة الغربية لكتاب الفنون الاسلامية لديملند ، أصدرته دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤

أمابحوث المرحلة الثالثة (١٩٦٠—١٩٧٥) وتنتهى بوفاته فتتميزبالاصالة ووضوح الفكرة مع الاهتمام بابراز أصالة الفن الاسلامى وتفنين ادعاءات المستشرقين ومزاعمهم ، وهذه الابحاث هى فى الواقع خلاصة تجاربه العلمية وأهم هذه الابحاث موسوعته الموسومة بمساجد القاهرة ومدارسها وتقع فى ثلاثة مجلدات :

الاول : وهو المدخل لمساجد القاهرة ومدارسهـــا ، دار المعـــــارف بالاسكندرية ١٩٦٢

والثانى وقد خصصه لدراسة مساجد القاهرة ومدارسها فى العصر الفاطمى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥

والثالث : أفرده لمساجد القاهرة ومدارسها فى العصر الايوبى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩

وتعتبر هذه الموسوعة بحق من أقيم وأهم البحوث التى صدرت حتى يومنا هذا عن العمارة الاسلامية فى مصر والعالم الاسلامى ، وتشتمل

بالاضافة الى اللوحات القيمة العديدة ، والرسوم التوضيحية التى نفذها الدكتور أحمد فكرى بنفسه تخطيطات معمارية لاهم هذه الآثار ، قام المؤلف باعدادها وتنفيذها وفقا لدراسات تقوم على المقارنة والتحليل والاستنباط • وكان ينوى اصدار المجلد الرابع عن عصر دولة المماليك البحرية الى نهاية أسرة قلاوون والمجلد الخامس عن نفس العصر حتى نهاية الدولة ، ولكن لم يقدر لهذين المجلدين أن يشاهدا النور •

ومن بحوث هذه المرحلة ، بحث نشره عن قبة الصخرة بحوليات الجامعة الجزائرية ، وبحث عن التأثيرات الاسلامية العربية على الفنون الاوربية ، نشره بمجلة سومر ، المجلد ٢٣ لسنة ١٩٦٧ ، وأخيرا نسخة خطية لمشروع كتاب كان يعده قبل وفاته عن « قرطبة ومسجدها الاعظم » من جزآين ، لم يتم منه سوى الجزء الاول ويتألف من عشرة فصول تدور حول تاريخ قرطبة وذكر علمائها ، ويبذل تلاميذ الدكتور فكرى جهدهم لنشر هذا الجزء مع التقديم له ، ونخص بالذكر منهم الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أستاذ الحضارة الاسلامية بجامعة الكويت حاليا والعميد السابق لكلية الآداب جامعة الاسكندرية

ومما لا شك فيه أنه بفضل الجهود الموفقة التى بذلها الاستاذ الدكتور أحمد فكرى طوال حياته العلمية فى خدمة الحضارة الاسلامية لم تتخلف مصر عن ركب الدراسات العالمية التى استهدفت ابراز دور الحضارة العربية بين الحضارات العالمية وفضلها على الحضارة الاوربية سواء فى مجال العمارة أو فى مجال الفنون الزخرفية •

وستظل ذكرى الاستاذ الدكتور فكرى خالدة فى أبحاثه الرائدة ،وفى نظرياته الاصيلة ، وفى تلاميذه وطلابه ومحبيه ، وأصحابه وزملائه وتابعيه

وبعد ، فهذا الكتاب آخر ما جمعناه من أوراق الفقيد العالم ، كـــان يعدها للطباعة ، على أنها الجزء الاول من مصنف شامل عن قرطبة الاسلامية فى التاريخ ، يدور حول تاريخ هذه الحاضرة الاندلسية وعن آثارهـــــا الباقية ، ولم يعش أستاذنا ليكمل هذه الموسوعة ، ولكن قدر لتلاميـــــذه ومريديه وعلى رأسهم الزميل الفاضل الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أن يجمعوا هذه الاوراق ويعملوا على نشرها باسمه تخليدا لذكراه يرحم الله أستاذنا الفقيد الدكتور أحمـــد فكرى جـــزاء ما قـــدم للعلم وللانسانية •

دكتور السيد عبد العزيز سالم


بسم الله الرحمن الرحيم

الفصـــــل الاول

عهـد الفتح والولاية

(٩١ الى ١٣٨ — ٧١٠ الى ٧٥٦)

١ — فتح الاندلس وقرطبة (٩١ — ٧١٠)

٢ — قرطبة فى عهد الولاة (٩٧ — ٧١٦)

٣ — فترة الاضطرابات والفتن (١٢٢ — ٧٤٠)

الفصـل الاول
عهد الفتح والولاية (١)
(٩١ إلى ١٣٨ ـــ ٧١٠ إلى ٧٥٦)

— ١ —

فتح الاندلس وقـرطبة(٢).
(٩١ الى ٩٧ ـ ٧١٠ الى ٧١٦)

كانت جزيرة ايبريا فى منتصـف القرن السـابع الميلادى مملكة قوطية عاصمتها طليطلة ، وكانت تلك البلاد تعيش فى خضم من الفوضى الاجتماعية والاضمحلال السياسى ، وكان التنازع والتشاحن والتآمر يسود طبقات شعبها ، وخاصة رجال الدين والاشراف . وكان هؤلاء وأولئك يستأثرون بخيرات البلاد وأموالها وأمـلاكها ومحاصيلها ، أما بقية الطبقات فكانت تتحمل الاعباء كلها ، وتحى حياة المذلة والضـيق والتعسف والاضطهاد ، تحت رحمة هؤلاء الاشراف ورجال الدين . وكانت البلاد تكتظ بعدد كبير من العبيد الارقاء الذين كانوا يعاملون معاملة الانعام . وكانت هناك فئة أخرى من السكان ، هى فئة اليهود ، وكانوا يعاملون كذلك معاملة شديدة القسوة ، اذ اعتبروا ، منذ سنة ٦٩٤ ، عبيدا جميعا وصودرت أمـوالهم وأمـلاكهم ، وانتزع منهم أطفالهم .

وكان يحكم البلاد من طليطلة ، الملك (اخيكا) ، منذ سنة ٦٨٧ ، وخلفه ، فى سنة ٧٠٢ (٨٣ هجرية) ابنه (غيطشه) الذى مات فى سنة ٧١٠ (٩١ هجرية) . وكان يحق لابنــه (وقــله) أن يخلفه ، الا أن الاشراف ورجال الدين استدعوا الى طليطلة الدوق (لذريق) الذى كان واليا

على دوقية (باطقة) ، وحاكما على عاصمتها قرطبة ، ونصبوه ملكا فى تلك السنة . وقام التنازع والصراع تبعـا لذلك بين (وقله) وأفراد أسرته وأتباعـه من جهـة ، وبين (لذريق) ورجال الدين والاشراف وأنصارهم ، من جهة أخرى ، وازدادت حال البلاد سوءا(٣) .

كان العرب يتابعون منذ سنة ٨٦ (٧٠٥) فتـح بلاد المغـرب الاقصى ، وكان موسى بن نصير فى تلك السنة واليا على افريقية ، فى القيروان ، واستطاع أن يضم الى ولايته معظم تلك البلاد ، وأن ينشر الاسلام فيها . وفى سنة ٩٠ (٧٠٨) ، فتح مقاطعـة طنجة واستعمل عليها مولاه طارق بن زياد . ولامر ما ، أبقى موسى اقليم سـبته فى أيدى صاحبه وحاكمه الدوق (خوليان) ، وهـو من يسميه العـرب (أليان) أو (اليان) أو (يليان) . وكان هذا الاقليم المجاور لطنجة تابعا ، اسميا ، للامبراطورية البيزنطية ، مرتبطا ، واقعيا ، بمملـكة القوط الاسبانية . ولعل (يليان) هذا كان قد اتفق مع عقبة بن نافع ، أثناء حملته الاولى على المغـرب الاقصى فى سـنة ٦٢ (٦٨١) على احتفاظه باقليم سبته ، نظير ولائه للوالى العربى . ولعل موسى بن نصير قد أقر هذا الاتفاق وأبقى الاقليم بأيدى صاحبه . وأغلب الظن أن اقليم سبته هذا أصـبح فى سنتى ٩١ و ٩٢ (٧١٠ و ٧١١) ملجأ للساخطين على الحكم فى جزيرة ايبيريا من أنصار (وقلة) ، الهاربين من وجه (لذريق) .

وقد رويت قصص حول (يليان) وأسباب حنقه الشـديد على (لذريق) ، ذلك الحنق الذى بلغ حدا جعله يحرض موسى بن نصـير على غزو الجـزيرة ، ودفعه الى تقديم المعـونة التى يسرت ، أولا ، الحملة العربية على السواحل الجنوبية ، فى شهر رمضان من سنة ٩١

(يوليو ٧١٠) ، بقيادة طارف بن ملوك المعافرى ، ثم ساعدت ، ثانيا ، على نجاح الحملة العربية الثانية الحاسمة ، حملة طارق بن زياد ، التى بدأت فى شهر رجب من السنة التالية (أبريل ٧١١) ، والتى أسفرت عن هزيمة (لذريق) وجيشه ، هزيمة نكراء ، يوم الاحد لخمس خلون من شهر شوال من السنة نفسها (٢٦ يوليو) ، بعد معركة رهيبة دامت ثمانية أيام عند وادى لكة ، فى كورة شذونة ، تلك الحملة التى انتهت بسقوط العاصمة ، طليطلة ، بعد أشهر قلائل ، ودخول طارق بن زياد منتصرا فيها ، ظافرا بالحكم عليها(٤ب) • وكان طارق قد أوفد لفتح قرطبة مغيث بن الحارث ، المعروف بمغيث الرومى ، وهو أحد قواده، ومعه « سبعمائة فارس » ، فاستسلمت المدينة له بعد حصار لم يدم طويلا ، فى أوائل المحرم من سنة ٩٣ (أواخر أكتوبر ٧١١)(٥) •

لم يلبث موسى بن نصير أن تولى بنفسه حملة كبرى لفتح ما تبقى من بلاد ايبريا ، واجتاز البحر عند مضيق طارق فى شهر رمضان من سنة ٩٣ (يونيه ٧١٢) ، وفتح اشبيليه بعد حصار دام أشهرا قلائل ، ثم فتح ماردة ، فى غرة شوال من السنة التالية (٣٠ يونيه ٧١٣) ، والتقيت جيوشه بجيوش طارق بن زياد ، وأخذت حصون ايبريا تتفتح لها الواحدة تلو الاخرى ، حتى بلغت حدود جبال البرتات • ولم تنته سنة ٩٥ (سبتمبر ٧١٤) حتى كانت معظم شبه الجزيرة الايبرية قد خضعت للحكم العربى الاسلامى ، وأصبحت حدود الولاية العربية الجديدة تمتد شرقا الى شواطىء البحر الابيض المتوسط ، وغربا الى شواطىء بحر الظلمات (المحيط) ، وشمالا الى أرغونة وقشتاله وجبال البرتات • وكانت معظم مدنها الكبرى تستظل بحكم الاسلام ، مثل المرية وقرطاجنة وبلنسية وبرشلونة ، شرقا واشبيلية وولبة وأشبونة،

غربا ، وطرطوشة وسرقسطة وبنبلونة ، شمالا(٦) . وما زال المؤرخون الغربيون يصورون الى يومنا هذا قصة فتح الاندلس واستقرار للعرب والمسلمين فيها ، بمثل السرعة والشجاعة والسهولة التى تمت عليها ، كأنها « معجزة تاريخية »(٧) .

وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك قد استدعى موسى بن نصير الى دمشق ، فعاد اليها وبصحبته طارق بن زياد ، محملين بالغنائم والهدايا النفيسة ، بعد أن اتخذ اشبيلية عاصمة للولاية الجديدة ، واستعمل عليها ابنه عبد العزيز ، وجعل له وزيرا ومعينا ، حبيب بن أبى عبدة الفهرى ، حفيد عقبة بن نافع .

بدأت ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير فى شهر ذى الحجة سنة ٩٥ (سبتمبر ٧١٤) ، وبادر هذا الوالى بافتتاح ما تبقى فى أيدى القوط من بلاد الاندلس ، ومن ذلك مالقة واقليم تدمير ، وفيه ثغر لقنت . واستقر حكم العرب فى الجزيرة الاندلسية دون منازع . وأغلب الظن أن عبد العزيز بن موسى اغتر بهذا الاستقرار ، وأساء التصرف ، وتكبر على وجهاء قومه ، فتألبوا عليه وأوعزوا بقتله فى رجب من سنة ٩٧ (مارس ٧١٦) . واختاروا أيوب بن حبيب اللخمى واليا عليهم الى أن يقضى للخليفة سليمان بن عبد الملك بأمره فى ذلك . وظل أيوب هذا يتولى الولاية خمسة أو ستة أشهر الى أن قدم الحر ابن عبد الرحمن الثقفى فى شهر ذى الحجة من سنة ٩٧ (سبتمبر ٧١٦) ، عاملا على الولاية من قبل محمد بن يزيد ، والى افريقية حينذاك فى القيروان ، وكان أول ما عمله الحر هذا أن نقل عاصمة الولاية من اشبيلية الى قرطبة(٨) .

— ٢ —

قـرطبة في عهـــد الولاية
(٩٧ الى ١٢٢ — ٧١٦ الى ٧٤٠)

تلي قدوم الحر ، في نهاية سنة ٩٧ ، فترة امتدت احدى وأربعين سنة ، الى شهر ذى الحجة سنة ١٣٨ (مايو ٧٥٦) ، تولى فيها الولاية على الاندلس ســتة عشر وال ، كان معظمهم يعينون من قبـل والى افريقية في القيروان ، وكانت ولاية البعض منهم قصيرة لم تدم أكثر من أشهر ، واستقر منهم واحد ، هو عنبسه بن سحيم الكلبى ، مـدة أربع سنوات ونصف ، وآخر ، هو عقبة بن الحجاج السلولى ، مـدة تقرب من خمس سنوات ، وأمضى قلة منهم في الولاية سنة أو سنتين ، وتولى آخرهم الامر ، وهو يوسف بن الرحمن الفهرى ، مـدة تســع سنوات(٩) .

امتلأت فترة الاربعين سنة تلك ، فيما تقصه علينا المصادر العربية، من جهة ، بحملات موجهة ضد الافرنجة في بلاد الغال ، أى فيما وراء حدود الجزيرة وجبال البرتات ، ومن جهة أخرى ، بسلسلة من الصراع العنيف بين أحزاب الفاتحين والمستوطنين ، أو على الاصح فيما نرى ، بين بعض الزعماء العرب الذين تنازعــوا على الاستئثار بالســلطة ، واستغلوا نزعات فئات من العامة لاثارتهم ضد بعض الولاة .

كانت حدود مملكة القوط تمتد ، قبل الفتح الاسلامى ، الى جنوب بلاد الافرنجة ، وكانت تتبع هذه المملكة مقاطعات لانجدوك وروسيليون وسبتمانية ، فيما وراء جبال البرتات . وقد بدأت الحمــلات العربية

لاخضاع هذه المناطق منذ عهد طارق بن زياد • وقيل انه ، بعد أن تم له فتح برشلونة وأربونة غزا صخرة أبنيون وحصن لودون على ضفاف نهر الرودانو أو ردونة • والظاهر أن أربونة خرجت بعد ذلك على الحكم الاسلامى ، فغزاها السمح بن مالك الخولانى واستردها فى منتصف سنة ١٠٢ (أوائل ٧٢١) ، واتجه منها الى طولوشة ولكنه صد عنها فى معركة مع دوق اكيتانيا ، وقعت فى الثامن من ذى الحجة سنة ١٠٢ (٩ يونيه ٧٢١) واستشهد فيها السمح • وبعد ذلك بأربع سنوات عزم خلفه ، عنبسة بن سحيم الكلبى ، على الخروج الى الجهاد فى غالة ، بلاد الافرنجة • وبعد أن وطد حكم العرب فى أربونة ، اتجه نحو قرقشونة واستولى عليها ، وزحف منها الى نيمة فدخلها دون عناء ، وواصل حملته على ضفاف نهر ردونه ، وأخذ يفتح مدنه الكبرى ، أبنيون وفالانس وشالون وديجون ، ومن شالون عرج على نهر السون ودخل امارة برغندية واستولى على أوتون • ثم عزم عنبسة على العودة الى قرطبة مع جيشه الظافر ، ولكنه استشهد فى طريقه اليها ، سنة ١٠٧ (٧٣٥) •

وبعد ذلك بسبع سنوات ، وقعت آخر الحملات العربية فى أرض الافرنجة ، وهى التى أعدها عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، والتى انتهت فى أوائل رمضان سنة ١١٤ (أواخر أكتوبر ٧٣٢) بلقائه المشهور مع جيوش قارلة ، واستشهاد الغافقى ، وهزيمة الجيش العربى هزيمة كبرى فى بلاط الشهداء بالقرب من بواتييه • وبعد ذلك بسنين هاجم قارلة حامية أربونة العربية ، فهب لنجدتها عقبة بن الحجاج السلولى ، والى قرطبة حينذاك ، وظلت تلك المدينة فى حوزة العرب الى أن اقتحمها (ببين) ، ابن قارلة ، واستردها لحكم الافرنجة ، حوالى سنة ١٣٣ (٧٥١) ، وارتدت الجيوش العربية الى حدود الجزيرة الطبيعية ، أى أمام جبال البرتات(١٠) •

الفتوحات العربية فى شـــبه جزيرة ايبريا

خريطـــة مبين عليهـــا أسماء الاماكن الواردة فى

الفصـــل الاول

أنظر الخـــرائط فى آخـــر الكتاب

— ٣ —

فترة الاضــطرابات والفتن
(١٢٢ الى ١٣٨ — ٧٤٠ الى ٧٥٦)

بدأت فترة الاضطرابات والفتن سنة ١٢٢ (٧٤٠) ، وهى فترة يصفها بعض الكتاب والمــؤرخين بأنهــا فترة الصراع بين الاحــزاب والعشائر ، ويؤكد أنها كانت امتدادا ، فى بلاد المغــرب والاندلس ، للصراع الذى نشأ فى المشرق فى سنة ٦٤ (٦٨٤) ، عقب وفاة الخليفة معاوية بن يزيد ، واختلاف أهل الشــام فيمن يبايعــونه خليفةله ، وانقسامهم الى قيسية ، إجتمعوا فى مرج راهط ، وبايعوا عبد الله بن الزبير ، والى يمنية ، آجتمعوا فى الجابية ، واتفقوا على مبايعة مروان ابن الحكم • والمعروف أن الخلاف اشتد حينا فى المشرق بعد ذلك بين الفريقين • ولكن مظاهر هذا الصراع كانت ، فى رأينا ، قد هدأت وكانت رواسبه قد ركدت فى الوقت الذى قام فيه موسى بن نصــير بحملته الكبرى فى الاندلس،لان الجيش الذى أعدمودخل به الجزيرةكانمكونا على السواء من الفريقين ، القيسيين واليمنيين • ثم انه وفد الاندلس بعد ذلك كثير من الاعراب كانوا ينتمون كذلك الى هذا الفريق أو ذاك، وكان الوفاق ، فيما يبــدو ، قائمــا دون شــائبة بينهما • واذا كانت ذركيات هذا الصراع قد نمت من جديد ، فان الذى كان يزكيها هم فئة من‌النز عماء كانوا يطمعون فى الاستيلاء على الســلطة ، وتآمروا على الولاة ، عندما كانوا يشعرون بعجز الخلافة ، أو عاملها فى افريقية ، عن مساندتهم ، سواء كان هؤلاء الولاة ينحدرون من قبائــل يمنيه ، مثل عنبسه بن سحيم أو يحى بن سلمة ، أو من قبائل قيسية ، مثل حذيفة ابن الاحوص أو الهيثم بن عبيد(١١) •

أما الصراع الطائفى الخطير الذى حدث فقد كان منشؤه برابرة المغرب ، الذين قدموا مع طارق بن زياد لفتح الاندلس ، والذين ازدادوا عددا فيها بعد ذلك • ويبدو أنهم كانوا يميلون الى مذهب الخوارج الذى كان منتشرا بين اخوانهم فى بلاد المغرب • ويبدو كذلك أن مراحل الحقد ضد أعراب الاندلس غلت فى صدورهم عندما بلغهم انتفاض برابرة المغرب ، وانتصار الثورة التى كان يتزعمها فيها ميسرة المدغرى واستيلاؤه على طنجة سنة ١٢٢ (٧٤٠) ، ثم انتصار خلفه عبد الحميد الزناتى ، أو خالد بن حميد الزناتى ، انتصارا حاسما على الاعراب فى غزوة الاشراف فى السنة التالية • والمعروف أن الخليفة هشام بن عبد الملك أوفد بعد ذلك جيشا منظما من جند الشام للقضاء على ثورة البربر فى المغرب الاقصى ، وأن هذا الجيش انكسر ، وانهزم جزء كبير منه عائدا الى افريقية ، ولاذ فريق آخر منه بقيادة بلج بن بشر القشيرى بمدينة سبته • كان ذلك شهر ذى الحجة سنة ١٢٢ (سبتمبر ٧٤٠) ، وكان البربر قد قاموا فى شمال الاندلس بثورة مماثلة لثورة اخوانهم فى المغرب ، وخاف والى قرطبة حينذاك ، عبد الملك بن قطن الفهرى ، أن تشتد دطأة ثورتهم عليه ، فاستدعى بلجا وجنده الشاميين من سبته ليعاونوه فى اخماد ثورة البربر ، وهذا ما حدث فعلا ، اذ انقضت جيوش العرب ، البلدين المستوطنين الاندلس منذ فتحها ، يؤازرهم جيش الشاميين القادم بقيادة بلج ، على حشود البربر بالقرب من طليطلة ، وهزموهم شر هزيمه ، فى منتصف سنة ١٢٣ (ربيع ٧٤١) • وكان من نتيجة هذا الانتصار أن تولدت المنافسة والضغائن بين العرب البديين وبين عرب الشام ، وثار هؤلاء على ابن قطن ، وقتلوه وبايعوا رئيسهم بلج واليا على الاندلس ، فى شهر ذى القعدة من سنة ١٢٣ (سبتمبر ٧٤١)(١٢) •

كان هذا بداية النزاع بين العرب البلديين المستوطنين الجزيرة منذ

فتحها ، وبين العرب الشـــاميين الذين كان يعتبرهم أولئك دخـــلاء عليهم ، شركاء لهم فرضتهم ظروف طارئة • فلم يلبث البلديون أن ثاروا ، وضمـــوا برابرة الاندلس اليهم ، ضد بلج وجنده الشاميين ، وانتصر هؤلاء بالرغم من أن بلج قتل فى المعركة التى دارت بين الفريقين فى شـــوال من سنة ١٢٤ (أغسطس ٧٤٢) ، فخلفه على ولاية الاندلس قائد من جيشه ، هو ثعلبه بن سلامه العاملى • والظاهر أنه أراد أن يثأر لزعيمه فاشتد فى الاســـاءة الى البلديين والبرابرة على السواء ، اساءة لم يسبق لها نظـــير ، اذ كان يبيع أسراهم فيما ينقص من الثمن ، أى بالمناقصـــة(١٣) • فاستنجـــد البلديون بوالى افريقية ، حنظلة بن صفوان الكلبى ، الذى استجاب لهم وأوفد ابن عمه ، أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبى ، والیا من قبله على الاندلس ، فكان آخر من ولى الاندلس من قبل والى افريقية وبرضاء الخليفة • ودخل أبو الخطار قرطبة فى شهر رجب من سنة ١٢٥ (مايو ٧٤٣) ، واستطاع أن يخمد ثورة الشاميين ، ويبعدهم عن قـــرطبة ويفرقهم فى كـــور الاندلس • وهكذا رضى به « أهل الشام وعرب البلد » ، واطمأن كذلك أهل البربر •

وظهرت فى تلك الفـــترة شخصـــية الصميل بن حاتم المعـــروف بابن الجوشن(١٤) وظهرت أطماعه فى السيطرة على الولاية ، وأخذ نفوذه يزداد، ونجح فى اجتذاب فريق من البلديين اليه من عشيرة القيسية ، وزكى أحقادهم ضد اليمنيين ، وكان أبو الخطار الكلبى ، ينحدر منهم ، ويميل اليهم ، فثاروا على هذا الوالى ، وهزموه فى شهر شوال من ســـنة ١٢٧ (يوليـــو ٧٤٥) ، وبايعوا قائد منهم ، بايعاز من الصميل ، هو ثوابة بن سلامه الجذامى ، وظل هذا فى ولايته الى أن مات فى المحرم ١٢٩ (أكتوبر ٧٤٦) • وكان الصميل يفضل أن يحكم الولاية من وراء ستار ، فأوعز الى أنصاره بمبايعة يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى ، تولى هذا الولاية فى شهر ربيع الثانى من السنة نفسها (يناير ٧٤٧) • وهكذا أصبحت الاندلس ولاية شبه مستقلة عن مركز

الخلافة أو مقر ولايتها فى افريقية ، وأصبح لمن له الغلبة من أهلها أن يبايع الولاة ويعزلهم دون الرجوع الى دمشق أو القيروان(١٥) •

كانت قرطبة مدينة صغيرة فقيرة عندما أشرفت عليها فرقة من سبعمائة فارس من الاعراب والبربر ، واستطاعت أن تقتحم أسوارها وتستولى عليها دون عناء كبير • ولكن قرطبة ما لبثت أن أصبحت عاصمة ولاية فسيحة شاسعة من ولايات الدولة العربية ، وتدفقت عليها الخيرات ، ونزح اليها العرب « أفواجا » ، وتجمعت فيها جيوش المجاهدين لاستكمال فتح الجزيرة • واستقرت أحوال قرطبة ، وأخذت تنمو عمرانا ، وتزداد ثراء فى ربع القرن الاول من تاريخها الاسلامى • غير أن شئونها اضطربت بعد ذلك فترة تقرب من عشرين سنة • واذا كانت تتأثر كثيرا من قيام الفتنة الاولى التى أثارها البربر فى شمال الاندلس تذمرا من استئثار العرب المستقرين فى قرطبة بخيرات الولاية ، فانها اضطربت أشد الاضطراب من آثار الفتنة الثانية التى أثارها فى السنة التالية قدوم عرب الشام بقيادة بلج ، أو التى أثارها على الاصح ضيق عرب البلد المستقرين فى العاصمة بهؤلاء الدخلاء الوافدين عليهم • وقد استطاع أبو الخطار أن يضع حدا لهذه الفتنة بتفريق « أهل الشام على الكور » ، « فأنزل أهل دمشق بالبيرة ، وأهل الاردن برية ، وأهل فلسطين بشذونة ، وأهل حمص بأشبيلية ، وأهل قنسرين بجيان ، وأهل مصر بباجة ، وبعضهم بتدمير » (١٦) •

واستقرت أحوال قرطبة مرة ثانية لمدة سنتين ، وبدأت فى سنة ١٢٧ (٧٤٥) سلسلة الفتن التى أثارتها الاحقاد والاطماع فى الولاية • وكانت شئون الخلافة الاموية فى دمشق قد بدأت تضطرب قبل ذلك بسنة ، اثر مقتل الخليفة الوليد بن يزيد • وبدأت أحوال افريقية تضطرب كذلك ، فكان طبيعيا أن يلقى هذا الاضطراب صدى له فى ولاية الاندلس وفى عاصمتها قرطبة

وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى يطمع فى « التغلب » على الولاية ، ولكن الصميل ، وعميله ثوابة ، سبقاه اليها فى سنة ١٢٧ • وحاول انتزاع السلطة، فى سنة ١٢٩ ، زعيم آخر اسمه يحى بن حريث الجهامى ، بالاتفاق مع أبى الخطار ، الوالى الاسبق الذى كان الصميل قد عزله ، وأخيرا « وثب » كل من تميم بن معبد والحبحاب بن رواحة وعامر بن عمرو القرشى ، ولكن يوسف الفهرى استطاع التغلب عليهم(١٧) • وظلت الفتن تتفاقم والاضطرابات تشتد ، الى سنة ١٣٨ (٧٥٦) ، وكاد يتمزق شمل الاندلس •

حـواشى الفصل الاول

(١) تاريخ فتح الاندلس وحكامها معروف مسجل فى مصادر عـربية كثيرة وفى كتب المؤرخين العرب والاجانب الذى يتوالى ظهورها منـذ أكثر من قرن . ويقتصر مجهود المؤلف فى هذا الفصل على اجمال هذا التاريخ وتلخيصه ، وضبط تواريخه وأحداثه عندما تختلف المصادر فيها ويجد القـارىء فى حـواشى هذا الكتاب اسماء المصادر والمراجع مفصلة ، ويعـاد نشرها فى آخـر الكتاب ، فى « بيان الكتب » ، وفقا للترتيب الابجدى للمؤلفين .

(٢)أهم ما ظهر من الكتب الحديثة عن فتـح الاندلس وقرطبة ، باللغـة العربية ، هو كتاب « فجر الاندلس » تاليف مؤنس (الدكتور حسين) . طبـع القاهرة سنه ١٩٥٩ ، وباللغه الفرنسية ، كتاب « تاريخ أسبانيا الاسـلامية » تاليف (ليفى بروفنسـال) ، طبع لندن ونشر باريس ، الجزء الاول ، سنة ١٩٥٠.

وفى هذين الكتابين بيان مفصل بالمصادر والمراجع .

(٣) أهم مرجع حديث لتاريخ أسبانيا القوطية هو الجزء الثالث من « تاريخ اسبانيا » ، « أسبانيا القوطية » المنشور باشراف (مننديث بيدال) :

ويجد القارىء ملخصا لهذا التاريخ فى كتاب « تاريخ أسبانيا الاسـلامية » تاليف (ليفى بروفنسال) ، الجزء الاول : صفحات ١ الى ٨ ، وفى صفحات ٥١ الى ٦٥ من كتاب « تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس » تاليف سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) طبع دار المعارف ـ لبنان ، سنة ١٩٦٢ ، وفى صفحات ٢٧ الى ٣٧ من كتاب « دولة الاسـلام فى الاندلس » تاليف عنان (محمد عبد الله) : العصر الاول ،قسمان فى مجلدين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٠ .

(٤) صفحة ٢٠٣ من الجـزء الاول من « كتاب البيان المغـرب فى أخبار الاندلس والمغرب » تاليف ابن عذارى (أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشى)، المتوفى فى القرن السابع (الثالث عشر الميلادى) ، جزءان ، نشر (ليفى بروفنسال) و (كولان) ، ليدن ١٩٤٨ ـ ١٩٥١ ، وطبع الجـزء الثالث بالقاهـرة فى سنة ١٩٣٠ ، ويراجع كتاب « ناريخ المغرب العربى » ، تاليف زغلول (الدكتور سعد) الاسكندرية : ١٩٦٥ .

(٤ب) كان فتح الاندلس ، بعد أنتصار العرب فى معركة شذونة ، على حد قول بعض المؤرخين الاسبان ، « مجرد نزهة عسكرية » . ينظر تعليق الدكتور

أحمد مختار العبادى عن اسم هذه المعركة وموقعها فى مقدمته عن « وصف الاندلس » لابن الشباط ، صفحات ٢٧ الى ٤٠ من المجلد الثالث عشر من مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، ١٩٦٥ — ١٩٦٦ . وينظر كذلك للمؤلف نفسه ، صفحات ٢٩ الى ٣٥ من كتابه « دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس » ، الطبعة الاولى : الاسكندرية ١٩٦٨ .

(٥) تراجع خاصة عن حملات فتح الاندلس المصادر التالية : صفحات ٢ الى ٦٦ من « أخبار مجموعة فى فتح الاندلس » لمؤلف أندلسى مجهول ، نشره (لافونتى الكانتارا) فى مدريد ١٩٦٧ .

وصفحات ٢ الى ٢١ من كتاب « تاريخ افتتاح الاندلس » لمؤلفه ابن القوطية القرطبى ، مدريد ١٩٢٦ ، وصفحات ٢٠٤ الى ٢٢٥ من كتاب « فتوح مصر والمغرب والاندلس » لمؤلفه ابن عبد الحكم (ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم القرشى) المتوفى سنة ٨٧٠/٢٥٧ ، نشر شارل تورى ، طبعة ليدن ١٩٢٠ وصفحات ٥ الى ٤٩ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وصفحات ٢١٤ الى ٢٧٩ من الجزء الاول من كتاب « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » ، ١٠ أجزاء ، نشرها الاستاذ محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

ويجد القارىء رواية فتح قرطبة مفصلة فى صفحتى ٩و١٠ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » ، وفى صفحة ٢٤٤ من الجزء الاول من « نفح الطيب » ، كما يجد نبذة عن مغيث الرومى فى صفحات ١١ الى ١٣ من الجزء الرابع من هذا المرجع الاخير .

(٦) تنظر المراجع المشار اليها فى الحاشية السابقة ، ويراجع ملخص هذه الحملة فى صفحات ٩١ الى ١٠٦ من كتاب « تاريخ المسلمين » للدكتور سالم ، وصفحة ٥١ الى ٥٣ من « دولة الاسلام فى الاندلس » لعنان .

(٧) تنظر صفحة ١٤ من كتاب « غزوات البرابرة » تأليف (لوت) :

وصفحة ٢ من الجزء الاول من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » تأليف (ليفى بروفنسال) .

(٨) تختلف الروايات فى تاريخ بداية ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، كما أن بعضها ينسب الى أيوب بن حبيب اللخمى نقل العاصمة الى قرطبة ، وقد

اخذت بأكثر الروايات رجحانا . هذا ويضاف الى المصـــادر المشـــار اليهـــا فى الحاشية رقم (٥) الجزء الثالث من كتاب « الكامل فى التاريخ » لمؤلفه ابن الاثير (على بن أحمد بن ابى الكرم المتوفى سنة ٦٣٠ (١٢٣٨) ، ١٢ جـــزءا ، طبـــع المطبعة الاميرية ، بولاق ، ١٢٧٤ — ١٢٩٠ (١٨٥٧ — ١٨٧٣) ، و « كتـــاب اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام » لمؤلفه ابن الخطيب (لسان الدين) المتوفى سنة ٧٧٦ (١٣٧٤) ، نشره ليفى بروفنسال ، الرباط ، سنة ١٩٣٤ ، والجزء الرابع من كتاب « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، لمؤلفه ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمـــد) ، المتوفى سنة ٨٠٨ (١٤٠٦) ، ٧ أجزاء ، طبـــع بولاق ، ١٢٨٤ (١٨٦٧) ، و « كتـــاب التكملة لكتاب الصلة » ، لمؤلفه ابن الابار (أبو عبد الله محمـــد بن عبـــد الله القضاعى)، المتوفى سنة ٦٥٨ (١٢٦٠) ، نشره (جـــونثالث بلنســـية) ، مدريد ، ١٩١٥ .

(٩) بقى الحر بن عبد الرحمن الثقفى فى الولاية الى شهر رمضان من سنة ١٠٠ (ابريل ٧١٩) اذ أعفى من منصبه وخلفه (١) السمح بن مالك الخـــولانى ، الذى استشهد فى شهر ذى الحجة سنة ١٠٢ (يونية ٧٢١) ، وناب عن الولاية (٢) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى مدة شهرين ، الى أن وفد (٣) عنبسة بن سحيم الكلبى واليا فى شهر صفر سنة ١٠٣ (أغسطس ٧٢١) ، واستشهد فى شهر شعبان من سنة ١٠٧ (يناير ٧٢٦) ، واختار أهل الاندلس (٤) عذرة بن عبد الله الفهرى ، وبقى فى الولاية شهرين ، الى أن قدم (٥) يحى بن سلمة الكلبى ، عينه الخليفة هشام بن عبد الملك ، وظلت ولايته سنتين وستة أشـــهر من ١٠٧ الى ١١٠ (٧٢٦ الى ٧٢٨) ، وتعاقب على الولاية من بعد يحى أربعة ولاة لم تطل مدة ولاية كل منهم غير أشهر ، وهم (٦) حذيفة بن الاحوص الاشـــجعى ، و (٧) عثمان بن أبى نسعة الخثعمى و (٨) الهيثم بن عبيد الكنانى ، و (٩) محمد بن عبد الله الاشجعى ، وكانوا جميعا من القيسية ، وفى شهر صـــفر من ســـنة ١١٣ (مارس ٧٣١) عهد بالولاية للمرة الثانية الى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى وهو الذى استشهد فى رمضان ١١٤ (أكتوبر ٧٣٢) ، فخلفه (١٠) عبد الملك بن قطن الفهرى الذى عزل فى رمضان ١١٦ (سبتمبر ٧٣٤) ، وولى بعده (١١) عقبة ابن الحجاج السلولى ، وعزل بعد خمس سنوات من ولايته فى صفر سنة ١٢١ (فبراير ٧٣٩) ، وعاد الى الولاية سلفه عبد الملك بن قطن الفهرى ، وبقى فيها سنتين وتسعة أشهر الى أن قتل ، واغتصب الولاية (١٢) بلج بن بشر القشيرى

فى ذى القعدة ١٢٣ (سبتمبر ٧٤١) ، ولكنه قتل كذلك بعد أحد عشر شـــهرا ، واستولى على الولاية (١٣) ثعلبة بن سلامة العاملى الذى عزل بعد تسعة أشهر فى رجب ١٢٥ (مايو ٧٤٣) ، وتولى الولاية بعده (١٤) أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى ، وظل بها سنتين وثلاثة أشهر الى شوال ١٢٧ (يوليـــو ٧٤٥) ، وتغلب عليه (١٥) ثوابة بن سلامة الجذامى وانتزع الولاية منه وظل قائما عليها سنة واحدة وثلاثة أشهر الى أن مات فى المحـــرم ١٢٩ (أكتوبر ٧٤٦) ، وظلت الولاية شهرين دون وال الى أن اختار أهـــل الاندلس بايعاز من الصميل (١٦) يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، فى ربيع الثانى ١٢٩ (يناير ٧٤٧) ، الذى كان آخر الولاة التسعة عشر الذين حكموا الاندلس منذ رحل عنها موسى بن نصير . ينظر ابن عذارى ، الجزء الثانى من « البيان المغرب » ، صـــفحات ٢٥ الى ٣٨ وفيها ملخص تاريخ هؤلاء الولاة وكذلك صفحات ١٣ الى ٢٦ من الجزء الرابع من « نفح الطيب » للمقرى .

(١٠) يجد القارىء ملخصا مركزا لتاريخ هذه الحملات فى صفحات ٥٣ الى ٧١ من الجزء الاول من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » تأليف (ليفى بروفنسال) . وقد اعتمد هذا العالم فى كتابة أحداث هذه الحملات على المصـــادر العـــربية واللاتينية معا ، وتعتبر النتائـــج التى انتهى اليها بحثه أكـــثر ما كتب فى هـــذا الموضوع دقة ، وفى الحاشية (١) من صفحة ٥٤ من كتابه المشـــار اليـــه أورد المؤلف بيانا بهذه المصادر .

وكانت الاندلس حينذاك تشمل خمس ولايات ، الولاية الاولى تضم قرطبة واشبيلية ومالقة واستجة وأحواز هذه المدن ، والولاية الثانيـــة تضم طليطـــلة وقونقة وشقومية وبلنسية ودانية ولقنت وقرطاجنة ومرسية ولورقة وبسطة ، وأحوازها ، والولاية الثالثة ، ماردة وباجـــة وبابرة وأشـــبونة وقلمرية ولك واسترقة وشلمنقة ، والولاية الرابعة ، سرقسطة ، وطـــرطوشة وطركونة وبرشلونه وأرتله ووشقة وبلد الوليـــد وببشتر ، والولاية الخامســـة ، أربونه ونيمه وقرقشونه وبزييه .

(١١) تراجع تاريخ هذه المؤامرات وأحداثها فى عهد ولاة الاندلس فى الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى ، والجزء الرابـــع من « كتاب العـــبر » لابن خلدون ، والجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(١٢) يجد القارىء سردا مفصـــلا لثورة البرابرة فى مقال بعنوان « ثورة

البربر فى افريقية والاندلس بين سنى ١٠٢ و ١٣٦ (٧٢١ — ٧٣٥) » نشره مؤنس (الدكتور حسين) فى مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة ، الجزء العاشر، مايو ١٩٤٨ .

(١٣) تنظر صفحة ١٩ من « تاريخ افتتاح الاندلس » لابن القوطية ، وصفحة ٤٥ وما يليها من « أخبار مجموعة » لمؤلف مجهول ، وصفحة ٤٨ وما يليها من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(١٤) كان الصميل حفيد شمر بن ذى الجوشن قاتل الحسين بن على بن أبى طالب .

(١٥) استطاع فريق من عشيرة اليمنيين أن يتجمعوا وينقضوا على يوسف ابن عبد الرحمن وأنصاره ولكنهم هزموا فى موقعة شقنده ، قرب قرطبة ، فى سنة ١٣٠ (٧٤٧) . وقامت لهذا الفريق قائمة ثانية بعد ذلك بثلاث سنوات ، وحالفوا البرابرة ، ضد يوسف والصميل وأنصارهما ، ولكن محاولتهم هذه باءت كذلك بالفشل فى سنة ١٣٧ (٧٥٥) .

(١٦) صفحة ٦٠ من الجزء الاول من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(١٧) شرحه ، صفحتا ٤٢ و ٤٣ من الجزء الثانى .

خــريطة الاندلس والممالك المسيحية

فى عهــد الامــير عبد الله

أنظر الخــرائط فى آخــر الكتاب

الفصـــل الثانى

قرطبة فى عهـد الامارة الامـوية

(١٣٨ الى ٣٠٠ — ٧٥٦ الى ٩٢٩)

١ — عبد الرحمن الداخلى وقيام الامارة (١٣٨ — ٧٥٦)

٢ — هشام بن عبد الرحمن « الرضـا » (١٧٢ — ٧٨٨)

٣ — الحـكم بن هشـام « الربضى » (١٨٠ — ٧٩٦)

٤ — عبد الرحمن بن الحكم « الاوسط » (٢٠٦ — ٨٢١)

٥ — محمد بن عبد الرحمن وابنه المنـذر (٢٣٨ — ٨٥٢)

٦ — عبـد اللـه بن محمـد (٢٧٤ — ٨٨٨)

الفصـــــل الثانى

عهـد الامارة الاموية

— ١ —

عبد الرحمن الداخل وقيام الامارة(١٦)

(١٣٨ الى ١٧٢ — ٧٥٦ الى ٧٨٨)

انقطعت الروابط التى كانت تربط ولاية الاندلس بالخلافة الامـوية منذ أصبح للصميل نفوذ كبير جعله يتحكم فى عزل الولاة واختيارهم ، ولهذا لم يكن لسقوط الدولة فى منتصف سنة ١٣٢ (أوائل ٧٥٠) ، أثر مباشر يذكر على مجرى شئون الولاية ، أو استقرار نظام الحكم فيها •

الا أنه قد تبع سقوط الدولة الاموية ظهور حـدث جـديد ، لم يكن متوقعا ، ولكن الظروف المضطربة التى كانت قائمـة حينـذاك فى الولاية ، هيأت الفرص المواتية لتدخله فى تغيير نظام الحكم فيها تغييرا جـوهريا ، وتوجيه مصائرها نحو آفاق مديدة • ذلكم أبو المطـرف عبـد الرحمن بن معاوية ، حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك •

ولد عبد الرحمن فى سنة ١١٣ (٧٣١) ، أى أنه لم يكن قد بلغ احدى وعشرين سنة عندما تغلب أبو العباس ، أول الخلفـاء العباسـيين ، على مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الامويين فى المشرق ، وأمر قائده وعمه عبد الله بتعقب مروان وتعقب أفراد الاسرة الاموية بالقتل والتنكيل والتشريد، فقتل مروان ، وقتل فيما يقال ، ثلاثمائة من أفراد أسرته ، ولكنه كتب لعبد الرحمن ذاك أن يفلت من أيدى العباسيين ، وأن ينجح فى الفرار الى بـلاد

المغرب الاقصى ، مستصحبا اليها بدرا مولاه ، ملتمسا فيها النجاة والسلام. واستقر عبد الرحمن فى قرية لقبيلة نفزة ، بالقرب من مدينة سبتة ، بعد أن تعرض لمشاق طويلة ، تحملها بشـــجاعة فائقة وصبر شـــديد ، طيلة أربـــع سنوات(١٧) .

ومن هذه المنطقة التى تطل على شواطىء الجزيرة تطلع عبد الرحمن الى الاندلس ، وبدا له أن يجــرب حظه فيها ، عسى أن تتـــاح له الفرصـــة للاستيلاء على تلك الولاية . وأخذت الفكرة تنمو وتتجسم عندما فطن الامين الى اضطراب أحوال الاندلس حينذاك ، والى أنه كان بها قوم يعتد بهم من موالى بنى أمية ، وهم الذين بعثهم جده هشام مع بلج من جند الشـــام . ولعل بدرا كان له شأن فى بزوغ هذا الامل أمام الامير الشريد الوحيد .

ويحدثنا المؤرخون كيف أن عبد الرحمن أوفد مولاه بدرا فى أواخـــر سنة ١٣٦ ، (منتصف ٧٥٤) ، الى الجزيرة ليختبر الامر ، ويتصل بهـــؤلاء الموالى ، ويبذل لهم الوعود « باعلاء الدرجة ولطف المنزلة » . والتقى بدر باثنين من زعماء جند الشام ، هما عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ، فاستحسنا الرأى ، وصحباه الى زعيم آخر منهم ، هو أبو الحجاج يحى بن بخت . واتفق الزعماء الثلاثة على أن يفاتحوا بالامر الصميل ، ذلك الزعيم القيسى الذى كان ، كما رأيناه ، صاحب السلطة الفعلى فى البلاد . وتردد الصميل أول الامر ، ثم وافق على رأى الزعماء ، ثم تراجع ونقض وعده . وبعد أن تشاور الزعماء الثلاثة مع بدر قر رأيهم على أن يفاتحوا خصوم الصميل ، ورحب هؤلاء بهذا الامر ترحيبا كبيرا ، فقد كانت صدورهم متوغرة ونفوسهم تواقة الى الثأر من الصميل ويوسف الفهرى ، اذ أنهم لم ينسوا هزيمتهم فى شقندة ، قبل ذلك بست سنوات(١٨) ، وكانت هذه فرصتهم ، فوق ذلك ، لبلوغ علو « الدرجة والمنزلة » ، فتهيأ هؤلاء القـــوم وأعـــدوا

العدة لتدبير الامر وتنفيذ الخطة ، وأوفدوا جماعة منهم برئاسة تمـام بن علقمة الثقفى صحبة بدر ليستدعوا الامير عبد الرحمن اليهم • وأسرع هذا بركوب البحر معهم ، فوطئت قـدماه أرض الاندلس ، لاول مـرة ، على شاطىء البحر ، عند ثغر المنكب ، أول ربيع الاول سنة ١٣٨ (١٤ أغسطس ٧٥٥) •

أقبل القوم على الامير يرحبون بمقدمه بقـدر حنقهم على الصميـل ويوسف الفهرى ، وتجمع الشاميون وبعض البلديين وكثير من البربر حوله، يزيدونه امدادا وتأييدا ، وتفرق كثيرون من جند يوسف وانفضوا من حوله، وكان حينذاك مع الصميل فى طليطلة ، فعادا مسرعين الى قرطبة عندما بلغهما خبر قدوم عبد الرحمن وسيره مع أنصاره الى العاصمة ، بعد أن دخل ظافرا أشبيلية فى شوال من تلك السنة (مارس ٧٥٦) • وكان جيش عبد الرحمن يتضخم بمن ينضم اليه طوال الطريق ، من ثغر المنكب الى أشـبيلية ، من الجند ، فرسانا ورجالة ، يمنيين وقيسيين وبربر • والتقى هذا الجيش بجيش يوسف الفهرى على أبواب قرطبة ، فى المصارة ، صباح الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ (١٥ مايو ٧٥٦) ، وكان النصر حليف الامير ، فدخل قصر الامارة فى قرطبة ، ووضع الحريم اللاتى كن به فى حماه ، وحال بـين جنده وبين ما كانوا يتوقون اليه من أعمال السلب والسبى ، ودخل المسجد الجامع فألقى خطبة الجمعة ، وبايعـه الناس أمـيرا على الاندلس ، وكان عمره حينذاك خمسا وعشرين سنة • وظل أشهرا يدعو للخليفة العباس فى خطبة الجمعة ، ثم أسقط الدعوة له ، وصار يدعى له باسمه وحـده متلقبا بالامام أو بابن الخلائف •

أظهر عبد الرحمن الداخل مقدرة فائقة على تحمل أعباء الامارة بمـا أوتيه ، كما يصوره لنا المؤرخون من سرعة الخاطر وحـدة الذكاء ووفـرة

النشاط وحسن الرأى وشدة الحذر ومضاء العزيمة • واتجهت عنـايته أول الامر الى توطيد حكمه ، وذلك بالقضاء على خصميه ، يوسـف والصميل ، اللذين كانا قد فرا الى طليطلة وجيان لاعداد جيوش يستردان بها سلطتهما• ولكنهما اقتنعا بعجزهما عن مواجهة الامير ، وطلبا منه الامان فى منتصـف سنة ١٣٩ (أواخر ٧٥٦) ، أى بعد أشهر قلائل من مبايعته • وقبل الامـير توبتهما وأسكنهما قرطبة وأكرمهما • غير أن يوسف نقض عهده بعد ثـلاث سنوات ، وفر من قرطبة ، وجمع جيشـا كبيرا معظمـه من البربر وحاول الزحف الى قرطبة ، ولكنه هزم فى طريقه اليها ، فارتد الى طليطلة ، وظـل أشهرا شريدا الى أن قتله بعض أنصاره فى سنة ١٤٢ (٧٥٩) • وكان مصير أن وجد مشنوقا فى سجنه بعد ذلك بأشهر • وهكذا تخلص عبد الرحمن من خصميه اللدودين ، وأصـبح أميرا للاندلس دون منازع ، وكان قد قطـع الخطبة لبنى العباس منذ سنتين أو ثلاثة •

وحاول عبد الرحمن من جهة أخرى أن يوفق بين الاعـزاب البلديين والشاميين ، وأن يطفىء الفتنة بين اليمنيين والقيسيين ، وأن يعزز موقفـه منهم بفتح منافذ الاندلس لطبقات النازحين اليها من بلاد الشرق ، أفـراد أسرته وأنصارهم ، ومن افريقية وبلاد المغرب ، عربا وبربرا • ثم انه اتبع أول الامر مع المتمردين من أفراد رعيته سياسة التسامح ، ولمـا لم تنجـح قاتلهم بالسيف • وأمضى ثلاثين سنة فى قمع ثوراتهم بشـدة وجـبروت ، متيقظا للحوادث ، حتى « لا يفاجأ بها » • هذا من جهه ، ومن جهة أخرى ، فقد كان عبد الرحمن يكثر من شراء الموالى والعبيد والعجم ، اشتراهم من أسيادهم فى الاندلس أو فيما وراء البرتات ، كما أنه استدعى من المغـرب كثيرا من البربر ، وجمع من هؤلاء وأولئك جيشا كثيفا • وأحسن تنظيمـه واختيار رؤسائه وقواده •

تعددت ثورات العرب فى عهد الامير عبد الرحمن الداخل(١٩) ، ولعل أهمها ثورة العلاء بن مغيث الجذامى فى باجــه ، سنة ١٤٦ (٧٦٣) ، وهى التى كان العلاء هذا يدعو فيها الى الولاء للدولة العباسية والى طاعة الخليفة أبى جعفر المنصور • وكانت هذه الثورة خطيرة ، اذ اســتطاع العــلاء أن يجتذب اليه خلقا كبيرا من أهل الاندلس ، وخاصة من طائفة اليمنية • غير أن عبد الرحمن استطاع أن يخمد هذه الثورة بنفسه ، أمام حصن قرمونة ، وأظهر من الاقدام والشجاعة ما أسفر عن مصرع العلاء وتشتت أنصاره • وقيل ان عبد الرحمن أمر أن تحمل رأس العلاء الى مكة ، حيث كان الخليفة المنصور يؤدى فريضة الحج ، وتوضع أمام سرادقــه • وكان من أخطــر الثورات التى واجهها عبد الرحمن كذلك ، ثورة عاملة فى سرقسطة فى ســنة ١٦١ (٧٧٨) ، سليمان بن يقظان ، المعروف بابن الاعرابى ، الذى كان قــد استعان بأحد المغامرين المدعو حسين بن يحى الانصارى • وبعث الامــير اليهما جيشا بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامى ، وحاصر الجيش سرقسطة ، غير أن ابن الاعرابى تحايل على مفاجأة الجيش يوما ، وتمكن من ايقاع ثعلبه فى أسره مما اضطر الجيش الى فك الحصار عن المدينة • وترك ابن الاعرابى حليفه الانصارى قائما عليها • وأخذ أسيره متجها الى لقاء (قارله) ، ملك الافرنجة(٢٠) ، وسلمهالقائد الاسير وحرضه على غــزو الاندلس • وكان (قارله) يتطلع الى هذا الغزو ، فخرج على رأس جيش كبير ، فى شــوال ١٦١ (مايو ٧٧٨) ، وهاجم بنبلونة واستولى عليها • ثم اتجه نحو سرقسطة فصمد له حسين بن يحى الانصارى فيها ، ونقض اتفاقــه مع حليفــه ابن الاعرابى ، وحاصر (قارله) المدينة • ولما طال الحصار ، وكانت قد وصلته أنباء بوقوع اضطرابات فى شمالى بلاده ، رفع قارله الحصار وعاد قافــلا الى بلاده فى المحرم من سنه ١٦٢ (أغسطس ٧٧٨) سالكا نفس الطريق الذى اجتازه فى قدومه الى سرقسطة(٢١) • ولم يعاود (قارله) الكرة فى

عهد عبد الرحمن الداخل ، بل انهما اتفقا على الصلح والمهادنة(٢٢) . أما ابن الاعرابى فقد أوعز الانصارى بقتله ، بعد انسحاب (قارله) بأشهر وانفرد هو بحكم سرقسطة ، الى أن جهز الامير عبد الرحمن جيشا قاده بنفسه وحاصره فى سنة ١٦٤ (٧٨٠) ، فطلب الانصارى الصلح ، ورضى الامير به ، ولكن الانصارى نقض عهده بعد ذلك ، فعاد عبد الرحمن فى سنة ١٦٦ (٧٨٢) وحاصر سرقسطة من جديد ، وشدد عليها الحصار وهاجمها حتى أسلمت ، وعاقب الامير أهلها عقابا صارما ، وأمر بحسين بن يحى الانصارى أن يقتل ، فقتل وقطع اربا .

وكانت آخر الثورات التى قامت بالاندلس ضد عبد الرحمن الداخل تلك التى تزعمها أبو الاسود محمد بن يوسف الفهرى فى طليطلة ، وفى قول فى قسطلونة ، فتوجه اليه عبد الرحمن على رأس جيش ، وقضى على ثورته فى أول ربيع الاول سنة ١٦٩ (١١ سبتمبر ٧٨٥) ، واضطره الى الفرار الى الجبال فى شمال الاندلس(٢٣) .

استطاع الامير عبد الرحمن الداخل أن يقضى على هذه الثورات جميعا بفضل جيشه المنظم وقادته الاكفاء المخلصين ، وبفضل اقدامه ونشاطه المتواصل . وكثيرا ما كان يتولى بنفسه قيادة جيوشه ، واستطاع أن يجمع طوائف أهل الاندلس حوله ، بلديين وشاميين وبربرا ، قيسيين ويمنيين ، وأن يطمئن الى ولائهم له ورضائهم بحكمه . ولم تكن تلك الثورات التى عكرت صفو عهده شاغلة له عن العناية بشئون امارته أو مملكته ، اذ أنه ، ان لم يتطلع الى الخلافة التى كانت لاجداده ، فلم يتلقب بالخليفة ، مكتفيا بلقب « ابن الخلائف » ، فانه اتخذ ألقاب « الامير الاكرم والملك المعظم » . واستطاع كذلك أن يكتسب تقدير الخليفة العباسى وأمراء الدولة الاسلامية واحترامهم ، وأن يفوز بلقب « صقر قريش »(٢٤) . وقد قسم عبد الرحمن

مملكته الى عدد من الكور ، وجعل لكل كورة قاعدة ، وأقام على كل منها واليا أو عامــلا • وكانت أهم هــذه الكور فى عهـــده ، أشبيلية وسرقســطه وطليطلة وماردة •

وأخذت قرطبة ، كما سنرى ، « تعظم » فى عهــده ، وتتخــذ مظهر العاصمة الكبيرة ، الجديرة بتلك المملكة الشاسعة ، وأخذ عدد سكانها يزداد بسرعة ، مما حمله على الاكثار من انشاء المساجد وزيادة المسجد الجامــع وبنائه من جديد • وسنرى فيما بعد أهمية أعماله العمرانية والحضارية فى قرطبة • ويكفينا فى هذه اللمحة التاريخية أن نشير الى أنه بنى دارا جديدة للامارة ، وجدد أسوار قرطبة ، وأنشأ مدينة الرصافة ، على غرار رصــافة جده هشام بن عبد الملك بالشام(٢٥) •

مات عبد الرحمن الداخل يوم ٢٥ ربيــع الثانى من ســنة ١٧٢ (٣٠ سبتمبر ٧٨٨) بعد حكم دام ما يقرب من أربع وثلاثين سنة ، ولما كان يبلغ الستين من عمره • وقد أجمــع مؤرخــو العــرب والاجانب ، القــدامى والمحدثين ، على الاشارة بشخصيته وأعماله ، وأدبه وكرمه(٢٦) •

وكفاه ذكرا أنه وطد حكم العرب والاسلام فى الاندلس ، ومهد لقيام مملكة عظيمة فيها ، وبنى أسس حضارة زاهرة يتفاخر بها اليوم العــالمين العربى والغربى ، وشمل قرطبة برعايته حتى غدت فى عهد أحفاده « عاصمة الدنيا وأم المدائن » •

(٢)

هشـــام بن عبد الرحمن « الرضا »

(١٧٢ الى ١٨٠ — ٧٨٨ الى ٧٩٦)

كان هشام بن عبد الرحمن عاملا على ماردة ومقيما بها يوم مـــوت أبيه ، فأخذ البيعة له أخوه الاصغر ، عبد الله ، وأسرع هو بالعـــودة الى قرطبة ، وبدأ امارته فيها أول جمادى الاولى سنة ١٧٢ (٧ أكتوبر ٧٨٨) ، وكان عمره حينذاك اثنتين وثلاثين سنة • وكان لهشام هذا أخ أكبر اسمه سليمان ، وكان عاملا على طليطلة من قبل أبيه الا أن الامير عبد الرحمن كان يفضل هشاما ويميل اليـــه لـــ « فضـــل دينه وعفـــافه واجتماع الكلمـــة عليه »(٢٧) • وغضب ســـليمان لتخطيه فى وراثة الامارة • وثار فى وجـــه أخيه ، وأعد جيشا فى طليطلة زحف به نحو قرطبة لانتزاع الامارة ، معلنا أحقيته فيها ؛ ولكن الجيوش الموالية لهشام صدته فى الطريق واضطرته الى العودة من حيث جاء ، فتحصن فى طليطلة وظل معلنا العصيان الى أن خرج هشام فى السنة التالية على رأس جيش لمحاصرة أخيه فى طليطلة ، واضطره الى الفرار منها(٢٨) •

كانت هذه أولى الثورات التى واجهها الامير هشام • وقد واجه كذلك ثلاث ثورات أخرى ، الاولى فى طرطوشة سنة توليه الامارة ، والثانية فى برشلونة وسرقسطة ، فى السنة التالية ، ١٧٣ (٧٨٩) ، والثالثة فى رنده ، فى أواخر سنة ١٧٨ (أوائل ٧٩٥) • وقد تغلب هشام على هـــذه الثورات جميعا دون عناء كبير(٢٩) •

كان هشام على جانب كبير من الورع والتقوى ، وامتاز عهده بالهدوء النسبى والاستقرار ، ورضاء الرعية عنه ، حتى أن الناس كانوا يسمونه « هشام الرضى » • ويمتاز عهده كذلك باستئناف الجهاد ضـــد الاسبان

والفرنجة • وكانت حدود الاندلس فى تلك الفترة قد استقرت على ما كان يسمى بالثغور : الثغر الادنى ، والثغر الاوسط ، والثغر الاعلى • وكان يحد هذه الثغور مناطق مهجورة فى معظمها ، تفصل بين الاندلس وبين الممالك المسيحية • وكانت هذه الحدود تمتد من غرب الى شرق على ضفاف نهر دويره . من مصبه فى برتقال الى مشرف osma ، ثم تنحرف حتى بلاد البشكنس • وكانت المدن الاسلامية العامرة فى أقصى الشمال الغربى من الاندلس هى ، قلمرية وقورية وطلبيرة وطليطلة ووادى الحجارة •

وأخذت تلك الثغور تصبح مسرحا لغزوات مملكتى جليقية والبشكنس، اللتين كانتا تعملان على توطين السكان بهذه المناطق المهجورة وتقويتها ، وبالتالى على امتداد حدودهما داخل الثغور الاندلسية • وكان الامير هشام يميل الى الجهاد ، وكان يجهز فى صيف من كل سنة حملة لمحاربة القوط والفرنجة ، وهى ما تعرف بالصوائف • وبلغ عدد هذه الصوائف فى عهده سبعة أو أكثر ، خرجت فى سنوات ١٧٥ و ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ و ١٧٩ (من سنة ٧٩١ الى سنة ٧٩٥) • وكانت وجهتها بلاد ألبة والقلاع وجليقية وأشتوريش ، فى الشمال الغربى من أسبانيا ، ما عدا صائفة سنة ١٧٧ فقد غزت أربونة وجرندة وجنوب بلاد الفرنجة • وقد لقيت هذه الصوائف نجاحا كبيرا ، فيما عدا صائفة فى سنة ١٧٨ (٧٩٤) ، فقد هوجم الجيش الجيش العربى أثناء عودته ، ومنى بالهزيمة ، وتكبد خسائر جسيمة • ولكن الانتصار كان حليف الصوائف الاخرى ، وكانت الجيوش تعود منها محملة بالسبى والغنائم ، وكاد الملك أذفونش ملك أبيط(٢٩ب) ، أن يقع أسيرا فى صائفة منها • وقد ظهرت فى هذه الصوائف مقدرة القواد العرب ، وكان معظمهم من قواد الامير عبد الرحمن الداخل ، مثل عبيد الله بن عثمان ويوسف بن بخت وعبد الملك بن عبد

الواحد بن مغيث ، وأخيه عبــد الكريم ، ومثل فــرج بن كنانة وشهيد بن عيسى •

شغلت هــذه الصــوائف أهــل الاندلس عن خلافاتهم العشــائرية ومؤامزاتهم ، وكانت على العكس مثار اهتمامهم بما كان يصلهم من أخبار انتصارات جيوشهم وبما كانت تحمله اليهم من غنائم عظيمة •

كان الجهاد مظهرا من مظاهر صلاح الامير هشام وتقشفه ، وطابعا لعهده الدينى الذى امتاز به ، سواء من حيث سلوكه الشخصى(٣٠) ، أو من حيث أعماله التى تركت أثرا فى مجرى الحياة العامة ، والتى سنوضحها فيما بعد(٣١) ، ومن ذلك تكريمه للفقهاء والعلماء ، مثل صعصعة بن سلام الشامى ، قاضى قرطبة وصاحب الصلاة فيها ، وهو أول من أدخل الاندلس مذهب الأوزاعى ، ومثل زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ، وهو أول من أدخل المذهب المالكى فى الاندلس•ومثل يحى بن مضر القيسى وعيسى بن دينار ويحى بن يحى الليثى • ومن ذلك بنائه المساجد واكماله لمسجد قرطبة الجامع ، واصلاحه لقنطرتها(٣٢) •

وقد أدى تكريم الفقهاء فى عهد هشام الى رفــع مــكانتهم وازدياد نفوذهم ، الى حــد أن جعلهم فيما بعــد ، يتدخــلون فى شئون الحــكم والدولة(٣٣) •

ولم يطل عهد هشــام ، اذ توفى فى أوائل شهر صفر من ســنة ١٨٠ (منتصف أبريل ٧٩٦) ، وكان له من العمر أربعين سنة وأشهرا ، ولما كانت قد تمت ثمان سنوات على توليه الامارة ، وكان قد أوصى بالعهد من بعــده لابنه الاصغر ، أبى العاصى الحكم(٣٤) •

(٣)

الحـــكم بن هشــام « الربضى »

(١٨٠ الى ٢٠٦ ـــ ٧٩٦ الى ٨٢١)

كان الحكم يبلغ الستة والعشرين من عمره عندما بويع بالامارة غداة وفاة أبيه ، وكان فظا صارما عنيفا بالرغم من أنه كان شاعرا موهوبا ٠ وقد امتلأ عهده الطويل بالاحداث ، وخاصة بالثورات الداخلية(٣٥) ٠ وكانت أولى هذه الثورات تلك التى تزعمها كل من عميه ، سليمان وعبد الله ، وقد كانا ، كما سبق أن ذكرنا ، قد استوطنا بلاد المغرب الاقصى ٠ أما سليمان فانه اجتاز البحر الى الاندلس فى سنة ١٨٢ (٧٩٨) ، وحاول جمع أنصار له ومهاجمة ابن أخيه فى قـــرطبة ٠ ولكنه فشل بعـــد محـــاولات خمس ، ومناوشات استمرت سنتين ، واستطاع أحـــد زعماء البربر « من مـــوالى الحكم » أن يقضى عليه ويقتله ٠

وأما عبد الله فكان قد أسرع بالعودة الى الاندلس فور علمه بمبايعة ابن أخيه ، ولكن الانصار الذين كان يؤمل أن يعتمد عليهم خذلوه ٠ ولمـــا فشلت محاولته ، اصطحب ابنيه ، عبد الله وعبد الملك ، الى اكس لاشابل لمقابلة (قارله) واغرائه بغزو الاندلس ، فلم يصغ اليه ملك الافرنجـــة ٠ كان ذلك فى سنة ١٨١ (٧٩٧) وعاد عبد الله بعد ذلك الى الاندلس ليجمع أنصارا له ويحاول محاولة أخرى ، فآب فى هذه المرة كذلك بالفشل ، فـــلم ير بدا من أن يعرض الصلح على ابن أخيه ويطلب الامان منه ٠ ورأى الحكم أن يغتفر لعمه اساءته ، وأكرمه بأن أقطعه كورة بلنسية ، ولهذا لقب عبد الله بالبلنسى ٠ وكذلك أكرم الحكم ابنى عمـــه ، عبيد الله وعبـــد الملك ، واستقدمهما الى قرطبة ، وزوجهما من أختين له ٠ وكانت هـــذه المعامـــلة الكريمه حافزا للعم وابنيه على الاخلاص للامير ، حتى أن عبيد الله أظهر

من الاقدام فى قيادة جيوش قرطبة ضد الاعداء ما أكسبه فيما بعــد لقب « صاحب الصوائف » •

وقامت ثورات متفرقة فى شمال الاندلس ، فى أوائل عهد الحكم ، فى سرقسطة ووشقة وفى منطقة أرغونة ، أى فى الثغر الاعلى ، واستطاع قائد من موالى الحكم المولدين ، اسمه عمــروس بن يوســف ، أن يقضى عليها ويثبت حكم الامارة فى تلك المناطق ، وأنشأ مــدينة محصــنة ، فى الشمال الغربى من سرقسطة ، وهى تطيلة • وكذلك قامت ثورة المولدين فى طليطلة بزعامة عبيد الله بن خمير وغربيب بن عبد الله(٣٦) • وقضى عمروس بن يوسف كذلك على هذه الثورة فى سنة ١٨١ (٧٩٧) ، قضاء اشتهر فى كتب المؤرخين العرب بوقعة « الحفرة »(٣٧) • ولم تقم للمولدين فى طليطلة قائمة طيلة خمس عشرة سنة ، واذا كانوا قد تحركوا بعد ذلك ، فلم تكن حركاتهم خطيرة على الحكم وعهده • وقامت للمولدين كذلك ثورة فى ماردة، اشترك فيها معهم ، واستمر ســبع ســنوات من ١٩٠ (٨٠٦) الى ١٩٧ (٨١٣) حتى هدأت •

وكانت أشد الثورات خطرا تلك التى أثارها الفقهاء ضــد الحــكم ، وحرضوا فيها العامة عليه ، لمــا رأوه فيه من القسوة البالغة و (الانهماك فى اللذات والمباذل »(٣٨) • ففى شهر رمضان سنة ٢٠٢ (مارس ٨١٨) ، قام أهل الربض ، وهى محلة فى الجانب الجنوبى الغــربى من قــرطبة ، وهاجموا قصر الامير ، ولم يكن بينه وبين محلتهم غير الجسر • واستطاع الحكم أن يقضى على ثورتهم قضاء فظيعا ، وقتل منهم خلقا كبيرا ، « وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحرقت ، وأمر بنفى من بقى منهم عن البلاد»، فهاجر منهم أفواج تقدر بالالاف ، منهم من اســتوطن فاس ، ومنهم من اتجه الى الاسكندرية(٣٩) ، وهدم الحكم محلة الربض هــذه ودكها دكا ، فأطلق عليه لقب « الربضى » •

رسم تخطيطى لقرطبة فى عهد الحكم الربضى

أنظر الجــزء الخاص بالخرائط

فى آخــر الكتاب

وقد قيل ان هذه الفتن والثورات شغلت الحكم عن متابعة الجهـاد وايفاد الصوائف التى كان قد استنها أبوه ، وجعلته يفسح المجال لمملـكة أشتوريش من جهة ومملكة الفرنجة من جهة أخرى لتعزز كل منها مواقعها وتهاجم الثغور ، بل وتتسع(٤٠) • صحيح أنه كان قد جهز بعض الصوائف، على فترات متباعـدة فيما بين سنة ١٨٠ وسـنة ٢٠٠ (٧٩٦ ، ٨١٦) الى مناطق القلاع وأشتوريش ، منيت احداها بالهزيمة ، وصاحب النصر بعضها فعادت محملة بالغنائم ، ولكنه أصاب الاندلس ، فى عهد الحكم ، مصيبتان كبيرتان كان لهما أثر خطير فى عهود خلفائه ، وهما ، أولا ، انسلاخ بنبلونة عن الحكم الاسلامى ، فى سنة ١٨٢ (٧٩٨) ، ودخـولها فى حمـاية ملك أشتوريش ، وثانيا ، سقوط برشلونة فى أيدى الفرنجة ، سنة ١٨٧ (٨٠٣)•

أما ما حـدث فى بنبلونة فملخصـه أن أهلهـا ، وكان معظمهم من المولدين المستعربين ، ثاروا فى سنة ١٨٢ (٧٩٨) على واليهم ، مطرف بن موسى بن قسى ، وقتلوه واختاروا واليا عليهم من المستعمرين يدعى بلاسكو ، فوضع نفسه ومدينته تحت حماية أمير البشـكنس • ولم يلبث هذا الامير ، غرسية بن وانكو ، أن اتخذ من المدينة مقرا حصينا له • وقد تقاعس الحكم عن الانتقام لعامله ، ولم يحاول اسـترداد المـدينة واعادة هيبته فيها • وان كان قد جهز صائفة بعد ذلك بعشر سنوات بقيادة إبنه هشام ولكنه وجهها الى جليقية ، على حدود مملكة الاشتوريش ، لا الى البه والقلاع ، على حدود امارة البشكنش • ولم يحرك الحكم ساكنا بعد ذلك الا بعد ثمان سنوات ، فى سـنة ٢٠٠ (٨١٦) • وكانت تلك الفـترة الطويلة التى امتدت منذ انسلاخ بنبلونة فرصة طيبة لانضمام غرسـية ، أمير البشكنس الى اذفنش (ألفونسو الثانى) ، ملك الجلالقة والاشتوريش، فى الاغارة مرارا على حدود الاندلس الشمالية • والظاهـر أن الحـكم لم يستطع صبرا على تكرار هذه الغارات فجهز صائفة فى شهر ذى القعدة من

تلك السنة (يونيه ٨١٦) بقيادة حاجبه عبد الكريم بن مغيث الذى استطاع أن يوقع بجيوش الاذفنش خسائر فادحة ، ويحملها على التراجع ، وينتصر عليها انتصارا عظيما • ولكن الجيش الاندلسى اضطر من جهة أخرى ازاء تحصن الاعداء فى ممر ضيق ، أن يكر راجعا الى قرطبة ، وظلت بنبلونة والمناطق المحيطة بها تابعة للبشكنس •

وأما ما حدث فى برشلونة(٤١) ، فانه يبدو أن معظم أهلها ، مثل أهل بنبلونة • كانوا مولدين ومستعربين ، وأنهم لم يجدوا من أمير الاندلس رعاية رادعة تحميهم من غارات الفرنجة ، فالتمس والى القاعدة ، وكان يسمى سعدون الرعينى ، حماية (قارلة) ملك الفرنجة ، وذلك فى مستهل عهد الحكم . فى سنة ١٨١ (٧٩٧) • وعزم قارلة ، بعد أن أصبح فى سنة ٨٠٠ امبراطورا وتسمى (شارلمان) ، أن يوجه جيشا كثيفا بقيادة ابنه لويس لحصار المدينة ، ولم تقو المدينة على الحصار ، ولم تتلق النجدة من قرطبة ، بالرغم من أن واليها كان قد ألح فى طلب هذه النجدة ، فاضطرت الى الاستسلام فى سنة ١٨٥ (٨٠١) ، وتسلم لويس ، ابن شارلمان ، المدينة ودخلها منتصرا • وانفصلت برشلونة الى الابد من دولة الاندلس ، وأصبحت « رابطة » للفرنجة على حدود الدولة الاسلامية ، بعد أن كانوا يتخذون جرندة ، التى تبعد مائة وعشرين كيلو مترا الى الشمال ، «رابطة» لهم • وبعد ذلك بسنوات ، فى سنة ١٩٢ (٨٠٨) جهز لويس هذا حملة استطاع أن يستولى بها على طرغونة ، جنوبى برشلونة ، وان كان قد اضطر الى اخلائها فى السنة التالية ، سنة ١٩٣ (٨٠٩) ، تحت ضغط الجيوش الاندلسية التى جهزها الحكم بقيادة ابنه عبد الرحمن • وبعد ذلك بسنوات جهز الحكم صائفة كثيفة فى سنة ١٩٧ (٨١٣) بقيادة ابن عمه عبيد الله ، صاحب الصوائف ، فهاجمت حامية برشلونة وألحقت بها هزيمة كبرى . ولكنها لم تنجح فى استرداد المدينة •

لا شك فى أن الحكم كان مسئولا عن انسلاخ بنبلونة وبرشـلونة من الاندلس ، وعن تراجع حدود الدولة الشمالية وانكماشها•ولا يبرر تقاعسه أنه كان متسعولا باخماد الثورات والفتن الداخلية ، اذ أن أخطر الثورات ، وهى ثورة أهل الربض ، اندلعت بعد سقوط هاتين المدينتين ، ولعل تقصيره فى الجهاد كان سببا من أسباب اندلاعها • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كانت للحكم جيوش قـوية منظمة ، جمـع لها « الاجناد والمرتزقـة والاسلحة والعدد » ، وكان له قواد عظام ، وامتد عهده ستا وعشرين سنة • فاذا كان قد جهز بعض الصوائف ، فانها لم تكن تتناسب عددا وأهمية مع طول عهده وقوة جيوشه •

ولكن الحكم شغل قبل كل شىء بحماية شخصه ، واستغل الجيوش والقواد فى الانصراف عن حماية حدود الدولة الى ضمان حياته وارسـاء حكمه(٤٢) • واذا كان معظم مؤرخى العرب قد حمدوا له توطيـد حـكم أسرته ،وأنه « أول من جعل للملك بأرض الاندلس أبهة » ، فقـد اتهمـه البعض الاخر بالفظاظة والطغيان وسوء السيرة ، وقالوا « كان من المجاهرين بالمعاصى ، السافكين للدماء » ، وأكدوا أنه كان مبغوضا من رعيته ، حتى أنها استبشرت خيرا بموته فى أواخر ذى الحجة سنة ٢٠٦ (مايو ٨٢١)(٤٢ب) •

(٤)

عبـد الرحمن الاوسـط(٤٣)

(٢٠٦ الى ٢٣٨ — ٨٢١ الى ٨٥٢)

كان الحكم قد أخذ البيعة قبيل موته لابنه عبد الرحمن ثم لاخيه المغيرة من بعده • وكان عمر عبد الرحمن يوم تولى الامارة ثلاثين سنة ، ولم يكن يشبه أباه ، بالرغم من أنه كان الابن المفضل لديه ، فكان على عكس أبيه ، حريصا على أن يجتذب رضاء الرعية ، والتزم العدالة واللين والتسامح فى أحكامه وأوامره • وكان أول ما فعل ، عند مبايعة أبيه له وقبل أن يتقلد الامارة ، أن أقنع أباه باقصاء القومس ربيع ، الذى كان يشغل منصب قائد الحرس ، والذى كان الحكم الربضى قد طلق يده كذلك فى فرض المغارم على المسلمين وتحصيل « المعاون » ، الامر الذى كانت العامة تسخط عليه فيه ، لان ربيع هذا كان متولى المعاهدين بالاندلس(٤٤) • ونجح عبد الرحمن فى أن يتهمه بتعدى حدود وظيفته ويقدمه الى القضاء الذى حكم عليه بالقتل والصلب • وكذلك حرص عبد الرحمن على أن يرضى الفقهاء ، فبدأ عهده بهدم فندق الخمر الذى كان قائما على عهد أبيه على أبواب قرطبة ، ولهذا أقبل أهل قرطبة جميعا على مبايعته وتقديم فروض الولاء والطاعة له •

وكانت جميع الدلائل تبشر باستقرار حكمه وهدوء عهده • وهذا ما حدث فعلا ، اذ مرت الخمس عشرة سنة الاولى من هذا العهد دون أن تقوم فى البلاد فتنة ذات شأن مثل تلك التى كانت تندلع فى عهد أسلافه(٤٥) وذلك اذا استثنينا ثورة محمود بن عبد الجبار ، البربرى الاصل ، والمولد سليمان بن مرتين فى مدينة ماردة ، تلك الثورة التى دامت ست سنوات من ٢١٣ (٨٢٨) وانتهت فى سنة ٢١٩ (٨٣٤) بمقتل سليمان بن مرتين ،

والاستيلاء على المدينة ، وبناء القصبة المشهورة فيها فى ربيع الثانى سنة ٢٢٠ (أبريل ٨٣٥) • ثم ان محمود بن عبد الجبار لقى حتفه كذلك بعد خمس سنوات ، وبعد أن كان قد لجأ الى ملك أشتوريش •

أما الذى كان ذا شأن فى عهد عبد الرحمن الاوسط فقد كانت حملاته ضد ممالك المسيحيين فى شمال الاندلس • وقد رأينا كيف أن أباه تقاعس عن مواجهة الفرنجة والاشتوريش والجلالقة ، وتركهم ينسابون فى حدود بلاده ، وينتزعون مدنا منها ، أهمها برشلونه وبنبلونة ، ولعل الحكم الربضى قد ترك لابنه مهمة هذه المواجهة • وبدأ عبد الرحمن عهده باعلان الجهاد فى أول سنة من حكمه ، اذ جهز صائفة • وتبعها بصائفتين فى السنتين التاليتين• وقد نجحت هذه الصوائف الثلاث فى غزو بلاد أشتوريش ومنطقة القلاع ، وأوقعت التلف والخراب فيها ، وعادت محملة بالغنائم(٤٦) ، ثم وجه حملة الى برشلونة ومنطقة الثغر الاعلى • وفى سنة ٢١٠ ، فى شهر ربيع الثانى (أغسطس ٨٢٥) ، جهز عبد الرحمن الاوسط صائفة عهد بقيادتها الى أبى مروان عبيد الله بن عبد الله البلنسى المشهور بصاحب الصوائف ، وقد سميت هذه الصائفة بغزوة الفتح لما أصابها من ظفر عظيم • وفى صيف السنة نفسها وجه الامير جيشا بقيادة العباس بن عبد الله القرشى نحو بلاد جليقية ، وآخر بقيادة مالك بن عبد الله القرشى ، أخى العباس • وفى شتاء نفس السنة عهد عبد الرحمن الى قائد آخر ، هو فرج بن مسرة ، بغزو بلاد أشتوريش ، واستطاع هذا القائد أن ينتزع حصنا حصينا من حصونها ، وهو القليعة • وفى صيف السنة التالية ٢١١ (٨٢٦) ، تولى صاحب الصوائف قيادة صائفة أخرى الى بلاد أشتوريش وقشتالة • ثم مرت فترة عشر سنوات من غير حرب ، من ٢١٣ الى ٢٢٣ (٨٢٨ الى ٨٣٨)• ويبدو أن ملك أشتوريش كان قد طلب التهادن فيها مع أمير قرطبة •

أعلن عبد الرحمن الاوسط الجهاد مرة ثانية بعد هذه المفترة من التهادن ، فجهز فى سنة ٢٢٣ (٨٣٨) ثلاثة جيوش ، قاد الاول منها عمه الوليد بن هشام ، وقاد الثانى أخوه سعيد الخير ، وقاد الثالث منها أخ اخر له هو أمية بن الحكم . واستطاعت هذه الجيوش الثلاثة أن تتوغل فى بلاد أشتوريش وتجتاحها ، وتلحق الخسائر الفادحة بها ، وتعود ظافرة محملة بالغنائم . وفى صيف العام التالى ، ٢٢٤ (٨٣٩) ، حالف النصر كذلك الصائفة ، واستطاع موسى بن موسى بن قسى أن يقوم بهجوم ناجح على منطقة القلاع . وفى شعبان من سنة ٢٢٥ (يونيه ٨٤٠) ، تولى الامير بنفسه قيادة الصائفة ، ولم يشر المؤرخون الى مدى نجاحها . أما فى السنة التالية فقد وجه عبد الرحمن ابنه المطرف وقائده عبد الواحد بن يزيد الاسكندرانى على رأس جيش لغزو الثغر الاعلى ومحاربة الفرنجة . وفى سنة ٢٣١ (٨٤٦) ، جهز الامير جيشا بقيادة ابنه محمد الذى نجح فى التوغل فى بلاد جليقية واستولى على مدينة ليون وهدم أجزاء من أسوارها ، تم عاد مظفرا الى قرطبة . وبعد ذلك بأربع سنوات ، فى سنة ٢٣٥ (٨٤٨) ، أوفد ابنه الاخر المنذر على رأس جيش لغزو القلاع .

وهكذا كان الامير عبد الرحمن يحرص على أن يقضى على أطماع مملكة جليقية ويوقف غزواتها ، فأظهر من المقدرة الحربية واليقظة والنشاط ما لم يجرؤ معه عاهل تلك المملكة على مهاجمة الثغر الاعلى منحدود الاندلس ، الا مرة واحدة لقى فيها « العلج لذريق » حتفه ، فى سنة ٢٢٤ (٨٣٩) . وكذلك حرص عبد الرحمن على أن يوطد حدود امارته فى الطرف الاخر الشمالى من ذلك الثغر ، وأن يقضى على أطماع الفرنجة فيه . فأوفد فى سنة ٢١٢ (٨٢٨) قائده المشهور ، صاحب الصوائف ، لحصار برشلونة ، ولكنه لم يقدر على كسر شوكتها ، فاتجه الى جرندة لمحاصرتها ، وتوغل فى مناطق عديدة من أملاك الفرنجه فى شمال أسبانيا ، وألحق بها الخراب

والدمار . وفى سنة ٢٢٦ (٨٤١) أوفد الامير جيشا كثيفا بقيادة عبد الواحد ابن يزيد الاسكندرانى استطاع أن يجتاز البرتات ويدخل بلاد الفرنجة نفسها ويتوغل حتى وصل الى حدود نربونة ، واكتسح جميع هذه المناطق ونشر فيها الذعر والدمار . وبعد ذلك بعشر سنوات أوفد عبد الرحمن حملة أخرى الى برشلونة ، ان لم تنجح فى الاستيلاء على المدينة ، فقد نجحت فى اثارة الرعب بين أهليها وفى العودة محملة بالغنائم .

وكانت بنبلونة ، كما رأينا ، قد انسلخت من حكم الاندلس ، فى سنة ١٨٢ (٧٩٨) ، فى أوائل عهد الحكم الربضى ، ودخلت فى حماية ملك أشتوريش . ولكن عبد الرحمن الاوسط أوفد جيشا فى سنة ٢٢٧ (٨٤٢) استطاع أن يسترد المدينة فى شهر رجب (مايو) ، وأن يستمر فى زحفه شمالا حتى استولى على حصن آخر وهو المعروف بصخرة قيس . وكان موسى بن موسى بن قسى الوالى على تطيلة قد أعلن العصيان على الامير وحالف ملك البشكنس ، فتوجه الامير نفسه صحبة ابنيه محمد والمطرف لمقاتلة الوالى الخائن وحلفائه ، والتقت جيوشه بجيوشهم فى شوال سنة ٢٢٨ (يوليو ٨٤٣) ، وأنزل بها هزيمة نكراء ، اضطر معها أشراف البشكنس أن يطلبوا من الامير الامان . وعاد فى السنة التالية لقتال موسى وحلفائه البشكنس . ولم يجد موسى مفرا من أن يستغفر الامير ويقدم له فروض الطاعة ، وقبلها عبد الرحمن وعفى عن واليه(٤٧) .

وقد واجه عبد الرحمن الاوسط خطرا طارئا من نوع جديد أثاره القراصنة النورمانديين الذين أغاروا على سواحل الاندلس على المحيط ، وهم الذين يسميهم رواة العرب المجوس أو الاردمانيين . وكان هؤلاء القراصنة قد أغاروا من قبل على شواطىء فرنسا وأنزلوا بها الدمار ونشروا فيها الذعر . وبدأت غاراتهم على سواحل الاندلس أول ذى الحجة

سنة ٢٢٩ (٥ أغسطس ٨٤٤) . فنزلوا بثغر أشبونة ، وقاتلهم أهلها وواليها واضطروهم الى الانسحاب . ولكنهم عادوا بعد شهر فاحتلوا ثغر قادس وتوغلوا فى نهر الوادى الكبير حتى وصلوا أشبيلية ، ونزلوها ، وأغاروا عليها فى منتصف المحرم سنة ٢٣١ (أول أكتوبر ٨٤٤) . وظلوا فيها أياما يرتكبون الفظائع من نهب وسلب وقتل وحرق وسبى للنساء والاطفال(٤٨) . ووصلت قرطبة أنباء هذه الغارة فأسرع الامير عبد الرحمن بايفاد جيش من الفرسان على رأسه جماعة من خيرة قواده(٤٩) ، وأخذ فتاه نصر يجمع الجند ، وما لبث أن قادهم الى أشبيلية للانضمام الى الخيالة . وفى ٢٥ صفر (١١ نوفمبر) هاجمت تلك الجيوش القراصنة المغتصبين ، وتغلبت عليهم دون كبير عناء ، وألحقت بهم خسائر فادحة ، وقتلت منهم عددا ضخما ، وحرقت سفنا جديدة لهم . وأسرع من استطاع منهم الفرار بمراكبهم ، ولم يحاولوا من بعد معاودة مغامرتهم(٥٠) . وأمر الامير بعد ذلك بتشييد أسوار لاشبيلية وأربطة على السواحل . كما أمر بانشاء دار للصناعة لبناء المراكب واعدادها بآلات الحرب .

ساد الهدوء والاستقرار عهد عبد الرحمن الأوسط(٥١) ، وكذلك ساد الرخاء وازدادت الخيرات وتنعمت الرعية ، حتى أن أيامه شبهت « بأيام العروس » . وكثر الخراج وارتفعت ايرادات الامارة حتى بلغت حصيلة الجباية ألف ألف دينار فى عهده، وكانت ستمائة ألف فى عهد أبيه، وكذلك استقام نظام الدولة . وأدخل الامير نظما جديدة ، منها أنه جعل للسوق ولاية خاصة الى جانب ولاية المدينة ، وأحدث دار السكه . وعهد بادارتها الى حارث بن أبى شبل ، وأنشأ دار الطراز ، وعهد بادارتها الى حارث بن بزيع ، ونظم « مراتب الخطط » أو بتعبير اخر « رتب رسوم المملكة » و « أهل الخدمة » ، وفخم الامارة وجعل لمظهرها « أبهة الجلالة » وأحاط

نفسه بحاجب وكتاب ووزراء وجعل لهم مجلسا خاصا فى قصره ، وأنشأ ديوان الخزانة ، وجعل له خاتما بعنوان جديد ، (عبد الرحمن بقضاء الله راض) ، وهو خاتم جد أبيه ، عبد الرحمن الداخل ، وزاد من شراء المماليك لتدعيم حرسه وجيشه • وأصبحت جيوشه تنتظم فيها « المرتزقة » و « الحشد » و « الجند »(٥٢) •

وكان عبد الرحمن الاوسط رجل بناء(٥٢ب) ، فقد أنشأ ، كما رأينا ، قصبة ماردة وأسوار أشبيلية وحاضرة مرسية، وأنشأ مسجدا فجيان وأقام مئذنة فى مسجد أشبيلية وزاد فيه ، وسنرى فى فصول أخرى من هذا الكتاب ، أنه جدد بناء الجسر فى قرطبة والرصيف والقصر ، وزاد فى المسجد الجامع ، وحمل زوجاته وجواريه على أن يبنين المساجد ، مثل مسجد طروب ومسجد فخر ومسجد شفاء •

وكان لعبد الرحمن الاوسط فضل عظيم فى رعاية العلوم والاداب والفنون والموسيقى ، كما سنرى كذلك فى فصل آخر من هذا الكتاب • وقد ظهر فى عهده نخبة من العلماء والادباء والقضاة مثل عبد الله بن الشمر وابراهيم بن سليمان التسامى وعثمان بن المثنى وسعيد بن فرج الرشاش وأخيه محمد وعبد الله بن بكر الندل وخاصة عباس بن فرناس ويحى الغزال ، ومثل يحى بن يحى الليثى ومحمد بن زياد اللخمى وعبد الملك بن دينار • وذكر الرواة أسماء خمسة عشر قائد من قواده منهم محمد بن رستم والعباس بن عبد الله القرشى وأخيه مالك وعبد الواحد بن يزيد الاسكندرانى ، وفى عهده اشتهر أبو مروان عبيد الله بن عبد الله البلنسى بلقب « صاحب الصوائف » •

وتوفى عبد الرحمن الاوسط يوم ٣ ربيع الثانى سنة ٢٣٨ (٢١ سبتمبر ٨٥٢) بعد حكم مظفر دام اثنتين وثلاثين سنة ، وله من العمر اثنتان وستون سنة ، تاركا لابنه وولى عهده ، محمد ، مملكة يسودها الهدوء والاستقرار ، ورعية تنعم بالرضاء والرخاء ، وعاصمة تنبض بالعمران والازدهار •

(٥)

محمـد بن عبد الرحمن وابنه المنـذر(٥٣)

(٢٣٨ الى ٢٧٢و٢٧٣ الى ٢٧٤ — ٨٥٢ الى ٨٨٦و٨٨٦ الى ٨٨٨)

بويع الامير محمد غداة وفاة أبيه ، وكان عمره حينذاك ثلاثين سنة ، وكتب له أن يبقى متوليا الامارة أربعا وثلاثين سنة • ويصفة الرواة بأنه كان « صـالحا عفيفا » وأنه كان مـن « أهـل الاناة وقلة العجـلة » ، « مكرما لاعلام الناس من أهل العلم » •

وكان هذا الامير ذا هيبة اجتازت سمعتها حـدود الاندلس ودفعت أميرى بنى رستم فى تاهرت وبنى مدرار فى سجلماسة ، بالمغرب الاقصى ، الى أن يعلنا الولاء له « والاعتراف بطاعته » • وكذلك حملت قارلة الاصلع Charles le Chawe ، ملك الفرنجة ، على أن يلتمس صداقته ومهادنته، « ويهاديه ويتحفه » • ولعل هذه المهادنة كانت السبب فى توقف الاميرمحمد عن تجهيز الصوائف نحو برشلونه وأملاك الفرنجة على حدود الثغر الاعلى، ولعل الذى حمل ملك الفرنجة على طلب هذه المهادنة هى انتصارات الامير محمد فى غزواته ضد ملك أشتوريش ، ورغبة ملك الفرنجـة فى أن يجنب نفسه وبلاده آثار الدمار التى صحبت تلك الغزوات •

واحتفظ الامير محمد بمظاهر الفخامة فى قصره وحاشيته ، وان كان لم يعد للجوارى والغلمان ذكر فى عهده • وحرص هذا الامير ، كما سنرى ، على تعمير قرطبة وتجميلها ، وخاصة مسجدها الاعظم ، وهو الذى كان أول من أنشأ فيه مقصورة • وعمر كذلك مسجد ألبيرة الجامع الذى كان أسسه حنش الصنعانى ، وأنشأ مسجدا جامعا فى مالقة • وأولى الامير عنايتـه بالجيش والاسطول ، وأعفى أهل قرطبة من ضريبة الحشود والبعـوث ،

على أن يقدموا فى كل صائفة نفرا من المطوعة ، وكذلك كانت تقدم كل كورة من كور الاندلس •

وظلت الدولة فى عهده قوية زاهرة ، بالرغم من اصابتها بمجـاعتين شديدتى الوطأة ، استمرت احداهما أربـع سـنوات ، من ٢٥١ الى ٢٥٥ (٨٦٥ الى ٨٦٨) ووقعت الاخرى فى سـنة ٢٦٠ (٨٧٣ ـــ ٨٧٤) • وكان الامير محمد يشرف بنفسه على شـئون الدولة ويراجـع الوزراء والولاة والخدم فيها ، واحتفظ بحاجب أبيه ، عيسى بن شهيد الذى كان قد خلف عبد الكريم بن مغيث • واستمر عيسى فى حجابته الى أن تولاها عبيد الله ابن أبى عبده • وظهر فى عهده وزير ذو نفوذ ، هو أبو خالد هاشم بن عبد العزيز بن هاشم ، وفوضه الامـير فى اختيار الولاة ، « وكان يشـاطرهم أرباحهم • فكان العمال يسمون المناصفين »، وكان من قضاة الامير البارزين عمرو بن عبد الله ، المعروف بالقبعة ، وهو أول من تسمى بقرطبة قاضى الجماعة ، وبقى بن مخلد وسليمان بن أسود البلوطى •

وحدث فى بداية عهده ، ما كان يحدث فى بداية عهد كل أمـير ، فتن وثورات ، وخاصة فى المناطق البعيدة عن العاصمة • وكانت أولى هذه الفتن تلك التى أثارها أهل طليطلة ، وخاصة المستعربون ، وأسرع الامير محمـد بتجهيز جيش لعقابهم ، عهد بقيادته الى أخيه الحكم فى سنة ٢٣٩ (٨٥٣) ، وهدأ أهل طليطلة الى حين ، ولكنهم عادوا بعد ذلك بسنة واحدة فالتمسوا المعونة من أردون الاول ، ملك أشتوريش ، ولم يلبث الامير محمد أن جهز جيشا اخر ، فى المحرم من سنة ٢٤٠ (يونيه ٨٥٤) ، تولى بنفسه قيادته ، واستطاع بمهارته وقدرته ودهائه أن يلحق بالجيوش الاشـتوريه وثوار طليطلة خسائر فادحة ، بلغت فيما يقال عشرين ألف قتيل ، وذلك فى معركة

شهيرة يسميها الرواة « وقعة وادى سـليط » • وبالرغم من ذلك ، فقـد استمر أهل طليطلة على عنادهم ، واستمر الامير محمد يرسل الحمـلات ضدهم • الى أن طلبوا الامان فى سنة ٢٤٩ (٨٦٥) • ثم ثاروا مرة أخرى بعد عشر سنوات ، فى سنة ٢٥٩ (٨٧٥) ، واستطاع الامير أن يقضى على فتنهم ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك فى عهده •

لم تكن ثورة أهل طليطلة ذات شأن كبير بالنسبة لعهد الامير محمد بن عبد الرحمن(٥٤) • ولكن الذى امتاز به عهده ، هو غزواته وحروبه ضـد (أردون الاول) ملك أشتوريش ، الذى ساعد أهل طليطلة وكان يحاول ، من جهة أخرى ، أن يمد سلطانه من أبيط ، عاصمته ، الى داخـل حـدود الاندلس الشمالية • وكان موسى بن موسى بن قصى ، من جهة أخرى ، قد وطد سلطانه على تطيلة ومده الى سرقسطة ووشقة ، وأصبح فيهـا شبه أمير مستقل ، ولكنه ظل مواليا لامير قرطبة ، وكان يطغى من حـين لاخر على أراضى الملك أردون • وفى سنة ٢٤٦ (٨٦٠) جهز الامير محمد حملة قادها بنفسه ، وانضم اليه فيها موسى بن مـوسى هـذا ، وهاجم بنبلونة وأنزل بها الدمار ، واستولى على ثلاثة حصون فى المنطقة • وفى نفس السنة هاجم (أردون) موسى هذا فى حصن من حصونه ، وألحق به هزيمة كبرى ، وخرب الحصن وقتل حاميته ، ثم اتجه جنوبا نحو وادى الحجارة •

ورأى الامير محمد أن يرسل الحملات لتأديب (أردون) وايقافه عند حده ، والاغارة على بلاده • وبدأ سلسله هذه الحملات الى ألبه والقلاع فى سنة ٢٤٩ (٨٦٣) • وكانت أولها بقيادة أحد أولاده ، صحبة القائد عبد الملك بن العباس ، وألحقت هذه الحملة هزيمة كبرى بجيوش (أردون) ، قتل فيها جمع كبير من أشرافه • وكانت الحملة الثانية فى السنة التاليـة ناجحة كذلك • وفى سنة ٢٥١ (٨٦٥) كان قائد الحملة ولد آخر لمحمـد ،

هو المنذر ، وكانت تلك الحملة نكبة كبرى على (أردون) ، حلت فى ١٢ رجب (٩ أغسطس) ، وفنى فى ذلك اليوم كثير من أنصاره ، وخربت مناطق شاسعة من أملاكه . ولم يترك الامير محمد الفرصة لملك أشتوريش لان يستعد من جديد لمهاجمة ثغور الاندلس ، فبادره فى السنة التالية بحملة أخرى ، ألحقها فى سنة ٢٥٣ (٨٦٧) بحملة خامسة عهد بقيادتها الى ابنه الحكم .

وكان (أردون الأول) قد مات وخلفه فى تلك السنة أذفونش الثالث ، ومضت فترة هدنة طويلة ، شغل الامير فيها بشئونه الداخلية ، وانتهزها أذفونش للتوسع جنوبى بلاده . فجهز الامير محمد حملتين فى سنتى ٢٥٩ و ٢٦٠ (٨٧٣ و ٨٧٤) أقلقا بال ملك أشتوريش . وبعد ذلك بأربع سنوات جهز جيشا قويا عهد بقيادته الى قائد فذ من قواده هو البراء بن مالك القرشى ، ولكنها لم تنجح نجاحا يذكر . وحاول الامير محمد محاولة أخرى فى سنة ٢٦٦ (٨٧٩) لغزو جليقية عن طريق البحر ، فأرسل أسطوله بقيادة عبد الحميد بن مغيث الرعيطى ، ولكن العواصف اجتاحت الاسطول ودمرت معظم مراكبه . وفى سنة ٢٦٨ (٨٨٢) أوفد الامير ابنه المنذر مع الوزير القائد هاشم بن عبد العزيز على رأس جيش كثيف لمحاربة ملك أشتوريش(٥٥) ، وتوجهت الحملة نحو لارده . وأعلن صاحبها اسماعيل ابن موسى بن قسى الطاعة ، ثم توجهت نحو ألبه والقلاع ، واجتازت بلاده قشتاله ووصلت بالقرب من ليون ، ورأى (أذفونش) أن يعقد الهدنة مع أمير الاندلس ، فعادت الحملة الى قرطبة . وفى السنة التالية ، ٢٦٩ (٨٨٣) ، عاد منذر ، ابن الامير ، مع الوزير هشام بن عبد العزيز لمهاجمة أشتوريش ، وتوغلا فى بلاد الاعداء ، وتوقفت الحملة عندما طلب (أذفونش) هدنة أخرى ، وبعث سفيرا له الى قرطبة للاتفاق على شروطها، وكانت هذه آخر حملة يوجهها الامير محمد ضد مملكة أشتوريش(٥٦) .

ولم يخل عهد الامير محمد من فتن داخلية ، وان لم يكن لها شأن كبير• فقد حاول عبد الرحمن بن مروان بن يونس ، المعـروف بابن الجليقى ، فى سنة ٢٥٤ (٨٦٨) ، أن يثير الفتنة فى ماردة ، قاعدة الثغر الادنى ، وأسرع الامير بالقضاء على هذه الفتنة ، وأجبر ابن الجليقى على الاقامة فى قرطبة، وأظهر ابن الجليقى ولاءه للامير وكان من المنتظر أن يستمر على ذلك ، لولا أن وقع بينه وبين الوزير هاشم بن عبد العزيز ما أثاره وجعله يفر فى سنة ٢٦١ (٨٧٥) ويلتجىء الى قلعة الحنش ، غربى الاندلس ، ولحق به الامير محمد وحاصره فيها ، واضطره الى طلب الامان ، ثم أعطاه له • وسمح له بالاقامة فى بطليوس • ولكن ابن الجليقى انتفض مرة أخرى ، وخرج عن الطاعة • وتحالف مع مشاغب اخر من المولدين اسمه سـعدون بن فتـح السرنباقى ، وطلب فى الوقت نفسه المعونة من ملك أشتوريش ، أذفونش ، الثالث ووقعت بين جيوش الحلفاء الاعداء وبين جيوش الامارة مناوشات انتهت بهزيمة الجيش الاندلسى ، وبأسر قائده هاشم بن عبد العزيز ، فى سنة ٢٦٢ (٨٧٨) • وبعد ذلك بسنة جهز الامير جيشا آخر عهد بقيادته الى ولى عهده المنذر • واضطر ابن الجليقى الى الفـرار والالتجـاء الى أذفونش ملك اشتوريش • وانتهى الامر بابن الجليـقى الى العـودة الى بطليوس والاستقرار فيها ، ورضى الامير أن يترك له ولايتها ، اكتفاء بشره•

وكان أولاد موسى بن موسى بن قسى قد أعلنوا العصيان فأوفد الامير محمد فى سنة ٢٧١ (٨٨٥) وزيره هاشم بن عبد العزيز على رأس جيش لاخضاعهم واستطاع هذا الجيش أن ينتزع من أملاكهم لارده وسرقسطة ويردها الى الامارة •

وواجه الامير محمد فى أواخر عهده ، فتنة أخرى أثارها المولد المشهور عمر بن حفصون فى سنة ٢٦٩ (٨٨٢)(٥٧) ، وكان قـد تزعم جماعـة من المشاغبين فى ببشتر (أو بريشتر) من كورة رية ، وأخذوا يسرفون فى النهب والتدمير وقطع الطرق ، واستطاع الامير محمد أن يقضى أول الامـر على

هذه الجماعه ، وأرضخ زعيمها ابن حفصون على الاقامه فى قرطبة ، ولم يلبث ابن حفصون أن أظهر ولاءه واقدامه فى الحروب ، ولكنه فر بعد قليل الى منطقته الجبلية فى سنة ٢٧٢ (٨٨٦) وأعاد سيرته الاولى وتحصن فى ببشتر والتفت جماعته حوله ، وأخذت ترتكب أعمال السلب والنهب وقطع الطرق •

توفى الامير محمد فى أواخر شهر صفر من السنة التالية ٢٧٣ (أغسطس ٨٨٦) وترك لابنيه وحفيده عبء القضاء على أعمال هذا الطاغية• وبويع ابنه المنذر فى الثالث من شهر ربيع الاول (٩ أغسطس) ، وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة • وكان ابن حفصون قد انتهز فرصة موت الامير محمد وانشغال ابنه المنذر بتولى شئون الامارة فى قرطبة ، فألهب أهل منطقته من المولدين ، ومد سلطانه على المناطق الواقعة بين تدمير والجزيرة • ولم ير الامير بدا من أن يضع حدا لهذا الطغيان ، فجهز جيشا فى الصيف التالى لتأديب الثائر • واستطاع هذا الجيش أن يلحق الهزيمة بأنصار ابن حفصون • ولكن هذا الثائر تمكن من الصمود أمامها فى حصنه • فجهز الامير المنذر جيشا آخر فى شوال سنة ٢٧٣ (مارس ٨٨٨) وتولى قيادته بنفسه• وأخذ الامير يقضى على أنصار ابن حفصون الواحد تلو الاخر ، وانتزع منهم المدن التى كانوا يتحصنون فيها ، وأمر بقتلهم وصلبهم ، وأخذت تلك المدن تستسلم وتقدم له فروض الطاعة ، وتوجه الامير بعد ذلك لمحاصرة ابن حفصون فى حصنه فى ببشتر ، وضيق عليه الحصار ، فطلب ابن حفصون الامان وأعطاه له الامير • ولكن ابن حفصون نكث عهده ، ولما يكن الامير المنذر قد رفع عنه الحصار فأقسم الامير ألا يترك المكان الا بعد أن يقع الثائر بين يديه ، حيا أو قتيلا • ولكن المنذر مرض ولم يلبث أن قضى نحبه فى منتصف شهر صفر من سنة ٢٧٤ (٢٩ يونيه ٨٨٨) ، وكان أخوه عبد الله معه ، فرفع الحصار وعاد الى قرطبة ليتولى الامارة •

(٦)

عبــد الله بن محمــد(٥٨)

(٢٧٤ الى ٣٠٠ ــ ٨٨٨ الى ٩١٢)

كان عبد الله بن محمد يوم بويع بالامارة يبلغ الخامسة والاربعين من عمره ، وقد امتدت امارته ستا وعشرين سنة امتلأت بالفتن والثورات التى اتصلت وتنوعت وتفرقت وتشابكت ، بحيث يصعب على المؤرخ أن يمسك بخيوطها ، أو يرويها فى اطارات محدودة ، مكانا أو زمانا أو موضــوعا • فتارة هى فتن فردية ، أثارها ذوى النفوذ من العرب أو المولدين ، وتارة هى ثورات جماعية ، اشترك فيها العرب ضد المولدين ، أو المولدين ضــد العرب ، أو البربر ضد الولاة•وتارة يتحالف بعض الثائرين، وتارة ينفصم عرى التحالف ، وتارة ينقلب التحالف الى عداء •

قامت الثورات فى مناطق جيان والبيرة وباغة وباجة وتدمير وأشبيلية ومارِدة وطليطلة وقسطلونة وتطيلة وغيرها ، وفيها مناطق قريبة كل القرب من قرطبة ، ومناطق نائية عنها ، وأخرى فى الثغور وعلى السواحل الشرقية والجنوبية • ومن هذه الثورات والفتن ما انطفأ لهيبه بعد أشهر أو سنة أو سنتين ، ومنها ما جاوز الستة والعشرين سنة التى ضمها عهد الامير عبــد الله • أما قرطبة نفسها فقد ظلت هادئة مستقرة ، لم تشب شائبة هدوءها وولاءها •

كان المنذر ، كما رأينا ، يحاصر ابن حفصون فى ببشـــتر ، وكان قــد استدعى أخاه عبد الله حين شعر بمرضه • ولما مات ، نقل عبد الله جثمان أخيه الى قرطبة ، بعد أن رفع الحصار عن ببشتر ، وهادن ابن حفصون ، ثم أوفد اليه ، بعد توليه الامارة ، قائده ابراهيم بن خمير ، لا لبعيد حصاره

ويهاجمه ، بل لتنصيبه واليا على كورة رية . ولم يلبث ابن حفصون أن اغتصب مناطق أخرى ضمها الى ولايته ، وأصبح سيدا مطلقا على جنوب الاندلس ، من الجزيرة الى مرسية . ونهض الامير عبد الله لمحاربته ، فأوفد فى سنة ٢٧٦ (٨٨٩) جيشا تظاهر أمام ببشتر ، ثم قفل راجعا الى قرطبة بعد أربعين يوما . وأدرك ابن حفصون ضعف الامـير وغفلتـه ، فاغتصب مزيدا من البلاد وضمها الى ولايته ، حتى وصل قريبا من حدود قرطبة ، فى استجه واستبه ، وأخذ سلطان ابن حفصون يمتد ويقوى ، وتشتد شوكته حتى شمل كور رية والبيرة وجيان وقلعة بلاى . والظاهـر أن أطماع ابن حفصون تطلعت الى مرتبة الامارة نفسها ، فأرسل يغرى ابراهيم بن أحمد الاغلبى ، أمير أفريقية فى القـيروان ، على مشـاركته فى انتزاع الامارة . وأخذ يرسل ، من قلعة بلاى ، جماعات من أتباعه للاغارة على نواحى قرطبة وأحوازها وبث الذعر فى أهلها . ولم ير الامـير مفـرا ، دفاعا عن امارته وحفاظا على هيبته فى عاصمته ، من أن يحرك جيوشـه القوية لمقاتـلة ابن حفصون والتقت تلك الجيوش ، فى أول صفر سنه ٢٧٨ (١٥ مايو ٨٩١) ، بأنصار ابن حفصون أمام قلعة بلاى ، وألحقت بهم هزيمة كبرى ، وفرقت جموعهم وقتلت منهم نفرا كثيرا ، واستردت من الثائر هـذه القلعة ، كما استردت استجة وأرشذونة والبيرة وجيان ، ثم عاد الامـير ظافـرا الى قرطبة . ولكن ابن حفصون استطاع أن يستجمع قواه ، بعد هذه الهزيمة وأن ينتزع من جديد أرشذونة والبيرة وجيـان ويضمها الى ولايته ، بـل استطاع كذلك أن ينتزع استجة فى سنة ٢٨٤ (٨٩٧) ، بعد ست سنوات من موقعة بلاى ، وكاد ابن حفصون أن يسترد نفوذه وسلطانه ويوسع دائرة طغيانه . غير أن هذا السلطان أخذ يتقلص منذ سنة ٢٨٦ (٨٩٩) ، وهى السنة التى أعلن فيها اعتناقه المسيحية وارتداده عن الاسلام ، واستبداله

اسم صمويل بعمر • فكان هذا الاعلان بداية سقوطه واضمحلال شأنه ونفوذه ، اذ أن كثيرا من أنصاره استنكروا فعله وانقلبوا عليه (٥٩) •

لم تعد الحرب التى أعلنت بعد ذلك ضد ابن حفصون ردع تأديبية ، بل صارت حرب جهاد • ونهض الامير مرة أخرى فى سنة ٢٨٩ (٩٠٢) ، وجهز جيشا أسند قيادته الى أحمد بن أبى عبده ، والتقى الجيش بالثائر المرتد فى أستجة وهزمه هزيمة شنعاء • ثم أخذ الامير عبد الله يوفد اليه الجيوش سنويا ، صوائف وشواتى ، تارة بقيادة ابن من أبنائه ، ابان أو العاصى ، صحبة القائد أحمد بن أبى عبده أو أحد ولديه عيسى وعباس ، فى سنوات ٢٩١ (٩٠٤) و ٢٩٢ (٩٠٥) و ٢٩٥ (٩٠٨) و ٢٩٧ (٩١٠) و ٢٩٨ (٩١١) و ٢٩٩ (٩١٢) • وان كانت جميع هذه الحملات قد عاثت فى مناطق ابن حفصون ، وأنهكت قواه ، الا أنها لم تقو على القضاء عليه ، ولم تفلح فى اخماد ثورته •

كادت ثورة ابن حفصون أن تمتد اثارها الى أبواب قرطبة ، وأن تهدد عاصمة الامارة نفسها وتزعزع عرشها ، ولهذا أظهر الامير عبد الله نشاطا ملحوظا فى محاولة القضاء عليها ، أما الامر بالنسبة للثورات الاخرى فقلما كان عبد الله يواجهها بجيوشه ، بل كان يكتفى شرها ، فيما أعتقد ، بقبول الامر الواقع ، وباقرار زعمائها على الولايات التى اغتصبوها • هكذا فعل فى ألبيره مع سوار بن حمدون القيسى(٦٠) ، وهكذا فعل فى منتيشه ، من كورة جيان ، مع اسحق بن ابراهيم المعروف بابن عطاف العقيلى ، وهكذا فعل مع عثمان بن عمرون فى لبله ، وفى حصن الحامة ، مع محمد بن أضحى ابن عبد اللطيف الهمذانى ، وفى شذونة مع منذر بن ابراهيم ، وكانوا كلهم من زعماء العرب الذين استضعفوا الامير ، واغتصبوا الولايات أو الحصون التى كانوا يقيمون بها ، وأقرهم عبد الله على ولاياتهم ، أو تركهم وشأنهم

فيها • وكذلك تصرف الامير عبد الله مع الثائرين من زعماء المولدين ، مثل خير بن شاكر في جيان ، وسعيد بن هذيل في المنتلون ، وعبيد الله بن أمية ابن الشالية في شمنتان ، ومثل ابن الشالية الذى كان نفوذه قد اشتد وامتد سلطانه الى قسطلونه ، ومثل سعيد بن وليد بن مستنه في باغه ، ومثل عبد الملك بن أبي جواد في باجه ، ومثل بكر بن يحى بن بكر في شنتمريه ، ومثل ويسم بن اسحاق في تدمير ولورقه ومرسية ، ومثل عبد الرحمن بن مروان الجليقى ، الذى اغتصب بطليوس وحصنها وجملها ، وتوسع حتى امتدت أملاكه الى ماردة ، ولما مات خلفه ابنه في حكم الولاية ، ثم خلفه حفيد لابن مروان الجليقى ، وكل ذلك باقرار وتسجيل من الامير عبد الله •

اقتصر اهتمام الامير عبد الله على تأمين امارته على قرطبة ، وتوطيد حكمه فيها • أما الذى كان يعنيه بالدرجة الاولى من ولايات الاندلس فكانت الجباية ، وكثير ما كان الزعماء المغتصبون يرضون بأدائها نظير سكوت الامير عنهم • ومن أبرز الامثلة على ذلك ما حدث في أشبيلية ، وكان قد علا فيها شأن أسرتين عريقتين من العرب ، هما بنو خلدون وبنو حجاج ، وقوى أنصارهما ، وكانت قد قامت بينهما من جهة ، منذ سنة ٢٧٦ (٨٨٩) ، وبين المولدين من جهة أخرى فتن وثورات • انتهت برجحان كفة ابراهيم ابن حجاج ، وأقره الامير على ولاية أشبيلية وقرمونة ، ورضى ابن حجاج أن يورد الى قرطبة الاموال و « الجبايا » ، وكان يرسل « الهدايا » الى الامير عبد الله • وظلت المودة قائمة بينهما ، ولما مات في سنة ٢٩٨ (٩١٠) ، خلفه على ولاية أشبيلية ولده عبد الرحمن ، وعلى ولاية قرمونة ولده محمد ، وأقرهما الامير كذلك على ولايتيهما(٦١) •

ومثل ذلك ما حدث في طليطلة وقسطلونة • كان يتنازع السلطة فيهما

بنو ذى النون وبنو قسى ، ولم يتحرك الامير عبد الله لاخضاع الثائرين فى هذه الولاية ، وظل ساكنا طول مدة امارته .

ودانت تطيلة وطرسونة تحت سيطرة محمد بن لب من أسرة بنى قسى ، وأقره الامير على ولايته ، وكان أبو يحى محمد بن عبد الرحمن التجيبى ، المعروف بالانقر ، صاحب قلعة أيوب ، انتزع سرقسطة من أيدى واليها أحمد بن البرا بن ملك القرشى ، وأقره الامير على ولاية سرقسطة . وفى وشقة ، أقر الامير على ولايتها زعيمها محمد بن عبد الملك بن شبريط ، المعروف بالطويل ، واستطاع الطويل هذا أن يمد سلطانه خارج حدود ولايته ، غير عابىء بأمير قرطبة .

ومما يثير العجب حقا أن الامير عبد الله لم يتحرك ، الا فيما ندر ، لقمع هذه الثورات والفتن ، ولم يوفد الجيوش لإخمادها غير مرات قلائل ، بالرغم من قدرته على ذلك ، وبالرغم من أنه كان محاطا بنخبة من القواد ، مثل أحمد وعباس ، ولدى القائد المشهور هاشم بن عبد العزيز ، ومثل عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، وعبد الرحمن بن أمية بن شهيد ، وعبيد الله بن محمد بن أبى عبده ، وأخيه أحمد ، ومثل سعيد بن محمد بن سليم وموسى ابن العاصى وابراهيم بن خمير .

ومما يثير العجب كذلك أن الامير عبد الله لم يتحرك ولم يوفد جيوشه وقواده للجهاد وصد غارات الاعداء ، فلم يجهز صائفه واحده الى الثغور ، وكان يتصدى لحرب هؤلاء المغيرين ولاة تطيلة ووشقة ولاردة ، الطويل ومحمد بن لب ، الذى استشهد فى احدى الوقائع ، وابنه لب بن محمد .

ومما يثير الدهشة أيضا أن المؤرخين وصفوا الامير عبد الله بأنه كان « من أصلح خلفاء بنى أمية فى الاندلس ، وأمثلهم طريقه ، وأتمهم معرفه،

وأمتنهم ديانة » ، وأنه كان « مقتصدا فى أموره من مطعم وملبس ، شديد التواضع ، متظاهرا بالبر والخشوع » ، « محبا للخير وأهله ، له صدقات كثيرة ، ونوافل جزيلة » ، « حافظا للقرآن ، كثير التلاوة له » ، « شديد الوطأة على ذوى الظلم والجور » • وأشاد المؤرخـــون بتفننه فى ضروب العلم ، وبصره « بلغات العرب » ، وفصاحة لسانه وحسن بيانه • وروى المؤرخون قدصا طويلة فى ذلك ، وأعجبهم منه أنه فتح بابا فى قصره سمى « باب العدل » لانه كان يقصده « فى أيام معلومة فترفع اليه فيه الظلامات، وتصل اليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرئبا لذلك » •

والحقيقة ، فى رأيى . أن كل هذه المظاهر التى رسم منها صورة براقة لشخص الامير عبد الله ، كانت ستارا يخفى من ورائها شخصية جبارة ، أظلت قرطبة بعهد من الارهاب ، فسكن زعماؤها ووجهاؤها ، وكيف لا تسكن أمام الجيوش المحتشودة أمامها ، وأمام حاكم سفاك للدماء ، استحل ، فيما يبدو لى ، قتل أخيه المنذر ثم قتل أخوين له ، هما هشام والقاسم ، وأوعز الى ابنه المطرف بقتل أخيه محمد ، ثم قتل ابنه المطرف هذا ، وكانت قائمة ضحاياه من غير أفراد أسرته طويلة •

لم ينس الرواة والمؤرخون الى تخاذل الامير عبد الله واستضعافه فيما اتصل بولايات الاندلس ، ولم يشيروا الى جبروته وارهابه فيما اتصـــل بعاصمة امارته ، ولكنهم لم يخفوا أن « أيامه كانت سوداء ، من أولها الى آخرها » ، « فرق الدولة فيها الشقاق ، وحل عراها النفاق » ، وأنه كانت فيها « الفتنة مستولية والدجنة متكاثفة ••• وعصا الجماعة متصدعة ••• وصار الناس من دلك فى ظلماء ليل داج ، لا اشراق لصباحـــه ولا أفـــول لنجومه » •

ولا شك فى أن أهل قرطبه فدفرحوا بموته فى أول ربيع الاول سنة ٣٠٠ (١٦ أكتوبر ٩١٢) ، وكان فى الحاديه والسبعين من عمره •

حـــواشى الفصل الثانى

(١٦) اهم مصدر لتاريخ عبد الرحمن الداخل هو كتاب « اخبار مجموعة » لمؤلف مجهول ، صفحات ٤٦ الى ١٢٠ ، تليه أهمية المصادر التالية : صفحات ٢١ الى ٤١ من كتاب « تاريخ افتتاح الاندلس » لابن القوطية ، وصفحات ٤٠ الى ٦٠ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وصفحات ١٥٤ الى ١٧١ من « تاريخ الاندلس » للنويرى ، الذى نشره (جسبار ريميرو) من مخطوطة « نهاية الارب فى فنون الادب » تأليف النويرى (.أحمـد بن عبـد الوهاب) ، المتوفى سنة ٧٣٢ (١٣٣٢) ، وصفحات ٣٠٦ الى ٣١٢ من الجزء الاول و ٢٦ الى ٥٥ من الجـــزء الرابـــع من « نفـــح الطيب » للمقـــرى راجـــع الجـــزء الاول من « تاريـــخ اسبانيا الاســـلامية » لـــمؤلفه ليـفى بروفنسـال .

(١٧) يقال أن أم عبد الرحمن كانت بربرية وكانت تسمى راحا أو رداحا وكانت تنتمى الى هذه القبيلة ، ولهذا التجأ اليها ملتمسا حماية أخواله .

(١٩) بلغت ثورات العرب فى عهد عبد الرحمن أكثر من اثنتى عشرة ثورة وبدأت منذ اليوم الذى دخل فيه قرطبة ، فقد حاول زعيم اليمنية حينذاك ، أبو الصباح بن يحى اليحصبى ، أن يتخلص منه ، ولكن عبد الرحمن احتاط لنفسه من اليمنية واحبط محاولتهم . وبعد ذلك بخمس سنوات ، فى سنة ١٤٣ (٧٦٠) حاول هشام بن عروة الفهرى أن يغتصب الولاية واعلن نفسه أميرا فى طليطلة ، واستطاع عبد الرحمن أن يتغلب عليه فى سنة ١٤٥ (٧٦٢) ، وأمر به وبأنصاره أن يقتلوا ويصلبوا فى قرطبة . وفى السنة التالية ، سنة ١٤٦(٧٦٣) ، قامت ثورة اشبيلية ، وقضى عبد الرحمن على ثورته وقتله . وفى سنة ١٥٧ (٧٧٤) قامت (٧٦٦) ثار سـعيد المطرى أحد زعماء اليمنية ، واســتطاع أن يستولى على العلاء بن مغيث التى اشرنا اليها اعلاه . وبعد ذلك بثلاث سنوات ، فى سنة ١٤٩ صفحة ١٢٦ من الجزء الاول من « تاريخ اســبانيا الاســلامية » تأليــف ليفى

(١٨) تنظر الحاشية رقم (١٥) فيما سبق ، صفحة ١٦ .

فى اشبيلية كذلك ثورة تزعمها عبد الغفار اليحصبى وحيوة بن ملامس الحضرمى ولكنهما هزما هزيمة نكراء فى وادى قيس . وكانت قد هبت ثورة أخرى فى سنة ١٥١ (٧٦٩) قادها شقنا بن عبد الواحد المكنسى (قرأ البعض هذا الاسم شقيا وقراه البعض الاخر سفين . وصحته ما اثبتناه) ، وادعى شقنا هذا انه فاطمى واجتذب اليه انصارا عديدين واستمرت ثورته تسع سنوات الى أن قتل فى سنة ١٦٠ (٧٧٦) بعد معارك عديدة كان الامير عبد الرحمن يقود بعضها بنفسه . ثم كانت ثورة ابن الاعرابى وحملة (قارلة) فى سنة ١٦١ (٧٧٨) وهى التى نشير اليها أعلاه . وفى السنة التالية ثار بندمير عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلى واضطره الامير الى الفرار ، وقتله الرجل الذى التجأ اليه . وفى سنة ١٦٣ (٧٧٩) تآمر على عبد الرحمن بعض أقاربه وأنصاره بتحريض عبد السلام ابن يزيد وعبيد الله بن ابان ، واستطاع الامـــير ان يظفـــر بهما ويقتلهما . وفى السنة التالية تمكن عبد الرحمن من أن ينغلب فى سرقسطة على حسين بن يحى الانصارى ، حليف ابن الاعرابى ، وقد اشرنا كذلك أعلاه الى احداث تلك الثورة التى قضى عليها عبد الرحمن فى سنة ١٦٦ (٧٨٢) . وفى سنة ١٦٧ (٧٨٣) تآمر على الامير ابن أخته ، المغيرة ابن الوليد ، بالاتفاق مع هذيل بن الصميل ، وكشف عبد الرحمن المؤامرة وقتل مدبريها . وأخيرا كانت ثورة أبى الاسود محمـــد بن يوسف الفهرى فى طليطلة وهى التى نشير الى حوادثها اعلاه .

(٢٠) صار (قارلة) هذا بعد عشرين سنة من هذه الاحداث امبراطـــورا للدولة الكارولنجية وتسمى باسم قارلة العظيم (شارلمان) .

(٢١) حدث أثناء عودة جيوش (قارلة) ان هاجمت قبائل من البشـــكنس ومـــن العـــــرب مـــؤخـــرة الجيش فى رنشـــــفاله ، وقتـــل فى هــــــذا الهجوم ثلاثة من مشاهير قواد (قارله) ، احدهم المسمى (رولان) ، وهو الذى أوحى بالملحمة الشعرية الفرنسية المشهوره المعروفة بـــ « انشودة رولان » .

(٢٢) استطاع الامير عبد الرحمن فى ســـنة ١٦٤ أن يفـــاوض (قارله) لاسترداد قائده ثعلبة ، ورضى (قارله) أن يفك أسره ويرده الى الامير . تنظر

بروفنسال . هذا وجاء فى صفحة ٣١٠ من الجزء الاول « نفح الطيب » للمقرى أن الامير عبد الرحمن خاطب (قارله) ودعاه الى « المصاهرة والسلم . فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة » ، وقد فهم ليفى بروفنسال ، فى صفحة ١٢٠—١٢١ من المرجع المشار اليه ، هذا النص العربى خطأ ، وظن أن (قارله) هـو الذى خاطب عبد الرحمن بعد ان أيقن أن الامير « صلب المكسر تام الرجولية » ، وأنه هو ، أى (قارله) ، الذى دعاه الى « المصاهرة والسلم » .

(٢٣) قيل ان تلك السنة ثار اهل جرنده وأسلموا مدينتهم الى الافرنجية .

(٢٤) روى المؤرخون قصصا مشهورة عن اعجاب الخليفة المنصور بعبد الرحمن بن معاوية وشهادته له بمضاء العزيمة وقوة الحيلة وشدة البأس وتنظر صفحتا ٥٩ و ٦٠ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى وصفحة ٣١٠ من الجزء الاول من » نفح الطيب « للمقرى .

(٢٥) يجد القارىء قصة نخلة الرصافة وحنين عبد الرحمن الى مـوطنه بلاد الشام ، فى مراجع عديدة منها : « البيان المغرب » لابن عذارى ، صفحة ٦٠ من الجزء الثانى . وينظر (بيريز) : « النخلة فى اسبانيا الاسلامية » :

(٢٦) وصف المؤرخ ابن حيان عبد الرحمن بقوله : « كان راجح العقل ، راسخ الحلم ، واسع العلم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ... ، شجاعا مقـداما شديد الحذر قليل الطمانينة ، لا يخلو الى راحة ، ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل الامور الى غيره ، ثم لا ينفرد فى ابرامها برأيه ، كثير الكرم ، عظيم السياسة ، يلبس البياض ، ويعتم به ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، ويصلى بالناس فى الجمـع ... » .

(٢٧) صفحة ٦١ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٢٨) حاول سليمان ان يثور مرة ثانية بعد ذلك وأن يؤلب على اخيه اهل تدمير . ولكنه فشل فى محاولته ورضى بما عرضه عليه اخوه الامير من أن يعطيه ستين الف دينار شريطة أن يخرج الى المغرب الاقصى والا يعـود منها . وكان

أخوه الاصغر عبد الله ، المعروف بالبلانسى ، قد انضم الى سليمان أول الامر ولكنه عاد فندم على عمله وتاب ، ثم استقر رأيه على اللحاق بأخيه سليمان فى بلاد المغرب ، وبقى فيها الى أن مات هشام .

(٢٩) أثار الثورة الاولى سعيد بن الحسين بن يحيى الانصارى ، الذى كان أبوه عاملا على سرقسطة ، وثار على الامير عبد الرحمن الداخلى . وأثار الثورة الثانية مطروح ، الذى كان أبوه سليمان بن يقظان ، المعروف بابن الاعرابى ، قد ثار كذلك على عبد الرحمن الداخل ، وأثار الثورة الثالثة فريق من البربر كان يسكن الجبال فى منطقة تاكرنا القريبة من رندة .

(٣٠) يشيد المؤرخون بزهد هشام وتقواه واحسانه وعدله . تنظر صفحة ١٢١ من « أخبار مجموعة » لمؤلف مجهول ، وصفحة ٣١٤ وما يليها من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى ، وصفحة ٦٦ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٣١) ينظر فيما بعد الفصل   من هذا الجزء ، والفصل   من الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٣٢) تنظر صفحة ٣١٧ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٣٣) يقول ابن حزم صار ليحيى بن يحيى الليثى نفوذ ومكانة عند عبد الرحمن الاوسط ، اقبل الشيوخ على مذهب مالك ، « والناس سراع الى الدنيا والرياسة ، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به » ، تنظر صفحة ٣٦١ من « جذوة المقتبس » للحميدى ، وصفحة ٢١٨ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٣٤) الواقع أن الحكم كان الابن الثانى لهشام ، أما الابن الاكبر فكان يدعى عبد الملك .

(٣٥) روى ابن حيان تاريخ حياة الحكم مفصلا فى مخطوطة من « كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس » كانت عند الاستاذ ليفى بروفنسال الذى

استخـــدمها فى كتابه القسـم الخـــاص بالحــكم فى الجزء الاول من كتابه « تاريخ اسـبانيـا الاســـلامية » وتنظر كــذلك صـــفحات ١٢٥ الى ١٣٥ من « اخبار مجموعة » لمؤلف مجهول ، وصفحات ٦٨ الى ٨٠ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وصفحات ١٧٩ الى ١٩٤ من الجزء المنشور من « نهاية الارب » للنويرى عن تاريخ الاندلس ، وصفحات ٣١٧ الى ٣٢٢ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٣٦) يطلق على اسم المولدين اصلا على ذرارى المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام ، ثم اصبح يطلق عامة على كل من يدخل فى الاسلام منهم ، وكان يطلق عليهم كذلك اسم المسالمة . اما المستعربون أو المعاهـــدون فهم القـــوط الذين اندمجوا فى الحياة العربية محتفظين بديانتهم المسيحية . وعبيد الله بن خميس يعرف فى بعض كتب الرواة بابن حميد وفى البعــض الاخــر بابن خميس . اما غريب بن عبد الله فكان شاعرا واديبا قرطبيا من مداليد طليطلة .

(٣٧) وذلك أن عمروس دعا وجوه المدينة الى حفل أقامه لهم فى جصن ، وأوصى السيافين أن يتلقوهم فرادى ويضربوا عنق الواحد منهم ثم يلقـــونه فى حفرة . وكان عـــدد القتلى كثيرا ، قيل انه بلغ خمســـة آلاف وفى قول آخــر سبعمائة .

(٣٨) كان بعض فقهاء قرطبه ووجهائها اتفقوا فى جمادى الثانية سنة ١٨٩ (مايو ٨٠٥) على الثورة ضد الحكم ومبايعة ابن عمه ، محمد بن القاسم . ولكن هذا ابلغ الامير اسماء المتآمرين ، فأمر الحكم بقتلهم جميعا ، وكان عددهم اثنين وسبعين رجلا . وامر بصلبهم صفا واحدا على رصيف الوادى الكبير . وبعد ذلك بسنوات اتفق فريق آخر من الفقهاء والوجهاء على الثورة ومبايعة أحـــد اعمام الحكم ، وهو ابن الشماس بن المنذر بن عبد الرحمن الداخل ، وأفســـد الحكم كذلك مؤامرتهم وقضى عليهم « قضاء مبرما » .

(٣٩) أما الذين استوطنوا فاس فقد انشأوا فيها العـــدوة التى ما زالت تعرف بمدينة الاندلسيين ، واما الذين فروا الى الاسكندرية فـــكانت لهم قصـــة

طويلة انتهت بخروجهم منها وتأسيسهم ، بزعامة أبى حفص عمـر بن شعيب البلوطى دولة فى اقريطش ، دامت ١٣٨ سنة .

(٤٠) كان الحكم قد أعد صائفة فى مستهل عهده ، سـنة ١٨٠ (٧٩٦) ، بقيادة حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، اغارت على منطقة القلاع ومملكة اشتوريش ، وعادت هذه الصائفة محمـلة بالغنائم ، وفى سـنة ١٨٥ (٨٠١) جهز صائفة أخرى الى القلاع بقيادة عبد الكريم هذا واخيه عبد الملك بن مغيث ، والظاهر ان هذه الصائفة لم تنجح نجاحا استحق تسجيل الرواة . وفى سنة ١٩٢ (٨٠٨) جهز الحكم صائفة كذلك بقيادة ابنه هشام ، وقد كتب لهـا النصر . وفى سنة ٢٠٠ فى شهر ذى القعدة (يونيه ٨١٦) ، أوفد الحكم صائفة بقيادة حاجبه عبد الكريم وهى التى نشير اليها اعـلاه ، وكانت هـذه آخـر الصوائف الموجهة نحو هذه المناطق فى عهد الحكم .

(٤١) لم يفصل الرواة العرب تاريخ الاحـداث التى ادت الى انسـلاخ بنبلونة وسقوط برشلونة ، ويجد القارىء عرضـا مركزا لهـا ، مستندا الى المصادر اللاتينية ، فى كتاب « تاريخ اسبانيا الاسلامية » تاليف ليفى بروفنسـال ، الجزء الاول ، صفحات ١٧٣ الى ١٨٥ .

(٤٢) احاط الحكم نفسه وقصره بالحـراس من المماليك ، وكان يسميهم « الخرس » لجهلهم العربية ، وقيل انهم كانوا يبلغون خمسة آلاف عدا ، منهم ألف فارس ، وذلك بالاضافة الى الاجناد والمرتزقة .

(٤٢ب) قيل ان الحكم الربضى مرض مرضا لازمه سبعة اعـوام « مات فى آخرها على ندم وتوبة مما جرى على يديه » ، صفحة ٧٧ من « تاريـخ افتتاح الاندلس » لابن القوطية .

(٤٣) روى ابن حيان ، نقلا عن الرازى وابنه عيسى ، تاريخ حياة عبـد الرحمن الاوسط مفصلا فى كتابه « المقتبس » ، فى المخطوطة التى كان يمتلكهـا الاستاذ ليفى بروفنسال والذى كان يعد نشرها بالاشتراك مع المرحوم الاستاذ

عبد الحميد العبادى . وقد فقدت هذه المخطوطة ، ولكن ليفى بروفنسال استفاد منها فى كتابة تاريخ عبد الرحمن الاوسط فى صفحات ١٩٣ الى ٢٧٨ من الجــزء الاول من كتابه « تاريخ أسبانيا الاســلامية » ، وتراجــع بالاضــافة الى ذلك صفحات ١٣٥ الى ١٤١ من « اخبار مجموعة » لمؤلف مجهول ، و ٥٢ الى ٧٠ من « تاريخ افتتاح الاندلس » لابن القوطية ، و ٨٠ الى ٩٣ من الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى ، و ١٩٤ الى ٢٠٥ من تاريخ الاندلس فى « نهاية الارب » للنويرى ، و ٣٢٢ الى ٣٢٨ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى.

(٤٤) المعاهدون هم من يعرفون بالمستعربين أو هم القوط الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية وعاشوا بين ظهر المسلمين ، أو فى تعبير آخر ، هم أهل الذمة من المسيحيين ، انما يقتصر اطلاق أهل الذمة فى الاندلس على اليهود ، تنظــر الحاشية (٣٦) فيما سبق .

(٤٥) حاول عبد الله البلنسى ، عم أبى عبد الرحمن الاوســط ، أن يمــد أطراف ولايته فى بلنسية الى تدمير ، ولكن محاولته فشلت لاصابته بالفالج ، ثم بموته بعد سنتين من محاولته فى ٢٠٨ (٨٢٣) . وكذلك قام تنازع فى تدمير بين فريق من اليمنيين وآخر من المضريين ، سنة مبايعة عبد الرحمن . وكان النزاع بين الفريقين يهدأ حينا ثم يندلع من جديد ، واستمر الحال كذلك سبع سنوات . ولم ير عبد الرحمن بدا من أن يوجه الى المشاغبين جيشا قضى على نزاعهم ، وأنزل العقاب بهم بأن هدم حاضرة الكور ، وأنشأ حاضرة جديدة لتدمير ، هى مرسية . وكذلك اثار شخص يدعى هاشم الضراب شــغبا فى منطقة طليطلة ، واستطاع أن يجمع حوله فريقا من العابثين الذين تجمعوا على السلب والنهب وقطع الطرق ، واستمر شغبهم سنتين ، من ٢١٤ (٨٢٩) الى ٢١٦ (٨٣١) ، اذ استطاع محمد بن رستم ، عامل الثغر الاوسط أن يقضى على هاشم هذا ويفرق جماعته . وثار أهل طليطلة مرة اخرى واوفد الامير اليهم اخاه الوليد على رأس جيش قمع ثورتهم فى سنة ٢٢٢ (٨٣٧) وأعاد تحصين المدينة ، ولم تقم لاهلها قائمة بعد ذلك فى عهد عبد الرحمن الاوسط .

(٤٦) كان القائد عبد الكريم بن مغيث يقود أولى هذه الصوائف وابلى فيها بلاء ظافرا ، وكانت هذه آخر حملة يقودها . اذ توفى بعد ذلك بسنتين فى سنة ٢١٠ (٨٢٥) وكان قد جاوز السبعين .

(٤٧) عاد موسى الى العصيان بعد ذلك بثلاث سنوات ، ثم أعلن الولاء ، واستقر فى ولاية تطيلة ، وما لبث أن أصبح صاحب الامر والنهى فيها ، ليس لامير قرطبة سلطان عليه . ولكنه ظل على ولائه للامير عبد الرحمن ، وأعلن الولاء لابنه الامير محمد ، وشارك فى غزو بلاد الفرنجة وأشتوريش .

(٤٨) كان جماعة من الشيوخ المسنين الذين لم يستطيعوا الفرار من وجه المجوس التجأوا الى مسجد واحتموا فيه ، ودخل عليهم المجوس فقتلوهم ، وسمى المسجد مسجد الشهداء .

(٤٩) وهم عبد الله بن كليب وعبد الواحد الاسكندرانى ومحمد بن رستم .

(٥٠) اظهر محمد بن رستم والفتى نصر نشاطا ملموسا فى هذه المعركة كان له الفضل فى تحقيق النصر الكامل .

(٥١) استند بعض المؤرخين الغربيين الى رواية لاتينية من القرن العاشر لتسجيل أحداث شغب وقعت فى نهاية عهد عبد الرحمن الاوسط فى سنة ٢٣٦ (٨٥٠) ، اثارها فى قرطبة بعض القسس المتعصبين ضد الاسلام ، واستمرت فى عهد الامير محمد الى أن قضى عليها فى سنة ٢٤٥ (٨٥٩) . وأعطى هؤلاء المؤرخين لهذه الاحداث اهمية تفوق أبعادها الحقيقية ، وسموها ثورة المستشهدين . وفى راينا أن هذه الاحداث كانت فردية لا تمثل حركة تعصب عام، ولم يكن لها على كل حال اثر على مجرى الحياة العامة فى العاصمة ، أو على سياسة الحكم فى الدولة ، بدليل أنه لم يشر اليها أحد من مؤرخى العرب . وسنشير الى هذه الاحداث فى الفصل السابع من هذا الكتاب .

(٥٢) وفى ذلك يروى عذارى فى صفحة ٩١ من الجزء الثانى أن عبد الرحمن الاوسط « هو اول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة . وكسى الخلافة أبهة الجلالة ، فشيد القصور وجلب اليها المياه ...

واحدث الطرز واستنبط عملها واتخذ السكة بقرطبة ، وفخم ملكه »، « وفى أيامه دخل الاندلس نفيس الوطاء وغرائب الاشياء . وسيق ذلك من بغداد وغيرها»، ومن ذلك العقد المعروف بعقد الشفاء ، وكان لزبيدة أم جعفر المنصور .

(٥٢ب) ادعى بعض الرواة القدامى أن عبد الرحمن الاوسط كان يسلم زمامه لاربعة تسلطوا عليه واملوا عليه ارادتهم وسيروا سياسته ، وهم الفقيه يحى والمغنى زرياب والجارية طروب والفتى نصر . وفى هذا الادعاء كثير من المغالاة تشهد عليها سيرة الامير واعماله . وكل ما كان هنالك ، فى رأينا ، أن الامير كان قد اصطفى هؤلاء الاربعة وأولاهم ثقته وعطفه . وكذلك قيل ان عبد الرحمن كان مولعا بالنساء . وأنه كان له منهن ست وأربعون ولدا من الذكور واثنتان وأربعون من الاناث ، وفى « نفح الطيب » ص ٣٢٥ من الجزء الاول ، ١٥٠ من الذكور و ٥٠ من الاناث . ولم يكن لهذه الوفرة فى الحظايا والذرية أثر كذلك على توجيه سياسة الامير .

(٥٣) يراجع تاريخ هذه الفترة فى صفحات ٩٣ الى ١٢٠ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وصفحات ١٤١ الى ١٥٠ من « أخبار مجموعة » لمؤلف مجهول ، وصفحات ٩٢ الى ١٢٠ من « تاريخ افتتاح الاندلس » لابن القوطية ، والبحث الواضح المفصل فى صفحات ٢٧٩ الى ٣٢٩ من الجزء الاول من « تاريخ أسبانيا الاسلاميه » تأليف ليفى بروفنسال ، وعنان ، « دولة الاسلام فى الاندلس » ، صفحات ٢٨٤ الى ٣١٢ .

(٥٤) كان المجوس ، وهم القراصنة النورمانديون ، اغاروا مرة أخرى فى سنة ٢٤٥ (٨٦١) على سواحل الاندلس ، ولكن الامير محمد استطاع أن يصدهم ويحملهم على الفرار . ولم يحاولوا الاغارة على الاندلس من جديد ، الا بعد أكثر من قرن ، فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله .

(٥٥) كان موسى بن موسى بن قسى قد مات فى سنة ٢٤٨ (٨٦٢) ، وتقاسم أولاده ولايته وكانت تضم لاردة وسرقسطة ووشقة . واعلن هؤلاء الاولاد

العصيان وتحالفوا مع أذفونش الثالث ملك أشنوريش ، فكانت هـذه الحملة موجهة ضد هؤلاء العصاة وحليفهم معا .

(٥٦) استمر الحال كذلك عشرات السنين ، مما جعل اذفونش الثالث ، الذى دام ملكه حتى سنة ٢٩٨ (٩١٠) ينتهز الفرصة لتحصين مملكته تحصينا قويا ، وللتوسع فى الشمال الغربى من الاندلس ، ويصل الى حدود الثغر الادنى ، كما أنه فتح هذه المناطق المحصنة للمستعمرين الذين هاجروا من شمال الاندلس ، وعمروا هذه المناطق .

(٥٦ب) ظل هاشم أسيرا مدة سنتين الى أن استرده الامير محمد بفدية غاليـة .

(٥٧) كان اسمه حفص واضيفت اليه الواو والنون تفخيما . وكانت هذه عادة متبعة منذ ذلك العهد فى الاندلس ، وهكذا نلقى فى تاريخها أسماء مثل حمدون وبدرون وزيدون وخلدون .

(٥٨) روى ابن حيان تاريخ حياة عبد الله بن محمد مفصلا فى قسم من « المقتبس » نشره الاب أنطونيا ، فى باريس سنة ١٩٣٧ ، يراجع « افتتاح الاندلس » لابن القوطية ، صفحات ١٢١ الى ١٣٠ ، و « البيان المغرب » لابن عذارى ، صفحات ١٢٤ الى ١٦١ من الجزء الثانى ، وصفحات ٣١٨ الى ٣٤٧ من « دولة الاسلام فى الاندلس » تأليف عنان (محمد عبد الله) ، وصفحات ٢٥٢ الى ٢٧٥ من « تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس» تأليف سالم (السيد عبد العزيز (، وخاصة صفحات ٣٢٩ الى ٣٩٦ من الجزء الاول من « تاريخ أسبانيا الاسلامية » تأليف لبفى بروفنسال .

(٥٩) وذلك بالرغم من استنجاده بأذفونش الثالث ، وببنى قسى فى لارده، واغرائهم باقتسام مملكة الاندلس والقضاء على حكم بنى أمية فيها .

(٦٠) وقعت الفتن فى البيرة منذ سنة ٢٧٥ (٨٨٩) ، أثارها يحى بن صقالبة القيسى ، ولما قتل ، تولى الزعامة سوار بن حمدون القيسى ، وكان شديد

التعصب ضد المولدين والمعاهدين ، ووقعت بينه وبينهم حروب ومعارك ، قتل فيها منهم جموعا كبيرة ، واشتد نفوذ سوار فى المنطقة ، واقــره الامــير على ولايتها ، ولما قتل ، أقر الامير سعيد بن سليمان بن جودى السعدى على ولاية البيرة ، ثم دبر مكيدة لقتله .

(٦٢) أبدى ابراهيم بن حجاج همة وبراعة فى ادارة ولايته ، وأنشأ له فيها حرسا خاصا ، واحاط نفسه بأبهة الملك ، وحصن مدينة قرمونة ، وازدهــرت أشبيلية فى عهده ، ووفد اليها الادباء والشعراء من قرطبة .

الفصـــل الثالث

الاندلس فى ذروة المجـــد

(٣٠٠ الى ٣٩٩ ـــ ٩١٢ الى ١٠٠٨)

١ ـــ الامير عبد الرحمن بن محمد (٣٠٠ ـــ ٩١٢)
٢ ـــ الخليفة عبـــد الرحمن الناصر لدين الله ، أمـــير المـــؤمنين (٣١٦ ـــ ٩٢٩)
٣ ـــ الحـــكم المستنصر بالله (٣٥٠ ـــ ٩٦١)
٤ ـــ المنصـــور بن أبى عامـــــر (٣٦٦ ـــ ٩٧٦)
٥ ـــ الملك المظفـــــــر (٣٩٢ ـــ ١٠٠٢)

الفصـــل الثالث

الاندلس فى ذروة المجـــــد

(١)

الامير عبد الرحمن بن محمد(٦٢)

(٣٠٠ الى ٣١٦ ـ ٩١٢ الى ٩٢٩)

لعل الفضل الوحيد الذى يذكر للامير عبد الله ، هــو أنه ألهم اختيار حفيده عبد الرحمن بن محمد لولاية العهد ، وأعده اعدادا قــويما ســاميا لتحمل أعباء الحكم ، وكان يحظيه فوق أولاده ، ويســكنه قصره دونهم • وحدث مالا يتوقعه المؤرخ ، اذ أن أولاد عبد الله وأخوته رضــوا جميعا بمبايعة ذلك الشاب الذى كان لا يتجاوز الرابعــة والعشرين من عمــره ، وقدموا له فروض الولاء يوم موت عاهلهم(٦٣) • وكتب لهــذا الشاب أن يمتد عهده بعد ذلك خمسين ســنة ، نعمت الاندلس فيها ، كما ســنرى ، بالاستقرار والرخاء ، وسكنت فيها العواصف الجامحة ، وشهدت قرطبــة مجدا لم تشاهد نظيره فى أى عهد من العهود •

بدأ الامير عبد الرحمن عهده بعقد العزم على اسكان الفتن التى كانت مستعرة فى امارته ، والقضاء على المتمردين من رعيته • ولم يمض شهران على مبايعته حتى أوفد جيشا بقيادة عباس بن عبد العزيز القــرشى ، فى ربيع الثانى سنة ٣٠٠ (ديسمبر ٩١٢) ، الى قلعة رباح لاخضاع البربر الذين كانوا قد استولوا على هذا الحصن بمعاونة الفتــح بن مــوسى ذى النون ، وانتصر الجيش على الثائرين انتصارا حازما • وبعد ذلك بأسابيع قلائل ، فى ١٩ جمادى الاول (أول يناير ٩١٣) ، أوفد جيشا ثانيــا بقيادة الحاجب بدر بن أحمد فاسترد استجة من أنصار المتمرد المرتد ابن حفصون•

وبعد ذلك بشهرين ، فى شهر شعبان (مارس) ، بدأ الامير يعد العدة لحملة قوية يقودها بنفسه ، وتحركت الحملة فى شهر رمضان (أبريل) ، وعادت الى قرطبة بعد ثلاثة أشهر ، عشية عيد الاضحى ، (١٧ يوليو ٩١٣) ، بعد أن نجح الامير فى فتح سبعين حصنا من حصون الثوار فى جيان وألبيرة ، من مناطق نفوذ ابن حفصون ، وبعد أن أخضع سعيد ابن هذيل ، صاحب المنتلون ، التى سميت الحملة باسمها ، وعبيد الله بن أمية بن الشـالية ، صاحب شمنتان ، وابن عطاف ، صاحب منتيشة ، واستسلمت تلك المـدن والتمس أصحابها الامان •

وفى السنة التالية ، فى شهر جمادى الاول (ديسمبر ٩١٣) ، أوفـد الامير عبد الرحمن جيشا لاخضـاع أشبيلية بقيـادة قاسم بن الوليـد ، واستسلمت تلك المدينة العظيمة ، وردت الى أمـلاك الامارة • وفى شـهر رمضان من السنة نفسها (أبريل ٩١٤) استسلمت قرمونة بدورها ، وانتهى بذلك ملك بنى حجـاج • وفى الشهر التـالى ، قاد الامير جيشـا لتضييق الخناق على ابن حفصون ، وانتزع الحصون المـوالية له فى رية • ثم حال القحط الشديد الذى أصاب الاندلس فى السنة التالية ، سنة ٣٠٢ (٩١٥) من أن يتابع الامير تعبئة الجيوش ، اذ أنه شغل بالعمل على تخفيف وطأة المحنة على الاهالى ، ولكنه أوفد فى السنة التالية جيشا بقيادة اسحاق بن محمد القرشى الى تدمير وبلنسية ومدينة الحامة ، فأخضـع الثوار بهـا ، وانتهتسلطة ديسم بن اسحاق فيها • وفى السنة التالية ، ٣٠٤ (٩١٧) ، أوفد حاجبه بدرا على رأس جيش غزا به مدينة لبلة ، وأخضـع ثوارها • وشاء حسن طالع الامير أن يموت ابن حفصون فى ربيع الاول من سنة ٣٠٥ (سبتمبر ٩١٧) ، وأن يستسلم أولاده أمام قوات الامـير • ثم لم يلبث هؤلاء أن نكثوا بعهودهم ، ومازال الامير يسير قواته لاخضاعهم ، ويتولى

قيادتها بنفسه ، حتى تخلص من أبناء الثائر المرتد ، الواحد تلو الاخـر ، وأخيرا سقطت ببشـتر ، حصنهم المنيـع ، فى ٢١ ذى القعـدة سنة ٣١٥ (١٧ يناير ٩٢٨)(٦٤) •

كان لانتصار الامير عبد الرحمن على ثورة ابن حفصون واسترداده لجميع معاقله ومعاقل أنصاره ، وقضـائه على الفتنـة الكبرى التى دامت ستا وأربعين سنة ، صدى عريضا فى بلاد الاندلس والمغرب وفى أسـبانيا المسيحية • وكان الامير قد قضى قبـل ذلك على تمـرد أسرة بنى قسى فى تطيلة ولاردة ، وتفرق أفرادها ، وأسرة الطويل فى وشقة ، ودخل أبناؤها فى طاعة الامير ، كما كان قد أخمد الثورات التى قامت أو التى كانت قائمة فى طرطوشة وماردة وترجالة وقصر أبى دانس والبيرة وشنت برية ووادى الحجارة ومجريط ، وتلاشى ذكر معظم زعماء الثوار وخلفائهم فى الولايات والمناطق التى كانوا يسيطرون عليها ، ودخل كثير منهم فى طاعة الامير ، وأعلنوا الولاء له ، وأخلصوا فى خدمته ، وانخرط بعضهم فى سلك جنده ، وناصروه فى الجهاد(٦٥) •

وكان الامير عبد الرحمن قد حقق انتصارات أخرى على حدود بلاده ضد المسيحيين ، وكان قد أوفد فى المحرم من سنة ٣٠٤ (يوليو ٩١٦) قائده أحمد بن محمد ابن أبى عبده فى جيش قوى لصد اغارات مملـكة ليـون والاغارة بدوره عليها(٦٦) ، وعادت الحملة ظافرة بعد أن عاثت فى مملـكة ليون • وفى صيف السنة التالية أعاد عبد الرحمن الكرة ، ولكن الموقعة التى نشبت بين الجيوش العربية وجيوش (أردون) ، ملك ليون ، فى ربيع الاول الاول سنة ٣٠٥ (سبتمبر ٩١٧) ، أسفرت عن انهـزام الجيش الاندلسى واستشهاد قائده أحمد بن أبى عبده مع فريق من فقهاء قـرطبة • ولم تكن

هذه الهزيمة الا لتزيد من عزم عبد الرحمن على تأديب الجلالقة • فأرسل جيشا بقيادة الحاجب بدر بن أحمد ، فى ربيـــع الاول من السنة التاليــة (أغسطس ٩١٨) ، والتقى هذا الجيش بجيوش (أردون) وأوقع بها هزيمة كبرى • وفى السنة التالية أعد عبد الرحمن حملة قوية أخرى عهد بقيادتها الى القائد اسحاق بن محمد القرشى ، ألحقت بجيوش (أردون) هزيمــة أخرى ، اضطر معها الملك الى التراجع • ولم يقنــع الامــير عبد الرحمن بهذين الانتصارين ، فأعد فى صيف سنة ٣٠٨ (٩٢٠) جيشا قاده بنفسه ، اجتاح به مناطق كبيرة من مملكة ليون ، وهدم حصونا كثيرة فيها ، واستولى على غنائم ثمينة ، ثم توجه الى حــدود مملكة نبرة (نافار) ، وهــرعت جيوش (أردون) لنجدتها ، وفى منطقة قريبــة من بنبلونة تدعى خونكيرا التقى جيش عبــد الرحمــن بجيــوش (شــــانجــة) و (أردون) ، وكبدها خسائر فادحة ، وقتل فى المعركة عدد كبير من الوجهاء والزعمــاء ، ووقع عدد كبير اخر فى الاسر ، ولحق الامير عبد الرحمن بفلول الهاربين ، وحاصرهم وأفناهم • وظل بعد انتصاره العظيم هذا فى ٦ ربيع الاول سنة ٣٠٨ (٢٦ يوليو ٩٢٠) ثلاثة أسابيع يجتاح فيها مــواقع فى جنــوب نبرة ويخرب الحصون ويجمع الغنائم(٦٦ب) •

لم يشف هذا الانتصار العظيم المزدوج غليل الامير الباســل ، فانه كان يتطلع الى مهاجمة (شانجة) فى عاصمة مملكته ، بنبلونة ، فى قلب بلاد البشكنس • وأعد العدة من جديد لحملة كبرى يقودها كذلك بنفسه ، وفى منتصف المحــرم سنة ٣١٢ (٢٧ أبريل ٩٢٤) تحــرك الامــير على رأس جيوشه ، ووصل تطيلة فى ٤ ربيع الاخر (١٠ يوليو) • ثم اتجه منها نحو أملاك نبره ، مخربا الحصون فى طريقه الى بنبلونة • وتقابلت جيوشه مع

جيوش (شانجة) وحلفائه وهزمتها فى موقع غير بعيـــد من بنبلونة ، ولم يلبث أن توجه الامير الى عاصمة خصمه ، ووجد الطـــريق اليها مفتوحا ، ووجد أهلها قد هجروها فارين عند وصول طلائع الجيوش الاندلسية ، فلم يلق عبد الرحمن صعوبة كبرى فى احتلال القلعة وتخريب المدينة ، وعاد مظفرا الى قرطبة فى أواخر الشهر (أول أغسطس) .

(٢)

الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ، أمير المؤمنين

(٣١٦ الى ٣٥٠ — ٩٢٩ الى ٩٦١)

زادت هذه الانتصارات ، داخل الاندلس وخارجها ، من ايمان الامير عبد الرحمن بسعد طالعه وشدة بأسه وقوة مراسه ومضاء عزيمته وثبوت سلطانه ، ودفعته على أن يقدم على اعلان الخلافة والتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله • ولعل ما شجعه على اتخاذ هـذا القرار الجـرىء ، فى مستهل شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ (يناير ٩٢٩) ، ما كان يعلمه من انحلال الخلافة العباسية حينذاك ، ومن أن عبيد الله المهدى ، صاحب افريقية ، أعلن نفسه خليفة • ولا شك فى أن الامير عبد الرحمن كان مقتنعا ، فى تلك السنة التى أعلن فيها الخلافة ، أنه أعظم أمراء الاسلام قـدرا وقـوة ، وأكثرهم مالا ، وأجدرهم بأمامة المسلمين ، وأحقهم ، وهو ابن الخلائف ، بالخلافة وعلى كل حال لم يكن عبد الرحمن الناصر يقصد حينذاك أن يعترف المسلمون فى أطراف المعمورة بأمانته ، ولا أن يدعى له على المنـابر فيها ، وما كان يتوقع أن يحدث شىء من هذا ، ولكن الذى كان يرمى اليه ، وقـد تحقق فعلا ، هو أن تكسبه ألقاب الخلافة وأمارة المؤمنين هيبة أكبر عنـد أفراد أسرته ورعيته ، بحيث يتردد المتمردون معها فى اعلان انتفاضهم • وكذلك قصد عبد الرحمن أن يتبع اعلان الخلافة تفخيم صيته وتعظيم رهبته عند خصومه ، ملكى نبرة وليون(٦٧) •

وسنرى فى فصل لاحق من هذا الكتاب أثر اعلان الخلافة على زهاء قرطبة وازدهارها وعلو منزلتها ، اذ صحب هذا الاعـلان انشاء رسـوم للخلافة ، واحاطة الخليفة بهالة من الفخر والابهة • فلم تعد قرطبة مقـرا

للامارة فحسب ، بل عاصمة لسلطان عظيم ، ومجمعا لطائفة كبيرة من الخاصة ، ولحاشية من العلماء والفتيان الصقالبة ، خصيان وفحول ، تضخم الثراء فيها ، وعمت الرفاهية ، أمها مشاهير العلماء والشيوخ ، وتوافد عليها زعماء البربر فى افريقية • وقدمها السفراء من بلاد الفرنج ومن ايطاليا وألمانيا وبيزنطة ، بل قدمها الملوك والامراء ، وكان قدوم هذه الوفود مثار اهتمام أهل قرطبة ، ومجالا للابتهاج واقامة الزينات والافراح(٦٨) •

انبرى عبد الرحمن الناصر ، بعد أشهر من تقلده الخلافة ، للقضاء على القلة الباقية من المتمردين فى دولته • فجرد جيشا قويا قاده بنفسه ، فى شهر ربيع الاخر سنة ٣١٧ (يونيه ٩٢٩) • توجه به الى بطليوس وماردة ، وخرب المناطق بهما ، وضرب عليهما حصارا شديدا ، ومنهما توجه الى باجه ، فاستسلم صاحبها عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ، ثم الى شنتمريه التى استسلمت بدورها ، ولم يلبث صاحب بطليوس ، عبد الرحمن بن محمد بن مروان الجليقى أن استسلم كذلك ، وقدم الى قرطبة مقدما فروض الطاعة ، وسكنت ثورة بنى الجليقى •

سقطت حصون الثوار ، ولم يبق غير حصن واحد عنيد كان بيد المولدين ، هو طليطلة • وقد حاول الخليفة أول الامر اجتذاب أهل هذه المدينة بالحسنى ، وبعث اليهم وفدا من الوجهاء والفقهاء لردهم الى الصواب • ولما لم تجد محاولاتهم ، عقد الخليفة العزم على اخضاع طليطلة بالقوة ، فتوجه اليها بنفسه على رأس جيش فى ربيع الآخر من سنة ٣١٨ (مايو ٩٣٠) ، وأعد العدة لحصارها حصارا طويل الاجل ، وابتنى أمامها « مدينة الفتح » لمرابضة جيوشه ثم عاد الى قرطبة • ودام الحصار سنتين ، وأخيرا رضخ الثائرون ، وسلموا مدينتهم ، وعاد الناصر من قرطبة ليدخل طليطلة دخول الظافرين فى شهر رجب ٣٢٠ (يوليو ٩٣٢) ، وأمر

بهدم أسوار المدينة • وهكذا انهار آخر حصن من حصون الثوار ، وصفت الاندلس جميعا لحكم الخليفة عبد الرحمن الناصر(٦٩) •

وكانت الثغور هادئة منــذ حمــلة بنبلونة وانتصــارات سنة ٣١٢ (٩٢٤) • وكانت مملكة ليون قد آلت الى ملك آخر هو (راميرو الثانى) ، المعروف بـــ (ردمير) ، والذى افتتح عهده بالهجوم على مجريط والاستيلاء عليها ، وكانت حصنا من حصون الثغر الاوسط ، بناه الامير محمد بن عبد الرحمن ، وأراد الناصر أن يلقن (ردمير) درسا ، فخرج بنفسه على رأس صائفة فى سنة ٣٢٢ (٩٣٤) الى قشتالة ، فاجتاحت جيوشه مناطــق بنها وحاصرت (ردمير) فى احدى قلاعه ، ثم اتجهت نحو برغش ، وكانت مدينة كبرى من مدن قشتالة ، فخربتها وهدمت أسوارها وأسوار حصون قشتالية أخرى • وفى سنة ٣٢٥ (٩٣٧) ، قاد الخليفة صائفة أخرى الى ألبة والقلاع ، وكان صاحب سرقسطة ، أبو يحى محمد التجيبى قد تحالف مع ملكى ليون ونبره • واقتحم الناصر قلعة أيوب ، ومنها اتجه الى ألبة فافتتح حصونا فيها ، وأخيرا ضرب الحصار حول سرقسطة ، ومثلما فعل فى طليطلة ، أعد العدة لحصار طويل الاجل ، ثم سار بجيشه الى بنبلونة ، فخرب مرة أخرى حصونها ، وعاث فى بلاد البشكنس ، ولم تلبث سرقسطة أن اســـتسلمت ، وعفى الخليفة عن صاحبها ، ولم يعد لبنى التجيبى نفوذ فيها •

حالف النصر العاهل الاندلسى منذ مبايعته فى ســـنة ٣٠٠ وحتى تلك السنة ، سنة ٣٢٥ • غير أن الحظ قــد خانه مرة بعــد ذلك فى ســـنة ٣٢٧ (٩٣٩) ، ولعله كان قد اغتر بقوته وسعده ، وأخطأ حساب قوى خصومه • ففى تلك السنة جهز الخليفة جيشا كثيفا قويا قيل ان عدته « زادت عن مائة ألف من الناس » ، « فنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهى سمورة »(٧٠) ، وكان يقينه بنجاح هذه الصائفة قويا بحيث أطلق عليها « غزاة القدرة » •

خريطة تبين حمـــلات عبـــد الرحمن الناصر

ضـــــد الممتلـــكات المسيحية

« أنظر الجزء الخاص بالخرائط فى آخـــر الكتاب »

والتقى فى ١١ شوال (أول أغسطس) ، بالقرب من سمورة ، بجيوش ليون وقشتالة ونبرة المتحالفة ، واستمر القتال أياما ، ثم دارت الدائرة على جيش الخليفة ، وقتل الاف عديدة من جنده وفرسانه فى الموقعـــة التى اشتهرت باسم « وقعة الخندق » ، ووجد الخليفة نفسه مشقة فى النجاة •

كان لهذه الهزيمة الشنعاء وقع أليم فى نفس الخليفة ، فأقسم بعدها أن يثار من أعدائه ، وأخذ يعد الصوائف ، ولكنه توقف منذ تلك السنة عن الخروج بشخصه لقيادتها ، فكان يختار لها بعض قواده • وكان لانتصار (ردمير) صدى كبير فى العالم المسيحى ، ولكن سرعان ما استطاع الخليفة أن يجعل هذا الصدى يخفت ثم يتلاشى • وساعدت الظروف على ذلك ، اذ شب نزاع بين (ردمير) وبين أمير قشتالة ، ولم ير ملك ليون بدا من التثام حدود مملكته والاقتصار على الدوافع عنها • وجهز الخليفة ثلاث صوائف فى سنوات ٣٢٩ (٩٤١) و ٣٣٥ (٩٤٦) و ٣٣٩ (٩٥٠) ، كانت توقع الدمار فى مناطق من مملكة ليون ، واستطاعت احدى هذه الصوائف أن تخترق قلب هذه المملكة وتصل الى طرفها الشمالى عند المحيط • وعادت جميعا محملة بالاسلاب والغنائم • ومات (ردمير) فىسنة ٣٣٩ ، وقام النزاع بين المتطلعين الى عرشه ، وانتهز الخليفة اضطراب شئون مملكة ليون فأصدر أمره الى ولاته فى الثغر الاعلى بالاغارة على أملاكها ، وسنتى ٣٤٠ و ٣٤١ (٩٥١ و ٩٥٢) ، دخلت الجيوش الاندلسية أراضى جليقية ، وعاثت فيها ، وخربت حصونا منها ، وعادت محملة بالغنائم • وفى سنة ٣٤٢ (٩٥٣) ، أوفد الخليفة قائديه أحمد بن يعلى وغالب الصقلى على رأس صائفة للاغارة كـــذلك على جليقية ، وخربا مـــدنا فيها وعادا ظافرين • وفى ربيـــع الاول ســـنة ٣٤٤ (يوليو ٩٥٥) أغار ولاة الثغر الاعلى على قشتالة ، وحاصروا حصنا فيها ، وقتلوا آلافا من رجاله ، ولم ير (أرذون الثالث ، الذى كان يجلس عـــلى

عرش مملكة ليون ، مفرا ازاء الهزائم المتوالية التى منيت بها بلاده ، من أن يطلب المهادنة من الخليفة ، وقبل عبد الرحمن الناصر قد عقد معاهدة سلم مع الملك وأملى فيها شروطه ، وكان من بينها استرداد بعض الحصون على الحدود وضمها الى الاندلس •

أبرمت هذه المعاهدة فى أواخر سنة ٣٤٤ (أوائل ٩٥٦) ، ولما اطمأن الخليفة من ناحية مملكة ليون ، وجه نشاطه نحو مملكة نبرة ، وشاءت الظروف كذلك أن تعفيه من بذل جهد كبير فى هذه الوجهة ، اذ أن (طوطة) ، ملكة نبرة ، قدمت اليه فى قرطبة نفسها مع ابنها الملك (شانجة) ، الذى كان قد خلف (أرذون الثالث) على مملكة ليون ، فى سنة ٣٤٥ (٩٥٦) ، ولكنه خلع من عرشه وطرد من مملكته بعد ذلك بسنتين • وعقد الثلاثة مع الناصر معاهدة ، وعد فيها الخليفة بمعاونة (غرسية) على استعادة عرشه ، وهذا ما حدث فعلا ، اذ بعث الخليفة فى ربيع السنة نفسها جيشا برفقة (غرسية) حاصر سمورة واستطاع فى السنة التالية أن يعيد العرش الى (غرسية) • وحفظ هذا للخليفة جميله ، وهكذا اتفق ملك نبرة وقشتالة مع ملك ليون على اعلان الولاء لعبد الرحمن الناصر • وتقديم جزية سنوية له •

أما من جهة الفرنجة ، فقد كانت الاحوال هادئة طيلة عهد الناصر ، والثابت أن الخليفة استرد من دوقية برشلونة مدينة طرغونة وعمر مسجدها الجامع وجمله ، فى سنة ٣٤٩ (٩٦٠) • وأغلب الظن أن معاهدة سلم كانت معقودة بين الخليفة وأمير برشلونة •

هكذا أصبح للخليفة الاندلسى سلطانا مهيبا على جميع أجزاء الجزيرة الاسبانية وأطرافها ، أو كما قال الرواة : « استقامت له الاندلس فى سائر جهاتها » و « مدت اليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الاذعان»(٧١)•

وسنرى فيما يلى أن هذه العظمة قد امتد صداها الى أطراف الممالك الاسلامية والمسيحية الاخرى •

كان عبد الرحمن الناصر يرقب بعين الحذر ، منذ توليه الامارة ، نمو الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب واتساعها وأطماعها فى الاندلس ، وكان عبيد الله المهدى قد استولى على رقادة ، عاصمة الاغالبة فى افريقية ، وأعلن فيها الخلافة الفاطمية فى سنة ٢٩٧ (٩٠٩) ، وأنشأ عاصمة جديدة ، هى المهدية ، وانتقل اليها فى سنة ٣٠٨ (٩٢٠) ، وأخذت دولته تمتد منها الى حدود المغرب الاقصى ، وقامت فى تلك البلاد حروب بينه وبين الادارسة ، انتصر عليهم فيها أول الامر ، وانتزع منهم عاصمتهم فاس ، فى سنتى ٣٠٨ و ٣٠٩ (٩٢٠ و ٩٢١) ، ثم استردها الادارسة فى سنة ٣١٣ (٩٢٥)• وانتهز الامير عبد الرحمن فرصة اضطراب الاحوال فى المغرب الاقصى ، فأرسل أسطوله فى سنة ٣١٤ (٩٢٦) لاحتلال ثغر ميلة ، وبعد ذلك بخمس سنوات ، فى ربيع الاول ٣١٩ (مارس ٩٣١) ، بعث الخليفة أسطوله بقيادة فرج بن عفير واستولى على سبتة • ولم يلبث موسى بن أبى العافية ، والى بلاد المغرب الاقصى من قبل الخليفة الفاطمى فى مكناسه ، أن خرج عن طاعته وأعلن الولاء للخليفة الاندلسى • وعمل الناصر على أن يشجع زعماء المغرب الاقصى من الادارسة والبربر على مناهضة الخليفة الفاطمى ، وأخذ يرسل اليهم الهدايا والاموال ويوفد اليهم الجيوش • فأعلنوا له الولاء وصار يخطب باسمه على منابر المغرب من مدينة الجزائر الى سجلماسه ، وغربا الى سواحل المحيط • واطمأن الناصر من خطر الدولة الفاطمية الناشئة ، التى أخذت ممتلكاتها فى المغرب الاقصى تضطرب فى عهدى الخليفتين ، القائم ، الذى تولى الخلافة بعد موت المهدى فى سنة ٣٢٢

(٩٣٤) ، والمنصور ، الذى خلف أباه عند موته فى سنة ٣٣٤ (٩٤٥) . وانتهز الخليفة الاندلسى فرصة هذا الاضطراب فاستولى على طنجة وضمها الى دولة الاندلس ، فى سنة ٣٣٩ (٩٥١) . ولكن بلاد المغرب الاقصى لم تحتفظ بولائها طويلا للخليفة الاندلسى ، اذ أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، الذى خلف أباه المنصور فى سنة ٣٤١ (٩٥٣) ، أوفد قائده المشهور جوهر الصقلى لاخضاع تلك البلاد التىكانت قد خرجت عن طاعة الفاطميين ، واستطاع جوهر فى سنة ٣٤٨ (٩٥٩) ، أن يستردها جميعا ، فيما عدا سبتة وطنجة ، اللتين بقيتا فى حيازة الخليفة الاندلسى .

توفى عبد الرحمن الناصر يوم ٢ رمضان سنة ٣٥٠ (١٥ أكتوبر ٩٦١) عن أربع وسبعين سنة ، وكان قد تولى الامارة ، « والاندلس جمرة تحتدم ، ونار تضطرم » ، وتركها مملكة عظيمة يسودها الامن والسلام ، ويعمها الرخاء والنعيم ، وترك خزائنها تتضخم بالاموال ، وجعل من قرطبة عاصمة تنافس فى العالم الاسلامى ، القسطنطينية فى العالم المسيحى .

تحمل عبد الرحمن عبء الحكم ، ست عشرة سنة أميرا ، وأربعا وثلاثين سنة خليفة ، ولا شك فى أن طول مدة حكمه قد أتاحت له الفرصة ليتم الاعمال التى بدأها ، وينفذ السياسة التى رسمها . ولكن شخصيته قد كانت العامل الاكبر فى تحقيق الانجازات العظيمة التى تمت فى الخمسين سنة من حكمه ، فان شجاعته لم تهن ، ونشاطه لم يفتر ، وكانت عزيمته على الدوام متقدة ، وأطماعه عالية(٧٢) .

كان ملك الناصر بالاندلس « فى غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادنه الروم ، وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به منملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الامم الا وفدت

اليه خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى ، فانه هدا ورغب فى موادعته ، وكان وصول ارساله فى صفر سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة (أغسطس ٩٤٩) » ، وكذلك وفدت الى الناصر فى قرطبة والزهراء رسل من الملك (أردون) ، فى سنة ٣٤٨ (٩٥٥) ووفدت الملكة (طوطه) مع الملكين (شانجة) و (غرسية) ، ملكى نبرة وليون ، فى سنة ٣٤٨ (٩٥٨) ، وتقدم سفراء من (دوقوه) ، ملك الصقالبة ، ومن ملك الالمان ، ومن (أوفة) ، « ملك الافرنجة بقاصية المشرق » ، ومن (كلده) ، « ملك الافرنجة بالمشرق » ، ومن برشلونة ، ومن صاحب رومة(٧٣) . وسنعود فى فصل آخر الى استعراض بعض هذه السفارات تفصيلا .

وسنرى كذلك فى فصول تالية من هذا الكتاب مبلغ ما وصلت اليه قرطبة من الازدهار ، ماليا وعمرانيا وحضاريا . وكان الناصر كثير البنيان(٧٤) ، حتى قيل انه خصص ثلث ايرادات الخلافة للبناء(٧٥) ، وسترى فى الفصل الخامس من هذا الكتاب كذلك ، أنه بنى فى قصر الخلافة بقرطبة ، الى جانب مجلس الزاهر ، قصرا عظيما سماه « دار الروضة » ، وبنى المستنزهات « واتخذ منية الناعورة خارج القصور ، وساق اليها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة » — وسنخص مدينة الزهراء ، التى ابتناها « واتخذها لنزله وكرسيا لملكه » بالفصل السادس ، وسنوضح فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أعماله فى المسجد الاعظم .

ويكفينا أن نشير هنا الى أعماله المعمارية اشارة عابرة ، ومن هذه الاعمال ، خارج قرطبة والزهراء ، نافورة أقامها فى سنة ٣١٨ (٩٣٠) فى أستجه ، ودارا للصناعة أنشأها فى سنة ٣٣٣ (٩٤٤) فى طرطوشة ، وتجديده

لمسجد طرغونة الجامع ، وبنائه حصنا فى جزيرة طريف سنة ٣٤٩ (٩٦٠) • بل ان منشئاته تعدت حدود الاندلس ، فاليه يرجع الفضل فى زيادة مسجد القرويين بفاس ، وهو الذى أمر بالزيادة فى مسجد الاندلسيين بفاس وباقامة مئذنة له(٧٦) •

كان عبد الرحمن الناصر خليفة عظيما ، وحاكما قديرا ، بل كان أعظم شخصية فى عصره ، لا فى الاندلس والممالك الاسلامية فحسب ، بل فى العالم كله • وكان عصره بلا شك أزهى عصور الاندلس كلها ، ومن أكثر عصـــور الاسلام زهاء فى جميع مراحل تاريخه •

(٣)

الحكم المستنصر بالله(٧٧)

(٣٥٠ الى ٣٦٦ — ٩٦١ الى ٩٧٦)

بويع الحكم بالخلافة غداة وفاة أبيه ، وتلقب بالمستنصر بالله ، وكان سنه يقرب من الثمانية والاربعين(٧٨) • وكان أبوه قد أشركه فى كثير من الاحيان فى تصريف شئون الدولة ، واستصحبه فى بعض غزواته • ونشـأ الحكم ، وشب ، منكبا على العلم والدراسة ، واذا كان يظهـر من مجـرى تاريخه ، أنه لم يكن على ما كان أبوه مـن النشـاط المتقـد و «الشـهامة الصارمة » ، الا أنه اقتفى اثار أبيه فى سياسته وجهاده •

وكانت أيامه ، داخل الاندلس ، أيام سلم وسكينة ، لم يشبها تمرد وال أو انفضاض جماعة من الرعية ، ولم يعكر صفوها الا ما حدث فى سنة ٣٥٥ (٩٦٦) من اغارة المجوس الارماندبين على الساحل الغربى ، على قصر أبى دانس وأشـبونة ، ولكن الاسـطول الاندلسى كان مستعدا لصـد اغاراتهم(٧٩) ، فاتجهت مراكب من أشبيلية والتقت بمراكب المجوس ودمرت الكثير منها ، وعاد المجوس فى سنة ٣٦٠ (٩٧١) ، فأوفد الحكم أمير البحر فى ألمرية ، عبد الرحمن بن محمـد بن رماحس لمواجهتهم ، والظاهـر أن المجوس عادوا أدراجهم قبل أن يصل الاسطول الاندلسى •

وكانت أيامه ، خارج حدود الاندلس ، أيام ظفر واقبال • وقد رأينا كيف أن أباه الناصر قد عاون (غرسية) ابن (شانجة) على استرداد عرشه فى ليون ، الذى كان اغتصبه (أرذون الرابع) ، وكان (غرسية) هذا قد تعهد برد حصون عشرة على حدود بلاده الى دولة الاندلس ، ولما توفى الناصر ، نقض (غرسية) عهده ، كما نقضه (شانجة) ، ملك نبره ، ظنـا منهما أن

(٣)

الحكم المستنصر بالله(٧٧)

(٣٥٠ الى ٣٦٦ — ٩٦١ الى ٩٧٦)

بويع الحكم بالخلافة غداة وفاة أبيه ، وتلقب بالمستنصر بالله ، وكان سنه يقرب من الثمانية والاربعين(٧٨) • وكان أبوه قد أشركه فى كثير من الاحيان فى تصريف شئون الدولة ، واستصحبه فى بعض غزواته • ونشـأ الحكم ، وشب ، منكبا على العلم والدراسة ، واذا كان يظهـر من مجـرى تاريخه ، أنه لم يكن على ما كان أبوه مـن النشـاط المتقـد و «الشـهامة الصارمة » ، الا أنه اقتفى اثار أبيه فى سياسته وجهاده •

وكانت أيامه ، داخل الاندلس ، أيام سلم وسكينة ، لم يشبها تمرد وال أو انفضاض جماعة من الرعية ، ولم يعكر صفوها الا ما حدث فى سنة ٣٥٥ (٩٦٦) من اغارة المجوس الارمانديين على الساحل المغربى ، على قصر أبى دانس وأشـبونة ، ولكن الاسـطول الاندلسى كان مستعدا لصـد اغاراتهم(٧٩) ، فاتجهت مراكب من أشبيلية والتقت بمراكب المجوس ودمرت الكثير منها ، وعاد المجوس فى سنة ٣٦٠ (٩٧١) ، فأوفد الحكم أمير البحر فى ألمرية ، عبد الرحمن بن محمـد بن رماحس لمواجهتهم ، والظاهـر أن المجوس عادوا أدراجهم قبل أن يصل الاسطول الاندلسى •

وكانت أيامه ، خارج حدود الاندلس ، أيام ظفر واقبال • وقد رأينا كيف أن أباه الناصر قد عاون (غرسية) ابن (شانجة) على استرداد عرشه فى ليون ، الذى كان اغتصبه (أرذون الرابع) ، وكان (غرسيه) هذا قد تعهد برد حصون عشرة على حدود بلاده الى دولة الاندلس ، ولما توفى الناصر ، نقض (غرسية) عهده ، كما نقضه (شانجة) ، ملك نبره ، ظنـا منهما أن

وحدث فى سنة ٣٥٥ (٩٦٦) أن مات (غرسية) ملك ليون ، وتقاسم الاشراف مملكته ، وأخذ كل منهم يلتمس رضاء الخليفة ، ويقدم بنفسه ، أو يوفد رسله ، لتقديم فروض الولاء والطاعة . وفى سنة ٣٥٩ (٩٧٠) ، مات (شانجة) ، ملك نبرة ، وأعلن خلفه كذلك فروض الطاعة للخليفة .

وهكذا استطاع الحكم أن يقضى بسرعة على أطماع خصومه ، ويعيد الامن والسلام على حدود دولته ، ويؤكد مقدرته وعظمته فى جميع الممالك المسيحية المتاخمة للاندلس . وأخذت قرطبة حينذاك تشهد أفواجا متتالية من سفراء هذه الممالك . فيما بين سنة ٣٥٥ (٩٦٦) ، وسنة ٣٦٣ (٩٧٤) ، قدموا يعلنون فروض الطاعة للخليفة . ومن بين هذه السفارات ، التى سنستعرض بعضها فى فصل آخر من هذا الكتاب ، سفارات ملكى برشلونة وطركونة ، وسفارة ملك نبرة ، وأدواق شلمنقة وقشتالة وجليقية . وقدمت الى قرطبة الملكة (البيرا) ، أم (لذريق) ملك ليون ، والوصية عليه . وقدمت فى شهر جمادى الاول سنة ٣٦١ (مارس ٩٧٢) سفارة امبراطور بيزنطة ، وفى شهر شوال سنة ٣٦٣ (يونيه ٩٧٤) سفارة امبراطور ألمانيا(٨٣) .

وكان الحكم قد حقق انتصارات أخرى فيما وراء البحر ، فى المغرب الاقصى . وكان أبوه ، كما رأينا ، قد استولى فيه على سبتة وطنجة . واقتفى الحكم آثار أبيه فى تلك المنطقة ، واتبع سياسته . فسعى الى اجتذاب زعماء المغرب بأغداق الاموال والهدايا عليهم ، وشجع محمد بن الخير ، الزناتى ، كما شجع جعفر بن على بن حمدون ، المعروف بابن الاندلسى ، ضد الخليفة الفاطمى وعامله زيرى بن مناد . واذا كان محمد بن الخير قد هزم أول الامر ، وانتحر ، فان جيوش جعفر بن على الموالية للخليفة الاندلسى انتصرت على جيش الزيرى ، ولقى هذا الوالى حتفه فى

الموقعة ، فى رمضان سنة ٣٦٠ (يوليــو ٩٧١) • وثار المعــز لدين الله ، الخليفة الفاطمى ، لهزيمة واليه ، فعهد الى ابنه بلقين بن الزيرى المعروف بيوسف بولاية افريقية وأمده بجيش قوى للاخذ بثأر أبيه • ونجح يوسف هذا فى طرد الزناتيين ، وقتل أفواجا منهم ، وألحق الدمار ببلادهم(٨٤) •

ورأى الحكم ، ازاء اضطراب الاحوال فى المغرب الاقصى ، أن يوفد جيشا اليها ، فى شوال ٣٦١ (أغسطس ٩٧٢) ، ويسترد طنجة ، التى كان استولى عليها الحسن بن كنون ، الادريسى ، وعهد بقيادة جيشه هذا الى محمد بن القاسم بن طملس ، مع أمير البحر ابن رماحس ، ولم تلق الجيوش الاندلسية عناء كبيرا فى الاستيلاء على تطوان واسترداد طنجــة وطاردت فلول الادارسة ، ولما قتل ابن طملس فى احدى المواقع ، أوفد الخليفة مولاه وقائده العظيم غالب بن عبــد الرحمن ، فى رجب ٣٦٢ (أبريــل ٩٧٣) ، واستطاع هذا القائد أن يخترق أطراف المغــرب الاقصى حتى وصــل الى حجر النسر ، وحاصر الادريسى فى معقله حصارا طويلا ، اضطر هذا معه الى الاستسلام فى ٢٩ جمادى الاخرة سنة ٣٦٣ (٢٧ مارس ٩٧٤) ، ثم توجه الجيش الاندلسى الى فاس فافتتحها ، وعاد غالب مظفرا الى قرطبة فمنحه الحكم لقب « ذى السيفين » ، ورضخت تلك المناطــق من المغــرب الاقصى ، للخليفة الاندلسى • وأصبح يدعى له فيها على منابرها •

وصف الرواة الحكم بأنه كان ورعا صالحا عادلا رفيقا برعيته ، فانه وزع الاموال والغلال فى سنة القحط ، سنة ٣٥٣ (٩٦٤) ، وأعفى رعيته فى سنة مرضه من سدس مغارم الحشد ، وأعتق كثيرا من العبيد ، وأوقف ريع الحوانيت على تعاليم الاطفال اليتامى • وكان الحكم محبا للعلم ، كثير القراءة والدرس والتحقيق ، وكان يؤثر مجــالسة الفقهــاء والشــيوخ • وسنشير فى فصل لاحق من هذا الكتاب الى رعايته للعلماء والاداب والعلوم

والفنون ، والى شغفه الزائد بجمع الكتب التى ذاع صيته به ، حتى جعل من مكتبة القصر ، مضربا للامثال •

وكان الحكم ، مثل أبيه ، محبا للانشاء والتعمير ، وسنشير فيما بعد كذلك الى أعماله فى مدينة الزهراء ، والى تجديده لجسر قرطبة ، وقد ازدهرت قرطبة فى عهده ازدهارا لا يقل عن ازدهارها فى عهد الناصر ، ولكن اسم الحكم ، وعهده ، يرتبط على الاخص بالزيادة الكبرى والاعمال العظيمة الباهرة التى أجراها فى المسجد الاعظم ، والتى سنوضحها تفصيلا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب •

وكان من حسن حظ الحكم أن أحاطت به نخبة من الرجال النابهين ، وكان أعظمهم شأنا حاجبه ووزيره ووالى شرطته ، أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفى ، الذى كان أبوه مؤدبه فى نشأته ، وكان يلى جعفر مكانة عند الحكم القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى ، صاحب مدينة سالم ، وهو الذى استحق بانتصاراته لقب « ذى السيفين » •

مرض الحكم بالفالج ، ولما شعر بدنو أجله ، أخذ البيعة لابنه هشام ، فى جمادى الثانية سنة ٣٦٥ (فبراير ٩٧٦) ، وجعل جعفر المصحفى كافلا له ، وتوفى بعد ذلك بثمانية أشهر ، فى ٢ صفر سنة ٣٦٦ (٣٠ سبتمبر ٩٧٦) ، بعد أن ساس الاندلس ست عشرة سنة ، ولم يكن ولى عهده يتجاوز الثانية عشرة من عمره •

(٤)

المنصــــــور ابن أبى عامــر(٨٥)

(٣٦٦ الى ٣٩٢ ــ ٩٧٦ الى ١٠٠٢)

بويع هشام بن الحكم بالخلافة غداة وفاة أبيه ، ولقب بالمؤيد بالله • ولكن الخليفة الجديد كان صبيا ، فاستصدر جعفر المصحفى أمــرا بتقليده الحجابة ، وكان الحكم المستنصر بالله ، كما رأينا ، قد عهد اليه بكفالة ولى عهده ، وأصبح المصحفى الحاكم الفعلى للاندلس باسم هشام • ولكن أم الخليفة ، السيدة صبح ، كانت وصية عليه ، وكان لها نفوذ قــوى فى قصر الخلافة لانها كانت حظية عند أبيه الحكم ، واستمدت منها من هذه السيدة شخصية ثالثة من رجالات قرطبة نفوذا بدت مظاهره يوم وفاة الخليفــة ، تلك شخصية أبو عامر محمد بن أبى عامر المعــافرى ، الذى كانت السيدة صبح قــد اختارته قبل عشر سنوات « وكيلا للنظر فى أمــوالها وضياعها ، والذى كان قد استطاع بفضل فطنته ونباهته أن يستعطف الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى فأوصى الحكم المستنصر بالله أن يعينه وكيلا لابنه عبــد الرحمن فى سنة ٣٥٦ (٩٦٧) براتب شهرى قــدره خمسة عشر دينارا ، ثم لــا مات عبد الرحمن بعد ذلك بثلاث سنوات ، عينه وكيلا لابنه هشام • وكان ابن أبى عامر قد استطاع فى هذه الفترة أن يستحوذ على ثقة الخليفة فقدمه للنظر فى أمانة دار السكة ، ثم « أضاف له الخزانة ، ثم قــدمه على خطة المواريث » فى سنة ٣٥٨ ، « واستقضاه على كورة أشبيلية ولبلة » • وفى سنة ٣٦١ (٩٧٢) قدمه على الشرطة الوسطى فى قرطبة ، وأوفده فى سنة ٣٦٢ (٩٧٣) مع القائد غالب بن عبد الرحمن الى المغرب الاقصى ، قاضــيا للجماعة فيها ، واختاره قبيل وفاته ناظرا للحشم • وكانت الســيدة صبح وراء هذا الارتقاء فى المناصب ، اذ كان وكيلها ابن أبى عامر رجلا «ساحرا»، « متمكنا فى قلبها » ، مستأثرا بعطفها وبحبها • وكان ابن أبى عامر فــوق

هذا طموحا ، « ذا عقل ورأى وشجاعة » وعزم و « دهاء » ، وكان كـذلك واثقا من نفسه ، مؤمنا بصعود طالعه • وكان للمنصور يوم وفاة الحـكم ومبايعة هشام ٣٩ سنة •

ظهر طموح ابن أبى عامر ونفوذه يوم وفاة الخليفة الحكم ، فتخلص من المغيرة ، أخى الحكم ، بقتله خشية أن يتطلـع الى انتزاع الخلافة من الصبى هشام ، ثم استعان بجعفر المصحفى ، فى القضاء على نفـوذ فتيان القصر الصقالبة ، حتى يمهد الطريق لانفراده بالسلطة والنفوذ ، مستندا على السيدة صبح ، أم الخليفة • واستطاع فى الشهر نفسه الذى بويع فيه هشام بالخلافة أن يستصدر ، بمعاونتها ، أمرا بمنحه لقب الوزارة ، وبعد ذلك بأشهر استصدار أمرا اخر بتقليده قيـادة جيش الحضرة ، وفى السنة التالية ، أصبح صاحبا للمدينة ، قرطبة ، وانتزع ولاية الشرطة من الحاجب جعفر المصحفى ، ثم منـح لقب « ذى الوزارتـين » ، وانتقل مـن بيته بالرصافة الى قصر قريب من الزاهرة ، أسماه المنية العامرية • وبعد ذلك أخذ فى التقرب الى القائد العظيم غالب ، « وبالغ فى خدمته والتنصـح له واستعان به » على التخلص من الحاجب جعفر المصحفى ، « فنكبه ومحا أثره من الدولة »(٨٨) ، وكان ذلك فى ١٣ من شهر شعبان سنة ٣٦٧ (٢٦ مارس ٩٧٨) ، أى بعد سنة ونصف من وفاة الحكم(٨٩) • وتقلد ابن أبى عامر الحجابة ، تولاها بالاشتراك ، اسميا ، مع القائد غالب «ذى السيفين« و « ذى الوزارتين » • وبعد ذلك بثلاث سنوات وأشهر ، فى المحرم سنة ٣٧١ (يوليو ٩٨١) ، تخلـص من شريكه ، هذا القائد ، اسـتعان عليـه « بجعفر بن أحمد بن على بن حمدون » ، ثم قتل جعفرا هذا ، « بممالاة ابن عبد الودود وابن جهور »(٩٠) •

وهكذا أخذ يتخلص من رؤسـاء الدولة ومن « أوليـاء الخـلافة

خــريطة تبين حــدود الاندلس

فى ذروة مجـــــده

« أنظر الجزء الخاص بالخرائط فى آخــر الكتاب »

والمرشحين للرياسة »(٩١) ، بأن يقتل « بعضا ببعض » ، « حتى استأصلهم وفرق جموعهم »(٩٢) • « ثم لما خلا الجو » من هؤلاء وأولئك ، أخذ يستكثر من المرتزقة ، « وجند البرابرة والمماليك » ، وكان يستجلبهم من بلاد العدوة ، واستعان بهم على اذلال العرب ، و « حطهم » واسقاطهم « عن مراتبهم »(٩٣) • كل ذلك باسم الخليفة هشام الذى كان ابن أبى عامر يتظاهر بتعظيمه « والخضوع له »(٩٥) •

ثم صفا له الجو ، فشرع فى بناء مدينة الزهراء ، وانتقل اليها فى سنة ٣٧٠ (٩٨٠) ، « ونقل اليها خزائن الاموال والاسلحة »(٩٦) ، « واتخذ فيها الدواوين والاعمال » و « حجر على الخليفة كل تدبير » ، وحاصره فى قصره، وسد بابه ، فأصبح هشام « مهجور الفناء ، معجوز الغناء »(٩٧) • واتخذ ابن أبى عامر ، فى المحرم سنة ٣٧١ (يوليو ٩٨١) ، لقب « المنصور بالله »، « وقعد على سرير الملك ، وأمر أن يحيا بتحية الملوك ••• وكتب اسمه فى السكة والطراز » ، « ولم يبق لهشام المؤيد من رسم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر »(٩٨) كان هشام قد بلغ الـ ١٧ من عمره • وبعد ذلك بعشر سنوات ، عين المنصور ابنه عبد الملك حاجبا ، وفى سنة ٣٨٦ (٩٩٦) ، وكان هشام قد بلغ الـ ٣٢ من عمره • ، تلقب بالسيد والملك الكريم(٩٨ب) • والواقع أن المنصور كان الملك الفعلى للاندلس منذ وفاة الحكم المستنصر بالله ، قبل ذلك باثنتين وعشرين سنة •

أشرنا فيما سبق الى الوسائل التى اتبعها المنصور لتمكينه من الاستيلاء على السلطة ، ويبدو أن أهل قرطبة والاندلس قد تقبلوا هذا الوضع راضخين وراضين على السواء • أما الرضوخ فلان المنصور كان قبض على زمام الامور بيد من حديد ، مستندا أول الامر على السيدة صبح ، أم الخليفة ، وعلى جيش الحضرة الذى كان يتولى قيادته ، وعلى

الشرطة التى كان يرأسها ، وعلى أرباب الوظائف فى المدينة ، التى كان هو صاحبها • ثم استند بعد ذلك ، عندما توطد له الامر ، وتخلص من منافسيه ومزاحميه ، على الجيش القوى الذى أحسن تنظيمه وتعبئته واستجلب جنده من البربر والعبيد والمستعربين ، وأجزل أرزاقهم وعطاءاتهم • وكان من نتيجة هذه القبضة القوية على زمام الامور أن انتشرت السكينة والامن فى البلاد ، وانتظمت أمورها ، وسادها الاستقرار الذى تبعه الرخاء • وكان هذا مظهر رضاء الرعية عن عهده •

وكان هذا الرضاء يزداد على مضى العهد ، بما شمله خاصة من غزوات الجهاد ، التى كان يقودها المنصور بنفسه ، والتى كتب له النصر فيها جميعا • ولا شك فى أن نجاح هذه الغزوات ، واتصالها ، كان المصدر الذى الرئيسى الذى استمد منه المنصور قوته وسلطانه ، وصيته ، وهيبته ، والذى أكسبه رضاء الرعية ، وجعلها تنسى ، أو تتناسى ، جبروته وغدره وفتكه ، وتهمل خليفتها هشاما ، بعد أن شاب وكبر ، بالرغم من أنها كانت قد أحبته صبيا •

لم يكن لابن أبى عامر سابق عهد وخبرة بشئون الحرب ، وبالرغم من ذلك نراه يتبرع ، بعد خمسة أشهر من توليه الوزارة وبداية العهد ، بقيادة غزوة لرد عدوان الجلالقة على بعض الثغور الاندلسية ، ونراه يحسن اختيار الجند والقادة ، ويعنى باعداد الحملة التى تحركت بقيادته من قرطبة فى أوائل رجب من سنة ٣٦٦ (فبراير ٩٧٧) ، بعد ٥ أشهر من مبايعة هشام و ٤ أشهر من تقلده الوزارة متوجهة صوب منطقة شلمنقة • وضرب الجيش الاندلسى الحصار على حصن الحما ، وخرب بقاعها ، وعاد الى قرطبة بعد خمسين يوما محملا بالسبى والغنائم ، وكانت هذه أولى غزواته وأولى انتصاراته ، وكان لهذا الانتصار رغم ضآلته ، أثر فى رفع

صيت الوزير ، وفى اسناد منصب قيادة جيش الحضرة اليـه ولم يلبث أن خرج ابن أبى عامر بجيشه فى صائفة السنة نفسـها ، وانضـم الى جيش الثغر الاوسط الذى كان يقوده القائد العظيم غالب ، « ذو السـيفين وذو الوزارتين » ، وكتب لهذه الصائفة الظفر ، واستولت على حصن مولة ، فى شهر شوال (أبريل ٩٧٧) ، وعاد الوزير القائد منتصرا محمـلا بالسبى والغنائم .

وتتابعت الغزوات حتى قيل انها بلغت فى عهده سبعا وخمسين غزوة. وان كان المؤرخون لا يحددون أحداثها وتواريخها كلها . ولـكن هـؤلاء المؤرخين أشادوا بشجاعة المنصور فى الجهاد ، شجاعة فاقت فى رأيهم تلك التى أبداها حكام الاندلس جميعا فيما سـبق وما لحـق من العصـور ، وأعجبوا بحظه وتوفيقه ، توفيقا لم يصاحب مثله ، على حد قولهم ، غزوات هؤلاء الحكام . وصدق المؤرخون حين رووا أنه « وصل الى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله » و « أنه ملأ الاندلس غنائم وسبيا من بنـات الروم وأولادهم ونسائهم»(٩٩) ، حتى أنه لقب «بالجلاب » .

كانت غزوته الرابعة فى المحرم من سنة ٣٧١ (يوليـو ٩٨١) ، أنزل الدمار فيها بقشتالة ، وقتل فى الموقعة بالقرب من شنت بجنت (راميرو) ، ابن ملك نبرة ، واستطاع دوق قشتالة ، (عرشـية فرنانديث) أن ينجـو بنفسه ويلوذ بالفرار ، وعاد ابن أبى عامر الى قرطبة جارا وراءه أربعـة آلاف من السبى(١٠٠) . وتتابعت غزوات المنصور فى الاملاك المسيحية ، فى ليون وقشتالة ونبرة . وفى سنة ٣٧٤ (٩٨٥) ، خرج فى غزوته الثالثـة والعشرين ، صوب برشلونة ، ونجـح فى الاسـتيلاء على هـذه المـدينة الحصينة ، فى أوائل شهر صفر من السـنة التاليـة (أول يوليـو ٩٨٥) ، ودمرها تدميرا . وقتل أهلها ، وأسر بقية من نجا منهم . وعاد الى قرطبة

محملا بالسبى والغنائم ليخرج منها لغــزوات أخــرى ، وكانت غــزوته الخامسة والاربعــين فى ســنة ٣٧٩ (٩٨٩) ، وكانت وجهتهــا قشــتالة ، واستطاع المنصور أن يخرب بقاعها وأن يستولى فيها على وخشمة فى شهر جمادى الاول (أغسطس) وعلى القبة ، فى شهر رجب (أكتوبر) ، واضطر دوق قشتالة الى طلب الصلح(١٠١) •

وغزا المنصور غزوته الســادسة والاربعــين فى ســنة ٣٨٤ (٩٩٤) واستولى فيها على شنت اشتيين وعلى كلونية وخرب أبلة(١٠٢) • وقــد تركزت حينذاك غزوات المنصور على قشتالة لان الهدنة كانت بينه وبين ملك نبرة ، ولانه كان قد صاهر ملك بنبلونة(١٠٣) • وفى السنة التالية ، ٣٨٥ (٩٩٥) غــــزا المنصــــور قشــتالة وخــــرب حصن كاريون فيها ، ثم توجه الى مملكة ليون ، واستولى على عاصمتها الجديدة استرقة ، التى كان ملك ليون اتخذها بعد خراب عاصمته الاولى فى سنة ٣٧٨ (٩٨٨) ، واضطر (برمودو) ، ملك ليون ، الى طلب الصلح ، وتعهد من جديد بدفع الجزية ، وكان ذلك فى شهر شوال من سنة ٣٨٥ (نوفمبر ٩٩٥)(١٠٤) •

وكانت أكثر غزوات المنصور شهرة ، غزوته الثامنة والاربعين • تلك الغزوة التى وجهها الى جليقية ، فى صيف سنة ٣٨٧ (٩٩٧) ، وهى المعروفة بغزوة شنت ياقب • وكانت الجيوش الاسلامية لم تطأ من قبل تلك المنطقة، وكانت شنت ياقب أكثر مراكز الحج المسيحية شهرة وتقــديسا ، وكانت تحوى كاتدرائية عظيمة يؤمها الحجاج من أطراف العالم المسيحى كله • وتحركت جيوش المنصور من قرطبة فى ٢٣ جمادى الاخــر ســنة ٣٨٧ (٣ يوليو ٩٩٧) ، وانضمت اليها جيوش أوفدها المنصور عن طريق البحر، وتجمعت الجيوش فى (بورتو) ، وهو موضع برتقال على نهر دويره ، ومنها سارت شمالا فى مناطق وعرة ، فكانت تخرب المدن والحصون التى تلقاها

فى طريقها حتى أشرفت على شنت ياقب فى يوم الاربعاء ٢ شعبان (١٠ أغسطس) ، ووجدتها خالية من السكان الذين فروا منها ، فدخلتها ودمرتها وهدمت « مصانعها وأسوارها وكنيستها » وجعلتهـا « هشيما » • وعاد المنصور الى قرطبة مظفرا حاملا معه نواقيس الكنيسة وأبواب المـدينة ، وطلب ملك ليون الصلح مرة أخرى ، ومات بعد ذلك فى نفس السنة •

اتجه المنصور اثر عودته من هذا الانتصار الرائع وجهـة المغـرب الاقصى • وكانت مناطق واسعة من هذا الاقليم تخضع لحكم الاندلس منذ عهد الحكم المستنصر بالله ، وكان يدعى للخليفة الاندلسى على منابرها ، وكان المنصور قد أمضى فترة من الزمن فيها قاضيا للجماعة من قبل الحكم • ولما آل الامر اليه حدثت أحداث فى تلك البلاد • وانقض عليها الزيريون ، ولاة أفريقية من قبل الخليفة الفاطمى ، واستطاعوا أن يتوغلوا فى المغـرب الاقصى • فأوفد ابن أبى عامر اليهم جيشا بقيادة جعفر بن حمدون فى سنة ٣٦٩ (٩٨٠) ، ثم أعد حملة ثانية فى ربيع الاول سنة ٣٧٥ (أغسطس ٩٨٥) ضد الادارسة بقيادة ابن عمه عمر بن عبد الله المعروف بعسكلاجة • وكانت حملة المنصور الكبرى تلك التى أعدها عقب عودته من شنت ياقب • وكان نفوذ زيرى بن عطية قد نما فى بلاد المغـرب ، وأعلن خـروجه عن طاعـة المنصور • فأوفد المنصور جيشا قويا ، فى شوال من سنة ٣٨٧ (أكتوبر ٩٩٧) بقيادة مولاه واضح ، الذى كان يتولى قيادة جيش الثغر الاوسط • وانتصرت الجيوش الاندلسية انتصارا حاسما على الخصم المغربى ، فى شهر رجب من السنة التالية (يوليو ٩٩٨) • ولم يقنـع المنصـور بهـذا الانتصار ، فأوفد جيشا ثانيا بقيادة ابنه عبد الملك ، انضـم الى الجيش الاول ، وانهزم البربر الذين كانوا يناصرون زيرى ، فى ١٩ شـوال ٣٨٨ (١٣ أكتوبر ٩٩٨) ، وفر زيرى ، واستردت الجيوش الاندلسية مدينة

فاس ودخلتها منتصرة ، وتوطـدت سـلطة العاهـل الاندلسى على ولاية شاسعة فى المغرب الاقصى(١٠٥) •

وما أن اطمأن المنصور الى استقرار الامور فى الولاية المغربية حتى استأنف غزواته ، فتوجه فى سنة ٣٨٩ (٩٩٩) الى سمورة ، وأسكنها جالية من المسلمين ، وزودها بحامية قوية ، عهد بقيادتها الى أبى الاحوص معن بن عبد العزيز التجيبى • وفى نفس السنة غزا المنصور بنبلونة • وفى السنة التالية كانت غزوة جربيرة ، وكان دوق قشتالة قد تحالف مع جملة من دوقات قشتالة وليون والبشكنس « من حيز بنبلونة الى استرقة » ، وتعاهدوا على ايقاف المنصور عند حده • ولكن الجيوش الاندلسية انتصرت على الجيوش المتحالفة ، بفضل ثبات المنصور وشجاعة ولديه عبد الملك وعبد الرحمن ، واقدام القائد البربرى يدير الدمرى ، أمام جربيرة فى يوم ٢٥ شعبان سنة ٣٩٠ (٣٠ يوليو ١٠٠٠) • وأخذت تلك الجيوش تجوب بقاع قشتالة طيلة شهر رمضان ، وتنزل بها الدمار ، حتى أصبح يوم الفطر ، فاقتحمت مدينة برغش فى بلاد نبرة ، ثم اتجهت صوب عاصمتها بنبلونة ، وعاثت فيها •

وكانت الاندلس فى تلك السنة قد بلغت ذروة المجد والازدهار • كانت تعمها السكينة والرخاء والاستقرار ، وكان المنصور قد انهك قوى خصومها على حدودها الشمالية ، ومد أطرافها جنوبا الى ما وراء البحر ، فى المغرب الاقصى • وسنرى فى فصول تالية من هذا الكتاب ، أثر المنصـور فى زهاء قرطبة ، أدبيا وعمرانيا ، وسنشير الى مدينة الزاهرة ، ونفصل أعماله فى المسجد الاعظم ، وتجديده لقنطرة الوادى الكبير •

ولم يلبث المنصور أن شعر بعبء المجهود المتواصل الذى أضـناه ، بعد خمس وعشرين سنة من الجهاد ، وكان قد جاوز الخامسة والستين من

عمره ، فمرض ، وأحس بدنو أجله ، أثر عودته من آخر غزوة له فى صيف سنة ٣٩٢ (١٠٠٢) ، التى كانت وجهتها قشتالة والتى دمر فى طريقه لليها ديرا مشهورا من أديرة المستعربين فى شنت ميان .

. وأمر بأن يحمل الى مدينة سالم ، حيث أسلم الروح يوم ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ (١١ أغسطس ١٠٠٢) ، وكان قد أوصى أن يدفن فى صحن قصرها .

(٥)

الملك المظفر عبد الملك بن المنصور

(٣٩٢ الى ٣٩٩ — ١٠٠٢ الى ١٠٠٨)

كان المنصور قد أوصى أن يخلفه ابنه عبد الملك الذى كانت جيوش أبيه موالية له ، والذى كان المنصور ، كما رأيناه ، قد أسند اليه منصب الحجابة فى سنة ٣٨١ ، ومنحه لقب « سيف الدولة » ، وأشركه فى ادارة شئون الدولة وفى قيادة الجيوش(١٠٦ب) . ولم يكن للخليفة هشام حول ولا قوة ولا أمر ولا نهى وكان سنه ٣٨ سنة ، وكانت هيبة المنصور ، وصيته وسلطانه ، قد طغت بحيث أحاطت ابنه بهالة من المجد ، وبحيث لم يجرؤ أحد على نقض وصيته . وذلك بالاضافة الى أن المنصور كان قد أفنى جميع كبار رجال الدولة فلم يكن له منافس وكان قد جعل من هشام رجلا عقيما بدنا سقيما منسانيا ، ثم ان عبد الملك نفسه كان قد أبلى بلاء حسنا فى بعض غزوات أبيه ، وأظهر فيها من الشجاعة ما أثار الاعجاب به . كما أظهر كفاءة فى تصريف شئون الدولة التى كان أبوه قد عهد اليه بها ، سواء فى ولاية المغرب الاقصى فى سنة ٣٨٨ (٩٩٨) ، أو فى قرطبة ، قبل تلك السنة وبعدها . « فاجتمع الناس على حبه » وأقبلوا على تأييده(١٠٧) . وكان عبد الملك فى الثامنة والعشرين من عمره يوم ترأس الدولة ، واستصدر فى شهر شوال من سنة ٣٩٢ (أغسطس ١٠٠٢)(١٠٨) أمرا من الخليفة ، باستبقائه فى الحجابة .

ظلت أمور الدولة تجرى على ما كانت عليه أيام المنصور ، حتى أن عبد الملك ، بالرغم من قلة شغفه بالعلم والادب ، واظب على رعاية العلماء والادباء الذين كان أبوه يقربهم اليه . ولهذا يصح أن يعد عهده استمرارا لعهد أبيه ، نعم بالاستقرار . وأظله الرخاء .

وكذلك واظب عبد الملك على الحروج فى الغزوات ، ستا أو سبعا منها فيما بين سنة ٣٩٣ (١٠٠٣) وسنة ٣٩٩ (١٠٠٨) ، وافتتح حصنى ممقصر (أو منغصر) ومدنيش وأباد حاميتيهما ، واسترد سمـــورة ، وأغار على أراضى قشتالة وليون وجليقية ، وخرب لونة وقلونية وشنت مرتين ، وغيرها من الحصون ، واستولى فى هذه الغزوات على كثير من الغنائم والسبى •

وعند عودته من غـــزوته الخـــامسة فى ســـنة ٣٩٧ (١٠٠٧) ، وهى المعروفة بغزوة قلونية ، التى واجه فيها عبد الملك حلفا من أمراء المسيحيين وزعمائهم وهزمهم هزيمة عظيمة ، استصدر أمرا من الخليفة هشام بمنحه لقب « المظفر بالله » ، بالاضافة الى « سيف الدولة » وبمنح ابنه أبى عامر محمد ، الذى كان صبيا ، لقب « ذى الوزارتين » • ولكن عبد الملك لم ينعم طويلا بلقب « المظفر » ، فانه مات بعد ثلاثة عشر شهرا من تقلده له ، فى ١٦ صفر سنة ٣٩٩ (٢٠ أكتوبر ١٠٠٨) ، ولمـــا يكتمل عهده سبع سنوات ، ولمـــا يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره(١٠٩) •

حـــواشى الفصل الثالث

(٦٢) أهم مصـادر هذا العهد هى : « مدونة من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر » لمؤلف مجهـول ، نشرها وترجمها الى اللغــة الاســبانية ، أ. ليفى بروفنسا و أ. جرثيا جوميث ، مدريد ١٩٥٠ ، وقسم من « المقتبس » لابن حيان، مخطوطة بمكتبة القصر الملكى بالرباط ، تشمل السنوات ٣٠٠ الى ٣٣٠ (٩١٣ الى ٩٤٢) ، وصفحات ١٥٦ الى ٢٣٣ من الجزء الثانى من « البيان المغــرب » لابن عذارى ، وفيها قسم من تاريخ عريب بن سعد مندمج مع رواية ابن عذارى، و « ازهار الرياض » لابن حيان الجــزء الثانى ، صــفحات ٢٥٨ الى ٢٨٤ ، صفحات ٩٨ الى ١١٢ ، ومن المراجع ، البحث المستفيض الذى كتبه أ. ليفى بروفنسـال فى « تاريخ أسبانيا الاسلامية » فى الجزء الثانى ، صفحات ١ الى ١٦٤ ، وعنان ، « دولة الاسلام فى الاندلس » صفحات ٣٦٧ الى ٤٢١ .

(٦٣) كان مولد عبد الرحمن يوم ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ (٨ يناير ٨٩١) ، وكان عمره ثلاثة أسـابيع يوم أوعز جده عبد الله بقتل أبيه محمد . وقد احتضنه جده هذا وقربه اليه وأسكنه قصره ، وعطف عليه عطفا كبيرا واحسن رعايته . وكانت ولايته من الغريب ، لانه كان شابا ، وأعمامه وأعمام أبيــه حاضرون ، فتصدى اليها واجتازها دونهم » ، صفحة ٣٣٠ من الجــزء الاول من « نفــح الطيب » للمقرى ، « ولم يعرض معترض » ، صفحة ١٣ من « جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس » للحميدى (أبو عبــد الله محمد بن فتوح بن عبــد الله ، المتوفى سنة ٤٨٨ـــ١٠٩٥) ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥٢،.

(٦٤) كانت جميع الحصون والمناطق التى امتد اليها نفوذ ابن حفصـــون وابنائه قد سقطت من قبل ، مثل أسحة وأستبه وأرشذونة ، فى الحملات التى شنها الامير ، وكانت ثورة سعيد بن وليد بن مستنة قد انطفأت فى باغة فى نهاية عهد الامير عبد الله ، وكذلك قتل فى عهده الثوار سوار بن حمدون ، صــاحب البيرة ، ومنذر بن ابراهيم صاحب شذونة وخير بن شـاكر . وقضى الامير عبــد الرحمن فى احدى حملاته على تمرد محمد بن أضحى الهمدانى فى حصن الحامة .

(٦٥) كانت بعض الولايات ما تزال فى ذلك التاريخ فى أيدى زعمائها المتمردين ، وهى ماردة وبطليوس وباجة وشنتمرية وقلعة أبى أيوب وسرقسطة. وكانت طليطلة قد عادت الى التمرد . وسنرى بعد قليل أن عبد الرحمن الناصر قضى على الفتنة فى جميع هذه المناطق .

(٦٦) كان الملك (انفونش الثالث) ، ملك الاشتوريش ، مات فى سنة ٢٩٨ (٩١٠) قبل تولى عبد الرحمن الامارة بسنتين (ينظر صفحة ٣٣ فيما سبق والحاشية ٥٦) . وكان ابنه (غارسيه) قد استولى على أملاكه فى جليقية واشتوريش ونقل عاصمة الملكة من ابيط الى ليون ، واصبحت مملكته تعرف منذ ذلك التاريخ بمملكة ليون . وكان هذا الملك مثل ابيه ، قد حصن جملة مواقع على الحدود الجنوبية لهذه الملكة ، ومات (غارسيه) فى أوائل سنة ٣٠٢ (٩١٤) ، فخلفه أخوه (أردون الثانى) ، وافتتح عهده بالاغارة على ماردة .

(٦٦ب) اصبحت مملكة البشاكسة أو البشكنس تعرف بمملكة نبرة منذ سنة ٣١٤ (٩٢٦) .

(٦٧) وقد اقر المؤرخون بهذه الحقيقة فقالوا « وعظم الناصر وعلا صيته وجلت هيبته » ، ومما يؤيد ذلك ان ملك ليون ، (راميرو الثانى) اتخذ بدوره فى سنة ٣٢٠ (٩٣٢) ، بعد توليه الملك باشهر ، لقب « الامبراطور والملك العظيم »، تفخيما لشخصه واعلاء لصيته ، اقتداء بالناصر واضعافا للاثر الذى أحدثه تلقب امير الاندلس بلقب الخلافة فى أسبانيا المسيحية . ينظر ، ليفى بروفنسال ، «تاريخ أسبانيا الاسلامية » صفحة ٥١ ، الحاشية (٢) ، من الجزء الثانى .

(٦٨) تنظر صفحه ٣٤٢ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٦٩) كان ذكر أسرتى بنى ذى النون وبنى قسى قد عفى من طليطلة وتسطلونة منذ زمن طويل .

(٧٠) صفحة ٩٩ من « صفة جزيرة الاندلس » للحميرى .

(٧١) صفحتا ٣٣٠ و ٣٣١ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٧٢) وصفه المؤرخون بأنه كان « شهما صارما » وأنه كان « المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود » ، وذكر الرواة انه ، فى أواخر عهده ، عد « أيام السرور التى صفت له دون تكدير ، فكانت أربعة عشر يوما » من بين الخمسين سنة وستة اشهر وثلاثة أيام التى ملك الدنيا فيها . تنظر صفحة ٣٥٦ من « نفح الطيب » للمقرى .

(٧٣) صفحات ٣٤١ الى ٣٤٤ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٧٤) ينسب اليه فى ذلك قوله :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبالسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شانه   اضحى يدل على عظيم الشان

(٧٥) صفحة ٣٥٥—٣٥٦ من الجزء الاول ، وصفحة ١٠٥ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٧٦) تنظر صفحات ٨٧ الى ٨٩ و ١٧٠ من « زهرة العاص » للجزناعى .

(٧٧) اهم المصادر لتاريخ هذا العهد هى : القسم من « المقتبس » لابن حيان الذى كان يزمع نشره جارثيا جوميث فى مدريد ، وسبقه الى نشره عبد الرحمن الحجى ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥ . ويشمل هذا القسم خمس سنوات من عهد الحكم ٣٦٠ الى ٣٦٤ (٩٧٠ الى ٩٧٤) ، وصفحات ٢٣٣ الى ٢٥٣ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وصفحات ١٠١ الى ١٠٥ من « الحلة السيراء » لابن الابار ، وصفحات ٣٥٨ الى ٣٧٢ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى . ومن المراجع الهامة : البحث الذى كتبه آ. ليفى بروفنسال فى الجزء الثانى من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » صفحات ١٦٥ الى ١٩٦ ، والفصل الذى كتبه عنان (محمد عبد الله) فى « دولة المسلمين فى الاندلس » صفحات ٤٤٠ الى ٤٦٥ .

(٧٨) ولد الحكم بعد تولى أبيه الامارة بسنتين ، فى جمادى الاخرة سنة ٣٠٢ (يناير ٩١٥) ، وكانت تلك سنة القحط .

(٧٩) كان الخليفة قد عنى بتعزيز أسطوله ، وتوجه بنفسه فى سنة ٣٥٣ (٩٦٤) لزيارة المرية لهذا الغرض وللاشراف على تحصين تلك القاعدة ، وكان أسطوله يزيد عن ثلاثمائة مركب ، صفحة ٣٠٦ من الجزء الاول من « الاحاطة » لابن الخطيب .

(٨٠) صفحة ٣٦٠ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٨١) شرحه ، صفحة ٣٥٩ .

(٨٢) شرحه ، صفحة ٣٦٠ .

(٨٣) نكث دوق قشتالة عهده فى سنة ٣٦٣ (٩٧٤) ، واتفق مع أشراف ليون وملك نبرة على مهاجمة الثغور ، ومحاصرة حصن غرماج ، فاستدعى الحكم قائده غالب من المغرب الاقصى وأوفده على رأس جيش قوى ، وفى منتصف شهر شوال (٢٨ يونيه) ، أوقع الجيش الاندلسى هزيمة كبرى بجيوش الحلفاء ، وعاث فى بلاد قشتالة « ودوخها » . وفى نفس الوقت اقتحم يحى بن محمد التجيبى ، والى سرقسطة ، بلاد نبره وهزم عساكرها فى موقع قريب من تطيلة، وعاث فى نواحيها .

(٨٤) كان جوهر ، قائد المعز لدين الله ، قد فتح مصر ، فى شعبان ٣٥٨ (يوليو ٩٦٩) وبنى القاهرة ، وانتقل اليها المعز فى رمضان سنة ٣٦٢ (يونيو ٩٧٣) ، وبعدت صلته ، منذ ذلك التاريخ ، ببلاد المغرب ، وكان قد عهد بولاية افريقية قبيل رحيله عنها الى زيرى بن مناد .

(٨٥) أهم مصادر هذه الفترة من تاريخ قرطبة والاندلس هى : « البيان المغرب » لابن عذارى ، الجزء الثانى ، صفحات ٢٥٠ الى ٣٠١ ، و « الذخيرة » لابن بسام ، الجزء الرابع ، صفحات ٣٩ الى ٥٨ ، و « أعمال الاعلام » لابن الخطيب ، صفحات ٤٩ الى ٩٦ و ١١٤ الى ١٢٢ من القسم الثانى ، و « الاحاطة » لابن الخطيب ، الجزء الثانى ، صفحات ٦٧ الى ٧٣ و « نفح

الطيب » للمقرى ، الجزء الاول ، صفحات ٣٧٢ الى ٣٩٩ ، والجـزء الثانى ، صفحات ٨٤ الى ٨٧ و ١١٢ الى ١٣٥ و ١٤٦ الـى ١٤٨ و ١٧٩ الـى ١٨٠ ، و « المعجب » للمراكشى ، صفحات ٢٧ الى ٣٩ ، وينظر الجزء الثانى من « تاريخ أسبانيا » لليفى بروفنسال ، صفحات ١٩٦ الى ٢٧٢ ، و « تاريخ دولة الاسلام» لعبد الله عنان ، صفحات ٤٦٦ الى ٥٦٨ .

(٨٨) تراجع صفحات ٣٧٣ و ٣٧٤ من الجـزء الاول و ١٢٣ من الجـزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٨٩) مات المصحفى مسموما او مقتولا بعد ذلك بخمس سنوات ، فى سنة ٣٧٢ (٩٨٢) ، وبعد أن سجنه ابن أبى عامر وصادر أمواله واستولى على قصره، ينظر شرحه ، صفحة ٣٧٣ من الجزء الاول ، وصفحة ٢٦٥ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٩٠) شرحه ، وكان ابن أبى عامر قد استصدر أمرا بتقليد القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى لقب « ذى الوزارتين » فى شهر رمضـان من سنة ٣٦٦ (مارس ٩٧٧) ، وتزوج ابنه فى المحرم من السنة التالية ، واستعان به على التخلص من الحاجب المصحفى . ثم لما غضب القائد لاستبداد ابن أبى عامـر بالحكم وانفراده بالسلطة وحجره على الخليفة ، توجـه ابن أبى عامر لمحاربة صهره واستولى على مقره فى مـدينة سـالم واستصفى أمواله ، ومات القائد غالب من كبوة فرسه ، فى ٤ المحرم سنة ٣٧١ (١٠ يوليو ٩٨١) ، وكان يبلغ الثمانين من عمره .

(٩١) صفحة ٣٧٣ من الجزء الاول « نفح الطيب » للمقرى .

٩٢) شرحه ، وفى صفحة ٣٨٣ من هذا الجزء أيضا يروى المقرى انه لمـا تم لابن ابى عامر التخلص من أمراء بنى أمية ورؤساء الدولة « انفرد بنفسه ، وصار ينادى صروف الدهر هل من مبارز ؟ » . تنظر كذلك صـفحة ١٩٧ من الجزء الاول من « المغرب فى حلى المغرب » لابن سعيد .

(٩٣) صفحة ٣٧٤ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى . هـذا وسنشير فى الفصل الثامن من كتابنا هذا الى تنظيمات ابن أبى عامر الحربية . وقد ورد فى مذكرات الامير عبد الله بن بلقين باديس ، أن السبب فى استجلاب ابن أبى عامر للجند المرتزقة واستكثارهم هو انه كان يخشى أن يتألب عليه جند الخليفة فى قرطبة ويتآمرون على التخلص منه ، ولهذا السبب أيضا أصدر ابن أبى عامر أمرا باعفاء أهل قرطبة من ضريبة الحشود ، أى تقديم انفار للخـدمة بالجيش ، وذلك حتى يتفرغوا لفلاحة الارض ، ويأمن جانبهم ، تنظر صفحتا ٨٢ و ٨٣ من الجزء الثالث من « تاريخ أسبانيا الاسلامية » لمؤلفه ليفى بروفنسال الذى أورد هذه الرواية من مخطوطة مذكرات الامير بلقين .

(٩٥) صفحة ٣٧٤ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٩٦) شرحـــــه .

(٩٧) شرحه ، صفحتا ١١٣ و ١١٤ من الجزء الثانى . وروى المؤرخـون أن المنصور أمر ببناء سور وحفر خندق حول قصور الخلافة فى مدينة الزهراء « وأحكم غلق أبوابها » . تنظر صـفحات ٢٩٥ و ٢٩٨ من الجـزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وصفحة ١٤٩ من « الحلة السيراء » لابن الابار ، وصفحتا ١٤٧ و ١٤٨ من الجزء الرابع من « تاريخ » ابن خلدون .

(٩٨) ٣٧٤ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى . ويروى ابن عذارى فى صفحة ٢٧٧ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » أن الشعراء كانوا يخاطبون المنصور ببا « أيها الملك المنصور » ، ويروى فى صفحة ٢٧٥ ان المنصور « كان يمنى نفسه بملك مصر والحجاز والشام » .

(٩٨ب) حاولت صبح أن تنتفض اثر ذلك فى جمادى الاول من السنة نفسها (مايو) وأن تحمل ابنها هشاما على الحركة ضد المنصور . ولكن المنصور احبط المحاولة ، وأخرج الخليفة فى جولة استعراضية . ولعله اراد بذلك ان يطمئن الرعية على حفاظه على الخليفة وعدم تطلعه الى الخلافة .

(٩٩) صفحة ٣٨ من « المعجب » للمراكشي. وفيه انه «رخصت أثمان بنات الروم في عهده » حتى خشي الناس ركود الزواج من بناتهم .

(١٠٠) وموقعة شنت بجنت هذه هي التى سقط قبيلها القائد غالب ميتا ، وهي التى تلقب ابن أبى عامر عقب عودته منها الى قرطبة بالمنصور بالله .

(١٠١) كان عبد الله ، ابن المنصور ، قد ثار على أبيه والتجأ عند الدوق، ولكن الدوق سلمه الى المنصور الذى أمر بجز رأسه فى ١٤ جمادى الاخرة سنة ٣٨٠ ، (٨ سبتمبر ٩٩٠) ، وكان عمره اثنتين وعشرين سنة .

(١٠٢) وفى السنة التالية ، فى ١٥ ربيع الثانى ٣٨٥ (١٩ مايو ٩٩٥) ، قتل (غرسية فرنانديز) دوق قشتالة ، قتله مولى المنصور ، كند ، الذى كان واليا على الثغر الاعلى فى مدينة سالم .

(١٠٣) كان المنصور قد تزوج من ابنة ملك بنبلونة ، سانشو ، التى أسلمت ونسمت بعبدة ، وانجبت له ولدا أسماه عبد الرحمن وأسمته هى شنجول ، وهو الاسم المصغر لابيها . وقد حضر الملك هذا الى قرطبة لزيارة ابنته وحفيده وصهره ، واستقبله المنصور بحفاوة كبرى فى ٣ رجب سنة ٣٨٢ (٤ سبتمبر ٩٩٢) .

(١٠٤) كان المنصور قد تزوج قبل سنتين ابنه هذا الملك كذلك .

(١٠٥) تنظر صفحات ١٥٠ الى ١٦٠ من القسم الثالث من كتاب « أعمال الاعلام » لابن الخطيب ، المنشور تحت عنوان تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط ، تحقيق احمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ، وصفحات ١٥٩ وما يليها من الجزء الاول من « الانيس المطرب بروض القرطاس » لابن أبى زرع .

١٠٦) وكان المنصور قد بنى كذلك قنطرة على هذا النهر فى « استجة » كما كان بنى منية فى بلنسية ، ينظر ، المقرى ، نفح ، صفحه ٣٨٥ من الجزء الاول .

(١٠٦ب) المرجع الرئيسى لتاريخ هـذه الفترة هـو الجزء الرابـع من « الذخيرة » لابن بسام ، صفحات ٥٨ الى ٦٦ ، وفيها نقل ابن بسام رواية ابن حيان فى « المآثر العامرية » ، وننظر كذلك صفحات ٣ الى ٣٧ من الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وصفحات ٩٧ الى ١٠٤ من « أعمال الاعلام» لابن الخطيب .

(١٠٧) وزاد فى حب الرعية له واستبشارها بعهده أنه افتتح هذا العهد بالامر باسقاط سدس الجباية عن الناس .

(١٠٨) ينظر رقم ٢٨٦٥ من « تكملة الصلة » لابن الابار فى « متفـرقات » لجنثالث بلنسية وبقى الخليفة محجورا عليه ، لاهيا بهواياته الصبيانية التى كان عبد الملك يشجعها ويهيىء له أسبابها .

(١٠٩) قيل انه مات مسموما وأن الذى دبر موته أخوه الاصـغر عبـد الرحمن . هذا وكانت قد دبرت فى عهده مؤامراتان للتخلص منه ، واسـتطاع عبد الملك أن يقضى عليهما قبل أن يشرع فى تنفيذهما . ففى صـيف سنة ٣٩٣ (١٠٠٣) قبض عبد الملك على طرفه ، الذى كان زعيم فتيان القصر الصقالبة ، والذى كان قد بالغ فى طغيانه وتآمر على مولاه بالاتفاق مع الكاتب عبد الملك بن ادريس الجزيرى ، وقتل طرفه ، ثم قتل الجزيرى فى سنة ٣٩٤ (١٠٠٤) ، وكذلك قتل عبد الملك ، فى سنة ٣٩٧ (١٠٠٦) ، وزيره على عيسى بن سعيد اليحصبى، المعروف بابن القطاع ، وكان يدبر مؤامرة لتنصيب هشام بن عبد الجبار ، حيد عبد الرحمن الناصر ، خليفة ، وسجن هشام هـذا فى سجن الزاهرة ، ومات مخنوقا فى سجنه .

الفصـــل الرابـــع

عهـود الفتن والتبعية
ونهـــاية قـــرطبة

(٣٩٩ الى ٦٣٣ ـ ١٠٠٨ الى ١٢٣٦)

١ ـ عهـد الفتن والانقـلابات	(٣٩٩ ـ ١٠٠٨)
٢ ـ عهـد الانفـكاك والتبعية	(٤٢٣ ـ ١٠٣٢)
٣ ـ عهـــد المرابطين	(٥٠٠ ـ ١١٠٦)
٤ ـ عهـد المـوحـدين	(٥٤٣ ـ ١١٤٨)
٥ ـ فترة الاحتضـار والنهاية	(٦١٠ ـ ١٢١٣)

الفصـــل الرابـــع

عهـود الفتن والتبعية ونهاية قرطبة

(٣٩٩ الى ٦٣٣ — ١٠٠٨ الى ١٢٣٦)

(١)

عهـد الفتن والانقـلابات(١١٠)

(٣٩٩ الى ٤٢٢ — ١٠٠٨ الى ١٠٣١)

بدأت أول حلقة من حلقات عهـد الفتن باسـتيلاء عبـد الرحمن بن المنصور على الحجابة ، يوم وفاة أخيه عبد الملك أو مقتله ، مستمدا حقه فيها من ولاء جيش أبيه لاسرته ، واستصدر من الخليفة هشـام أمرا بتلقيبه المأمون ناصر الدولة • غير أن عبد الرحمن هذا ، الذى كان يبلـغ حينذاك الخامسة والعشرين من عمره ، لم يكن محبوبا قط ، لهزله وسـوء خلقـه وفجره ومجونه • وزاد من ازدراء الرعية له أنه اشتهر منذ طفـولته بلقب « شنجول » ، لكونه حفيد « سانشو » ملك نبره(١١١) • وكان عبد الرحمن مختالا مغرورا ، طمع فيما لم يتطلع اليه أبوه أو أخوه من قبـل ، فحمـل الخليفة ، ولمـا يمض شهر واحد على توليه الحجابة ، على أن يبايعه بولاية العهد • وأثار هذا الاغتصاب غضب العامة والخاصة معا عليه ، وأخذ أفراد بنى أمية ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، فى تدبير مؤامرة لخلع الخليفـة وولى عهـده معا(١١٢) ، وساعـدته فى ذلك بأموالها الزلفاء ، أم أخيه عبد الملك المظفـر ، لاعتقـادها أنه كان لعبـد الرحمن يد فى موت ابنها • واستطاع محمد بن هشام أن يستعين بالسفهاء من أهل قرطبة ، وانتهزوا فرصة خروج شنجول بالجيش الى الغزو بعـد شهرين من اعلانه وليا للعهد ، واستغلوا سخط العامة والخاصة عليه ، وفى يوم الثلاثاء ١٦ جمادى الاخرة سنة ٣٩٩ (١٥ فبراير ١٠٠٩) هجموا على

قصر قرطبة ، واستولوا عليه ، وقتلوا صاحب المدينة ، عبد الله بن أبى عامر عسكلاجه ، الذى كان يتولى شئون الدولة فى غياب شنجول ، وأجبروا الخليفة هشام على خلع نفسه ، وتولى محمد بن هشام الخلافة فى اليوم التالى ، وتلقب بالمهدى ، وبايعه فريق من الخاصة والوزراء والفقهاء •

فرحت العامة بهذا الانقلاب الذى أقصى حاجبا هزيلا فاجرا ، وخلع خليفة عقيما مستضعفا ، وأبقى الخلافة فى بيت بنى أمية • وفى اليوم التالى اقتحم الغوغاء من العامة ، بايعاز من الخليفة الجديد ، قصر الزاهرة، قصر بنى عامر ، ونهبوه ، واستولى محمد المهدى على ما فيه من نفائس وأموال ، ثم أمر بهدم أسوار المدينة ، مدينة الزاهرة ، وهجم الدهماء والغوغاء مرة أخرى على تلك المدينة وقصرها ، فجردوها مما تبقى من نفائسها ، وانتزعوا حجارتها وأرخمتها وأخشابها ، وتركوها خرائب وأطلالا ، ومحوا معالمها ورسومها • وكان سنجول حينذاك فى طليطلة ، فانفض الجيش من حوله ، ولكنه عزم على العودة الى قرطبة ، ودهمته قوة من فرسان محمد المهدى بالقرب منها ، فى دير أرملاط ، وذبح « ذبحا » فى ٣ رجب سنة ٣٩٩ (٣ مارس ١٠٠٩) ، وزالت دولة بنى عامر، بعد أربعة أشهر ونصف من استيلائه على رياستها •

استولى محمد المهدى على السلطة والخلافة بمعاونة رزمة من الغوغاء ، « حجامين وخرازين وكنافين وزبالين »(١١٣) ، فكان طبيعيا أن تستمد هذه الطبقة نفوذا فى العهد الجديد ، سلطته أول ما سلطته ، كما رأينا ، رأينا على مدينة الزاهرة ، ولم تتركها الا خرائب وأنقاضا • وسلطته بعد ذلك على البربر الذين كان يتألف منهم معظم الجيش ، فهجمت على دورهم فنهبتها ودمرتها ، وفتكت بكثير منهم • واستطاع فريق منهم أن ينجو من هذه الثورة ويفر خارج قرطبة • ونظم الفارون حشودهم

واختاروا سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر اماما للبربر ، وتحالفوا مع أمير قشتالة (شنجة جارثيه) ، وهاجموا محمد المهدى فى قرطبة بقيادة زعيمهم زاوى بن زيرى ، وهزموا جند الخليفة القرطبى وعامته ،فى وقعة جبل قنطيش ، التى هلك فيها ، فيما يقال ، عشرون ألفا من أهل قرطبة ، ودخل البربر العاصمة فى يوم الثلاثاء ١٦ ربيع الاول سنة ٤٠٠ (٨ نوفمبر ١٠٠٩) ، وفر محمد المهدى ، بعد تسعة أشهر من مبايعته بالخلافة ، ونصب البربر سليمان بن الحكم خليفة ، ولقبوه بالمستعين بالله • وتجنب البربر أهل قرطبة الغاضبين باتخاذ مدينة الزهراء مقرا ومقاما لهم • ولكن الخليفة الجديد لم يهنأ بكرسيه سوى سبعة أشهر ، اذ كان محمد المهدى قد استعان بواضح ، والى الثغر الاعلى وأنصاره الصقالبة ، وتحالف بدوره مع دوق برشلونة وأمير أورقلة ، وتنازل لهما عن مدينة سالم ، وقدم الجميع بجيوشهم لمحاربة البربر فى قرطبة ، ووقعت بين هؤلاء وأولئك معركة دامية، انهزم فيها البربر ، وأسفرت عن دخول الحلفاء قرطبة ، فى منتصف شهر شوال (أوائل يونيه) ، وأعيد محمد المهدى الى كرسى الخلافة ، وعين هذا واضحا حاجبا له •

كان البربر قد استقروا بمدينة الزهراء ، فلما هزموا فى موقعة دار البقر هذه جلوا عن الزهراء ، وانتهز عامة قرطبة خروجهم فدخلوا المدينة ونهبوها ، « ودخلوا الجامع ونهبوا حصره وقناديله ومصاحفه وسلاسل قناديله وصفائح أبوابه »(١١٤) • وكان فريق من البربر قد استطاع مرة أخرى الفرار خارج قرطبة ، واتجهوا جنوبا مع زعيمهم زاوى بن زيرى وامامهم الخليفة سليمان المستعين بالله ، ونظموا صفوفهم ، فطاردهم المهدى بجيوشه وجيوش حلفائه ، والتقى بهم فى الشهر التالى فى وادى آره بالقرب من رنده ومربلة ، ولكن البربر انتصروا ، وانهزم محمد المهدى وحلفاؤه هزيمة منكرة ، ارتد بعدها الى قرطبة ، وارتد حلفاؤه الى موطنهم•

ولم يلبث محمد المهدى غير أسابيع قليلة حتى ثار عليه حاجبه واضح ، وقتله ، وأخرج هشام المؤيد من سجنه ، وأعاده الى كرسى الخلافة ، بعد أن أقصى عنها سنة وستة أشهر ، وحدث ذلك فى ٨ ذى الحجة أو فى منتصف ذلك الشهر من تلك السنة (٢٣ أو ٣٠ يوليو ١٠١٠) . وهكذا استعاد الصقالبة نفوذهم ، ويسميهم ابن عذارى « العبيد العامريين » ، ولكنهم قدموا ثمنا لذلك الى (شانجو غرسية) حصونا كان يرفرف عليها من قبل علم الاندلس ، من بينها شنت اشتيبان وقلونية وأسما وغرماس ، كما كان محمد المهدى قد قدم قبل ذلك بأشهر مدينة سالم هدية الى دوق برشلونة.

ولم يلبث البربر أن عادوا واستولوا على مدينة الزهراء ، بعد أربعة أشهر من انتصارهم فى وادى آره ، فى ٢٣ ربيع الاول سنة ٤٠١ (٤ نوفمبر ١٠١٠) ، ثم زحفوا منها على قرطبة ، وحاصروها ، وعاثوا فى أرباضها نهبا وقتلا وتدميرا ، وضاق أهل قرطبة ذرعا بهذا الحصار ، وثاروا على واضح وقتلوه فى ١٥ ربيع الاخر سنة ٤٠٢ (١٦ أكتوبر ١٠١١) ، واستمرت قرطبة وأهلها يعانون الشدة مدة سنتين ونصف السنة حتى تمكن البربر من الدخول الى العاصمة ، فى أواخر شوال سنة ٤٠٣ (مايو ١٠١٣) ، وقتلوا عالما من خيار أهلها ، ونهبوا دورها ، واغتصبوا نساءها ، انتقاما لما كان قد فعله العامة بهم قبل ذلك بأربع سنوات . وخلع البربر هشام المؤيد ، وأعادوا الى كرسى الخلافة امامهم سليمان المستعين بالله ، الذى أضاف الى لقبه الظاهر بحول الله . وقيل ان ابن المستعين بالله هذا قتل هشام المؤيد بعد ذلك بأيام فى ١٥ ذى القعدة (١٨ مايو)(١١٥) ، وأخلى البربر قرطبة من أهلها « حاشا المدينة وبعض الربض الشرقى » .

اضطربت أحوال قرطبة وأحوال أهلها أربع سنوات منذ موت عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر ، وظلت على حالتها من الاضطراب بعد ذلك

أكثر من ثلاث سنوات أخرى • وكانت أحوال الاندلس أكثر اضطرابا ، اذ كان نفوذ الخليفة قد تقلص ، وخرجت ولايات عديدة عن طاعته ، وأخذ الصقالبة يتسللون من قرطبة وفروا شرقا بعيدا عنها ، واستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية وغيرها ، وأخذ البربر يوطدون سلطانهم في العاصمة • وكان من بين زعماء هؤلاء البربر رجلان ينتسبان الى الادارسة ، هما على بن حمود وأخوه القاسم • وكان سليمان المستعين بالله قد عهد الى الاول منهما ولاية سبتة والى الثانى ولاية الجزيرة الخضراء وطنجة • وكان على طموحا ، فاتفق مع الصقالبة ، وأعد جيوشا عبر البحر بها من ولايته ، والتقت جيوشه بجيوش خيران ، زعيم الصقالبة ، الذى كان قد استولى على مرسية والمرية(١١٦) ، واتجهت جيوش على بن حمود وجيوش الصقالبة نحو قرطبة ، وانضمت اليها جيوش من البربر بقيادة زاوى بن زيرى ، وخرج سليمان المستعين بالله لقتالهم ، فانتصروا عليه ، فى منتصف المحرم سنة ٤٠٧ (أواخر يونيو ١٠١٦) ، وأسروه ثم قتلوه ، وبايعوا على بن حمود بالخلافة ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وانتقلت الخلافة ، فى ذلك اليوم ، ٢٢ المحرم (أول يوليو) . ولاول مرة من بنى أمية الى بنى حمود •

وهكذا اهتز كرسى الخلافة والسلطان فى قرطبة ست مرات فى أقل من سبع سنوات ونصف ، خلع فيها هشام المؤيد ، وفر خليفته محمد المهدى بعد عشرة أشهر ، ثم فر خليفته سليمان المستعين بالله بعد ستة أشهر ، ثم قتل محمد المهدى بعد شهرين من تنصيبه خليفة للمرة الثانية ، وقتل هشام المؤيد بعد أن بقى فى خلافته الثانية سنتين وعشرة أشهر ، وأخيرا قتل سليمان المستعين بالله بعد أن أعيد الى الخلافة ، وتولاها ثلاث سنوات ونصف •

ولم تطل كذلك خلافة على بن حمود ، الناصر لدين الله ، فقد أذاق أهل قرطبة ألوان العذاب ، فقتلوه فى الثانى من ذى القعـدة سـنة ٤٠٨ (٢٢ مارس ١٠١٨) ، وخلفه أخوه القاسم ، الذى كان واليا على اشبيلية ، وتلقب بالمأمون ، وظل فى خلافته ثلاثة سنوات ونصف السنة ، كانت بردا وسلاما على أهل قرطبة ، الى أن انتزعها منه يحى ، ابن أخيه على الناصر لدين الله ، فى أوائل جمادى الاولى سنة ٤١٢ (أغسطس ١٠٢٢) ، وتلقب بالمعتلى ، وظل فى خلافته سنة ونصف السنة الى أن خلعه البربر وأعادوا القاسم المأمون على كرسى الخلافة ، فى شهر ذى القعدة من السنة التالية (فبراير ١٠٢٣) ، وانتفض أهل قرطبة ، وطردوا القاسم بعد سبعة أشهر من اعادته الى الخلافة ، فى شهر جمادى الاخـرة سـنة ٤١٤ (سبتمبر ١٠٢٣) ، ورفعوا الى كرسى الخلافة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الذى تلقب بالمستظهر بالله ، والذى لم يهنا بالخلافة أكثر من سبعة وأربعين يوما ، اذ ثار عليه أهل قرطبة وقتلوه ونصبوا مكانه ابن عمه محمد بن عبد الرحمن ولقبوه بالمستكفى بالله ، فى ذى القعدة سنة ٤١٤ (يناير ١٠٢٤) وهو الذى خربت فى عهده قصور مدينة الزهراء ، ثم خلعوه بعد ذلك بستة عشر شهرا ، فى ربيع الاول سنة ٤١٦ (مايو ١٠٢٥) ، ففر هاربا . وعمت الفوضى قرطبة ستة أشهر ، حتى عاد اليها فى رمضان ٤١٦ (نوفمبر ١٠٢٥) يحى بن حمود المعتلى ، وكان مستوليا على مالقة ، ولكنه لم يطب له المقام بقرطبة فغادرها بعد أربعة أو خمسة أشهر عائدا الى مملكته فى مالقة(١١٧).

وعاشت قرطبة مرة أخرى فترة من الزمن فى فـوضى شـاملة . ثم هاجم أهلها الحامية البربرية التى كان قد تركها فيها يحى المعتلى ، وفتكوا بها ، ورفعوا الى كرسى الخلافة ، فى ربيع الاخر سنة ٤١٨ (يوليو ١٠٢٧)، حفيدا من أحفاد عبد الرحمن الناصر ، هو هشام بن محمـد بن عبد الله ،

ولقبوه بالمعتد بالله ، وخطبوا له على منابر قرطبة . وكان هشام هذا يقيم فى الثغر بحصن ألبونت بعيدا عن قرطبة ، وظل يتردد فى قبول الخلافة أكثر من سنتين ، وأخيرا قدم الى العاصمة فى أواخر سنة ٤٢٠ (١٠٢٩) ولكن أحوال قرطبة لم تلبث أن اضطربت من جديد ، فخلعه أهلها فى ١٢ ذى الحجة سنة ٤٢٢ (أول ديسمبر ١٠٣١) ، وأجلوا عن مدينتهم أفراد أسرة بنى أمية جميعا .

وهكذا اهتز كرسى الخلافة والسلطان وتزعزع فى قرطبة ثمان مرات أخرى فى فترة لم تتجاوز ست عشره سنة ، من منتصف المحرم سنة ٤٠٧ (أواخر يونيه ١٠١٦) الى منتصف ذى الحجة سنة ٤٢٢ (منتصف ديسمبر ١٠٣١) . « ومن هذا التاريخ ، كثرت الفتنة وتمادت ، وانتزى كل أحد فى موضعه ، واستبد رؤساء الاندلس وثوارها فيما فى أيديهم من البلاد والمعاقل ، وبغى بعضهم على بعض »(١١٨) ، وبدأ عهد الانهيار الذى اتفق المؤرخون على تسميته بعهد ملوك الطوائف .

سقطت أسرة بنى أمية وانتهى عهدها فى ذلك اليوم الثانى عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (أول ديسمبر ١٠٣١) ، بعد ثلاثة قرون من استقرارها بالاندلس . ولا شك فى أنه بفضل أعلام هذه الاسرة. عبد الرحمن الداخل وسلالته ، قد كتب لهذا البلد أن يصبح دولة عربية اسلامية عظيمة ، وكتب لقرطبة أن تغدو ، كما سنرى ، على مدى القرن الرابع ، أكثر عواصم العالم الاسلامى والمسيحى زهاء وشهرة . ولا شك كذلك فى أن مطامح المنصور بن أبى عامر وأعماله هى التى أدت الى انهيار هذه الدولة وانطفاء زهائها ، وأنها كانت السبب الرئيسى الذى « أعاد أكثر الاندلس قفرا بيانا ، وملأها وحشا وذئابا ، وأعراها من الامان »(١١٩ب) . وكانت أعمال المنصور كذلك « سببا لانقطاع ملك بنى أمية من الاندلس »(١١٩ج) .

وقد أدرك ابن حيان ، فى عهده ، خطر تصرفات المنصور التى كان من نتائجها « ابطال الخلافة وتفريق الجماعة والتمهيد للفتنة والاشراف بالجزيرة على الهلكة »(١١٩د) بل ان المنصور نفسه قد اعترف بجرمه هذا، اذ أنه نصح ابنه عبد الملك ، قبيل وفاته ، وكان مما قاله : « اياك أن تضع يدك فى يد بنى مروان ، فانى أعرف ذنبى لهم »(١١٩هـ) .

ذلك أن هذا الصرح العظيم القوى الذى وضع أساسه عبد الرحمن الداخل كان يرتكز قبل كل شىء على هيبة الزعامة الاموية وحزمها ، وليس أدل على ذلك من أن أهل قرطبة كانوا ، فى أيام المعتمد بن عباد وبعد زوال الخلافة الاموية بنصف قرن ، ما يزالون يستمسكون بدعوة خلفاء بنى أمية، ويظهرون « أنفتهم من طموس رسوم الخلافة وعفائها »(١١٩و) . بل ان أهل قرطبة هؤلاء كانوا ما زالوا ، فى عهد والى قرطبة الموحدى ، وبعد انقضاء قرن ونصف القرن من سقوط أسرة بنى أمية ، « لا يذكرون واليا بعد عزله ، ولا له عندهم قدر ، لما بقى فى رؤوسهم من الخلافة المروانية »(١١٩ز) .

وكان ذلك الصرح العظيم يرتكز على دعامة ثانية ركيزة ، وهى العصبية العربية . وقد رأينا كيف أن المنصور بن أبى عامر حارب هذه العصبية وأذلها وأخمل أعلامها وغلب البربر عليهم(١٢٠) . لم يكتف ابن أبى عامر بتشريد أسرة بنى أمية ، قتلا ونفيا وتعقيما ، بل انه مكن البربر من مراكز القوة فى الجيش وفى المناصب العليا ، وسرح العرب الجند ، وحملهم على تعمير الارض وفلاحتها ، وأقصى عن مناصب الحكم وجهاء أهل قرطبة العرب .

لا يستطيع المؤرخ أن يغض النظر عن مسئولية ابن أبى عامر الكبرى فى قيام عهد الفتن والانقلابات ، وبالتالى فى انهيار الاندلس . وذلك بالرغم

من اعتراف المؤرخ بابن أبى عامر الستحق لقب المنصور عن جـدارة ، من انتصاراته فى غزواته السبعة والخمسين • بل ان المؤرخ يحق له أن يتساءل، بعد مضى ألف سنة على هذه المغزوات ، عما اذا كان المنصور قد أعدها حقا عن عقيدة مجردة للجهـاد ، أم أنه اتخذها وسيلة لتدعيم هيبته من جهة ، ولارضاء شهوة جنده البربر المرتزقة فى الاغنام والاسلاب ، من جهة أخرى، بالرغم من أن الرواة أجمعوا على تسجيل خصال محمودة له ، ومنها شغفه بالجهاد ، وبالرغم من أن عمدة مؤرخى الاندلس ، وهو ابن حيان ، قد افرد لحكم ابن أبى عامر كتابا ضخما أسماه ، فيما يقال « المآثر العامرية »(١٢٠أ) وعلى كل حال فالحقيقة التاريخية التى لا جدال فى صحتها هـو أن ابن أبى عامر قد هدم أركان الدولة الاموية ، وزعزع صرح العصبية العربية ، وبنى لنفسه مجدا على أنقاضها •

(٢)

عهـد الانفكاك والتبعية(١٢٠ب)

(٤٢٣ الى ٥٠٠ ـــ ١٠٣٢ الى ١١٠٦)

تفتتت الدولة اذن ، واغتصب صاحب كل ولاية ولايته ، وتآمر عليها ، واتخذ « الالقاب السلطانية » ، لكل واحد لقب أو اثنين ، وصار بالاندلس «أربعة خلفـاء ، كل واحـد يخطب له بالخـلافة ، وكلهم يدعى بأمـير المؤمنين »(١٢١) ، بل صار بالاندلس عشرون أو خمسة وعشرون ملـكا من ملوك الطوائف(١٢٢) • وكان كثير من وجهاء قرطبة يهاجرونها أيام المحن والفتنة ، ولكنه تبقت بها ، بالرغم من ذلك ، طائفة من الاجلاء وأهل الرأى، مثل أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور ، الذى ولاه أهـل قرطبة أمـر مدينتهم ، بعد خلعهم لهشام المعتمد بالله ، وطردهم لاسرة بنى أميـة ، فى أواخر سنة ٤٢٢ (أواخر ١٠٣٢) • وكان أبو الحزم جهور شيخا جليلا ، وكان أبوه وزيرا من وزراء المنصور ، فأحسن تدبير أمور قرطبة ، ولم ينفرد بالحكم ، بل استعان فيه بمشورة « الجماعة » ، أهـل الرأى والوزراء ، فصلحت أمور الولاية ، وعاد الى المدينة الامن والرخاء(١٢٣) •

وظل أبو الحزم فى تدبيره لامور قرطبة اثنتى عشرة سـنة ، الى أن توفى فى المحرم سنة ٤٣٥ (١٠٤٥) ، فتولى الامارة بعده ابنه أبو الوليد ، وتلقب بالرشيد ، وسار على نهج أبيه ، وكان يعاونه فى تدبير الحكم المؤرخ الكبير أبو مروان بن حيان ، كما كان الشاعر المشهور أبو الوليد بن زيدون يشغل فى أوائل عهده منصب الوزارة • تم انه أصابه مرض ألزمـه داره ، فعهد فى سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) بشئون الامارة الى ولديه عبد الرحمن وعبـد الملك ، قسمة بينهما ، فقدم عبد الرحمن ، « فى الاشراف والجباية ، وجعل الى عبد الملك النظر فى الجند والتولى لفرقتهم والاشراف على أعطيتهم »•

وكان عبد الملك طموحا فاستغل الجند فى التغلب على أخيـه والانفـراد بالحكم • ولكنه أساء السيرة و « أهمل الامور الشرعية » • وكان عبد الملك كذلك سفيها ، ومن ذلك أن اتخذ لنفسه ألقاب « ذى السيادتين المنصـور بالله الظافر بفضل الله » • وطمع المأمون يحى بن ذى النون ، صـاحب طليطلة ، فى غزو قرطبة وضمها الى مملكته ، فقدم اليها وحاصرها ، فاستغاث عبد الملك بالمعتمد محمد بن عباد ، ملك أشبيلية ، وأرسل هذا جيشا بقيادة محمد بن مرتين لنجدة قرطبة فانسحب ابن ذى النون وقفل راجعـا الى مملكته(١٢٤) •

استغلت جيوش ابن عباد فرصة كراهية أهل قـرطبة لعبـد الملك ، فاستولت على قصره ، فى شعبان سنة ٤٦٢ (نوفمبر ١٠٧٠) ، وعاثت فى المدينة نهبا وسبيا ، فطلب عبد الملك الامان لنفسه وذويه ، وأمر المعتمد بن عباد بنفيهم جميعا الى جزيرة شلطيش ، ولم يلبث الشـيخ أبو الوليـد المريض المقعد أن توفى ، وانتهت دولة بنى جهور فى تلك السنة ، بعد أربعين سنة من قيامها ، وهوت قرطبة الى حضيض التبعية ، وأصبحت ولاية من مملكة أشـبيلية ، وندب المعتمـد بن عباد ولده سراج الدولة لتصريـف شئونهـا •

طمع المأمون بن ذى النون ، صاحب طليطلة ، مرة أخرى فى الاستيلاء على قرطبة ، واستعان فى ذلك برجل يدعى حكم بن عكاشة ، أو حريز بن عكاشة ، وكان رجلا مغامرا ، فحشـد جمعا من أصـحابه المغامـرين ، واستطاعوا ، بمعاونة أنصار لهم فى المدينة أن يدخلوا قرطبـة فى احـدى الليالى ، وأن يقتلوا الظافر سراج الدين بن عباد ، وقائده ابن مـرتين • وحمل ابن عكاشه أهل قرطبة على بيعة المأمون بن ذى النون • وما لبث هذا أن قدم الى قرطبة ودخلها فى جمادى الاخـرة سـنة ٤٦٧ (يوليـو

١٠٧٥) ، ولكنه مات بعد أشهر قلائل • واستمر ابن عكاشة يحكم قرطبة ، واليا عليها من قبل يحى القادر بن ذى النون ، الذى خلف جـده فى ملك طليطلة • ولم يهنأ ابن عكاشة بالحكم طويلا ، اذ أن جيوش المعتمد بـن عباد زحفت على قرطبة ، فى شهر صفر سنة ٤٧١ (يوليو ١٠٧٩) ، ودخلتها وظفرت بابن عكاشة وقتلته ، وولى المعتمد عليها ابنا آخر له هو المأمـون ، وعادت قرطبة الى حظيرة مملكة أشبيلية •

كانت المحن تتوالى على الاندلس منذ بداية عهد الفتنة وتجزء المملكة الى دويلات • كان المسلمون يضعفون ، وكان العدو يقوى « ويظهر عـلى ملوكهم » • وأخذ معظم هؤلاء يقدمون الجزيه لملك الجلالقة ، أملا منهم فى لكتفاء شره • ولكن (فرذلند بن شانجه) لم يكتف بالجزية وأخذ يعيث فى بلاد الاندلس ، ويفتتح حصـون الثغور ، وينتزع البـلاد واحـدة تلو الاخرى(١٢٥) ، ولما مات خلفه ابنه (اذفونش السادس) ، فى سنة ٤٥٨ (١٠٦٦) فى ملك قشتالة ، فزاد خطره على الدويلات الاندلسية ، واستطاع فى منتصف المحرم سنة ٤٧٨ (مايو ١٠٨٥) أن يستولى على طليطلة ، قبل سلمها اليه صاحبها القادر يحى بن ذى النون(١٢٦) •

وكانت قرطبة تتلقى بحسرة أخبار هزائم المسلمين ومحنهم • وكانت أنباء الفظائع التى يرتكبها المسيحيون الغزاة ضد الاهالى ، من قتل وأسر وسبى ، ونهب وحرق ودمار ، تصل الى قرطبة فتهز أهلها أسى ، وتثير فيهم شعور السخط والحسرة والذعر واليأس ودفع هذا الشـعور جماعـة من زعماء المدينة وفقهائها الى عقـد اجتماع كبير ، اتفقت كلمتهم فيـه على الاستنجاد بأبى يعقوب يوسف بن تاشفين ، أمير المرابطين فى مراكش • وقدم المعتمد بن عباد بنفسه الى قرطبة ورحب بالقرار الذى اتخذه رجالاتها ، واتفق مع بعض أمراء الدويلات الاندلسية على أن يوفدوا وفدا الى الامير

المرابطى ، واختاروا من بين أعضائه قاضى قرطبة ، مــع قاضى بطليوس وغرناطة ، ليحملوا اليه دعوة المسلمين فى الاندلس واستنصارهم به لانقاذ بلادهم من السقوط فى أيدى أعدائهم • ولبى أبو يعقوب الدعوة ، وعبر الخليج الى الاندلس ، وانضمت اليه جيوش أندلسية ، وانتصرت الجيوش المغربية والاندلسية انتصارا رائعا فى موقعة الزلاقة فى شهر رجب من سنة ٤٧٩ (أكتوبر ١٠٨٦) • وقد أعاد هذا الانتصار الثقة والطمأنينة الى نفوس أهل قرطبة والاندلس(١٢٦) ، واتخذ أبو يعقوب يوســف بن تاشــفين فى أعقابه لقب « أمير المسلمين وناصر الدين » •

غير أن أمراء الطوائف ما لبثوا أن عادوا الى التنافس والتنابذ ، وأتاح تفرقهم للملك اذفونش السادس أن يسترد قوته وآماله ، وأخذ يهــاجم المسلمين فى حصونهم ، وخاصة فى منطقتى لورقة ومرسية • وأخذ الرعب يدب من جديد فى قلوب الزعماء ، وأسرع المعتمد يلتمس العون مرة أخرى من أمير المسلمين أبى يعقوب ، الذى لبى الدعــوة ، واجتاز بقــواته الى الاندلس فى ربيع الاول سنة ٤٨١ (يوليو ١٠٨٨) ، ثم حاصر حصن لبيط ، مع جموع من قوات الطوائف ، ولكن الحصار لم يطل ولم ينجح ، ولمس الامير المرابطى مظاهر الشقاق والخلاف الذى كان مستشريا بــين ملوك الطوائف ، وتأكد من تنابذهم ودسائسهم وأطماعهم ، فعاد أدراجــه الى المغرب • ولكنه أخذ يعد العدة للعودة الى الاندلس لينقذ أهلها ، لا من عبث المسيحيين فحسب ، بل من تعسف ملوك الطوائف واختلال شئونهم ، واجتاز بقواته الى الاندلس للمرة الثالثة فى أوائل سنة ٤٨٣ (منتصف ١٠٩٠) •

اتجهت الجيوش المرابطية أول الامر الى طليطلة وعاثت فى أحوازها وخربتها ، ثم عادت الى الجنوب وحاصرت غرناطة ، واســتولت عليها من أميرها عبد الله بن بلقين ، فى شهر رجب (سبتمبر) ، واستولت على مالقة،

وأعلن أمير المسلمين أبو يعقوب ضم مملكة غرناطة الى أملاكه المغربية ، ثم عاد الى بلاده • ولكنه ترك قواته وقواده فى غرناطة ورسم لهم خطة غزو ممالك الاندلس (١٢٧) • وتوجه جيش مرابطى بقيادة أبى عبد الله محمد بن الحاج الى قرطبة ، التى لم تصمد فى وجهه طويلا فدخلها المرابطون فى ثالث صفر سنة ٤٨٤ (٢٦ مارس ١٠٩١) ، وقتل فى المعركة والى قرطبة المأمون الفتح بن المعتمد بن عباد ، وما لبث المرابطون أن سيطروا على أراضى المنطقة كلها فى الوادى الكبير • واتجه جيش مرابطى آخر بقيادة سير بن أبى بكر الى اشبيلية ونازلها واستولى عليها فى ١٧ ربيع الاول (١٠ مايو) • واتجه جيش ثالث نحو رنده ، ثم استطاعت الجيوش المرابطية أن تستولى على المرية بعد سنوات ، وعلى بلنسية فى سنة ٥٩٤ (١١٠٢) ، وكانت قد استولت فى سنة ٤٨٨ (١٠٩٤) على بطليوس ثم على أشبونة • وأصبحت جميع هذه المناطق ولايات من مملكة المغرب ، ولم يتبق من ممالك الطوائف فى أيدى أصحابها غير سرقسطة •

عاد الامير أبو يعقوب للمرة الرابعة الى الاندلس فى سنة ٤٩٦— ١١٠٣ ، وقصد الى قرطبة حيث أعد العدة لاخذ البيعة لابنه أبى الحسن على • ولعله اختار قرطبة لاعلان هذا الحدث الكبير نظرا لما كانت ما تزال تستمتع به من ذكرى عاصمة الخلافة • وتمت البيعة فى شهر ذى الحجة (سبتمبر) • ولا شك فى أن الامير المرابطى كان يعتز بهذه الذكرى ، ويحن الى عاصمة الخلافة الاندلسية ، ويقدر مكانة قرطبة من حيث أنها كانت من قبل قرن ونصف من الزمان مركز الجهاد ضد المسيحية ، ولهذا أيضا فانه أوصى ابنه وولى عهده قبيل وفاته ، فى أول المحرم سنة ٥٠٠ (٢ سبتمبر ١١٠٦) ، فيما أوصاه به ، بالعطف على أهل قرطبة •

(٣)

عهـــد المرابطين(١٢٧ب)

(٥٠٠ الى ٥٤٣ — ١١٠٦ الى ١١٤٨)

يبدو أن الامير المرابطى أبو يعقوب يوسف بن تاشفين كان قد اتخذ قرطبة قاعدة للولاية الاندلسية ، وعين لها قبيل عودته الى حاضرته بالمغرب حامية من ألف فارس مرابطى ، واختار لولايتها أبا عبد الله محمد بن أبى رنق • والظاهر أن الامير أبا يعقوب كان قد أمر قبيل وفاته بنقل قاعـدة الولاية الى غرناطة • وكانت حامية قرطبة تشترك مع الجيوش المرابطية والاندلسية فى صد الجيوش المسيحية والاغارة على أراضيها ، وطرب أهل قرطبة عندما بلغهم انتصار جيوش المسلمين على الجيوش القشتاليـة فى موقعة اقليش الشهيرة ، فى ١٦ شـوال ٥٠١ (٢٩ مايو ١١٠٨) ، وكانت الحامية القرطبية مشتركة فى هذه المعركة •

استردت قرطبة بعض صيتها السياسى ، اذ أن الامير على بن يوسف اتجه صوبها على رأس جيوشه الجرارة عندما عبر البحـر الى الاندلس قاصدا الجهاد ، فى المحرم من سنة ٥٠٣ (أغسطس ١١٠٩) ، وأقام بهـا الامير المرابطى شهرا ، يعد العدة ويستكمل القوة • ثم اتجه الى أراضى قشتالة وحاصر بعض حصونها ، غير أن الوباء فشى فى جيوشـه ، فعـاد أدراجه الى قرطبة ، ثم الى قاعدة ملكه فى المغرب •

واشتركت جيوش قرطبة مرة أخرى فى حملة أمر بها الامـير على فى سنة ٥٠٧ (١١١٤) ، وأسند قيادتها الى أبى محمد مزدلى ، والى قرطبـة حينذاك • وقد توفى هذا الوالى أثناء غزوة قادها فى السنة التالية ، فخلفه فى ولاية قرطبة ابنه محمد الذى قتل بعد أشهر ، فى صـفر ٥٠٩ (يونيـه

١١١٥) ، فى معركة كان يقودها على رأس جيوش قرطبة لصد القوات القشتالية التى كانت تحاول الاقتراب من العاصمة • وندب الامير على قبل عودته الى بلاده ابن عمه أبا بكر يحى بن تاشفين لولاية قرطبة • وبعد ذلك بسنتين ، فى المحرم سنة ٥١١ (مايو ١١١٧) وصل الامير على الى قرطبة ، وكانت ثالث مرة يغادر فيها المغرب الى الاندلس • وظل ابن عمه أبو بكر واليا ، والظاهر أن هذا الوالى كان يغض النظر عن افراط رجال حاميته فى معاملة السكان ، فثار الاهالى عليهم ، واقتحموا قصر الوالى ونهبوه وأحرقوا دور المرابطين ، « دفاعا عن الحرم والدماء والاموال »(١٢٨) • وقعت هذه الثورة ، أو هذه الفتنة على حد قول بعض المؤرخين ، فى أواخر سنة ٥١٤ (يوليو ١١٢١) ، وكان قاضى قرطبة حينذاك أبو الوليد بن رشد ، جد الفيلسوف الكبير ، فدافع عن أهل قرطبة أمام الامير الذى استجاب لدفاعه وصفح عنهم ، ولكنه ما لبث أن عزل ابن رشد عن القضاء ، وولى عوضا عنه أبا جعفر بن حمدين ، كما عين واليا جديدا لقرطبة قبل عودته الى المغرب •

كانت قرطبة عاصمة ولاية من الولايات الخمس التى كانت الاندلس تضمها فى عهد المرابطين ، وكانت الاربع ولايات الاخرى هى اشبيلية وغرناطة وبلنسية ومرسية(١٢٩) • وقد رأينا أن قرطبة كانت موضع رعاية الامير أبى يعقوب ثم من بعده ابنه الامير على ، ولكن الظاهر أن ثورة قرطبة قد زعزعت عطف الامير على ، وآثر عليها اشبيلية • ثم انه ندب ابنه تاشفين ، فى سنة ٥٢٢—١١٢٨ ، واليا على الاندلس جميعه ، واتخذ هذا غرناطة مقرا له بدلا من اشبيلية ، الا أن الامير على أمره بعد أربع سنوات ، فى رجب ٥٢٦ (مايو ١١٣٢) أن ينقل الى قرطبة ويتخذها مقرا

له ، « ودارا لسكناه » • وهكذا عاد الى قرطبة مرة أخرى بعض صيتها السياسى(١٣٠) • وظل تاشفين واليا على الاندلس ، وكان يلقب بأمير الاندلس ، وظلت قرطبة قاعدة ولايته • وكانت الجيوش القشتالية قد حاولت فى سنتى ٥٢٤ و ٥٢٥ (١١٣٠ و ١١٣١) مهاجمة قرطبة ، ولكن تاشفين بادر بالسير اليها وصد هجوم الاعداء فى المرة الاولى ، وهزمهم فى المرة الثانية هزيمة كبرى ، عندما التقى بهم فى قرية براشة ، على مقربة من جيان • وكذلك حاول القشتاليون مرة ثالثة ، فى سنة ٥٢٨ (١١٣٤) ، مهاجمة مواقع المسلمين ، وواجهتهم جيوش تاشفين فى بطليوس وأوقعت بهم مرة أخرى هزيمة كبرى • وكانت جيوش قرطبة تشارك فى هذه المواقع كما كانت تشارك فى الغزوات التى شنها الامير تاشفين ، فى أواخر سنة ٥٢٨ (١١٣٤) وفى سنة ٥٣٢ (١١٣٧) وعاد الامير ، بعد هذه الغزوة الاخيرة التى كانت موجهة الى أشكلونة ، « ودخل قرطبة وبين يديه الاسلاب والغنائم ، فكان يوما مشهودا »(١٣١) •

حظيت قرطبة منذ دخلها المرابطون فى سنة ٤٨٤ بفترة من « السكينة والرخاء » لم يشبها غير الاحداث الدامية التى شهدتها فى أشهر الثورة ، فى أواخر سنة ٥١٤ وأوائل سنة ٥١٥ (منتصف ١١٢١) • غير أن حكم المرابطين لم يكن يخلو من مظاهر التعسف والطغيان • وأخذت وطأة هذا الحكم تشتد ، وأخذت نزعات وجهاء المدينة تتحرك ، وتتطلع الى التخلص من هذا الحكم ، وكان بعضهم ما زال يطمع فى الملك والرياسة • أما أهل قرطبة وعامتها فانه يبدو أنهم كانوا قد فقدوا ما كان قد تبقى فيهم من مظاهر التدين وخصال الغيرة والحياء • وساعد على نمو هذه النزعات الاستغلالية عند رؤساء قرطبة تلك الاخبار التى كانت تصل الى مسامعهم عن نشاط الموحدين فى بلاد المغرب وتضعضع سلطة المرابطين فيها • وكان الامير تاشفين قد غادر قرطبة فى سنة ٥٣٦ (١١٤٢) ، كان قد استدعاه

الامير على عند اشتداد وطأة الموحدين ، وخلف تاشفين أباه عند وفاته فى السنة التالية ، وكان قد ندب قبل سفره أبا زكريا يحى بن غانية أميرا على الاندلس •

ظهرت فى تلك السنة أطماع القاضى أبى جعفر أحمد بن حمدين ، الذى كان الامير على قد ولاه القضاء فى سنة ٥١٥ (١١٢١) عند عزله لابى الوليد بن رشد ، ثم صرفه الامير تاشفين عن القضاء ، ولكنه أعاده الى منصبه فى سنة ٥٢٩ (١١٣٥) ، ثم صرفه عنه بعد ثلاث سنوات • وفى سنة ٥٣٦ (١١٤٢) ولى الامير تاشفين ابن حمدين القضاء للمرة الثالثة ، ثم صرفه عنه بعد أشهر • وثار أهل قرطبة واستطاع ابن حمدين أن يسكن ثورتهم فكافأه الامير باعادته الى القضاء ، فكانت رابع مرة يتقلد فيها ابن حمدين منصبه هذا • وكانت قد قامت فتنة فى غربى الاندلس تزعمها ابن قسى وانخرط تحت لوائه جماعات من الثوار عرفوا بالمريدين ، وكان خطرهم قد استفحل الى حد أنهم توجهوا نحو اشبيلية طمعا فى الاستيلاء عليها ، فخرج اليهم أمير الاندلس ابن غانية فى سنة ٥٣٧ (١١٤٣) لصدهم ومحاربتهم • وانتهز القاضى ابن حمدين فرصة خروج الوالى من قرطبة • فشجع أهلها على الخروج عن طاعة المرابطين ، فأعلنوا خلع واليهم ونصبوا قاضيهم ابن حمدين واليا عليهم ، غير أنهم خلعوه بعد سنة واحدة ، واستدعوا سيف الدولة ابن هود ، آخر ملك سرقسطة ، وعينوه أميرا عليهم • ولكنه لم ينعم بالامارة غير أيام ، اذ ثار عليه أهل قرطبة وقتلوا وزيره وأجبروه على الفرار ، واستدعوا قاضيهم ابن حمدين ، وبايعوه مرة ثانية بالولاية عليهم •

عاد ابن حمدين الى قرطبة اذن فى منتصف سنة ٥٣٩ (أواخر ١١٤٤)، وبالرغم من مصرع الامير تاشفين فى وهران ، فى شهر رمضان من تلك

السنة (فبراير ١١٤٥) وانهيار دولة المرابطين ، فان ابن غانية ، الذى كان مقيما فى اشبيلية يرقب الاحداث منها ، وكان ما زال يعتبر نفسه أميرا على الاندلس ، جمع قواته وتوجه الى قرطبة ليستردها من ابن حمدين ، واستطاع أن يهزم القاضى الذى فر هاربا • والغريب أن القاضى ابن حمدين لم يتورع بعد فراره من الاتصال بملك قشتالة ، القيصر (الفونسو ريموندیس) ، « وأطمعه فى قرطبة » • ورحب ألفونسو بدعوة ابن حمدين ، وأرسل جيوشا لمعاونته ، واستطاع « النصارى » أن يدخلوا قرطبة فى صحبة القاضى ابن حمدين ، فى أواخر سنة ٥٤٠ (مايو ١١٤٦) • وقيل ان القشتالين « عاثوا فى شرقى قرطبة ، واستباحوا المسجد الجامع، وأخذوا ما كان فيه من النواقيس التى كانت رؤوسا للثريات ، ومزقوا المصاحف ، ونزعوا المنار من الصومعة ، وكان من الفضة الخالصة ، وأحرقوا الاسواق »(١٣٢) •

ولكن ابن غانية كان ما زال بقرطبة ، ممتنعا بالجهة الغربية منها ، أو بالقصبة ، صامدا فيها ، يصد النصارى عنها • ورأى القائد القشتالى مهادنته ، وانسحب من قرطبة مصطحبا معه قاضيها ابن حمدين • وظل ابن غانية مستقرا بقرطبة ، أميرا عليها ، مدة سنتين ونصف ، ولكنه لم یر بدا من تسليمها الى والى اشبيلية الموحدى ، براز بن محمد المسوفى ، فى شهر جمادى الثانية من سنة ٥٤٣ (نوفمبر ١١٤٨)(٣٣) ، وكان الموحدون قد استولوا عليها فى شهر شعبان من سنة ٥٤١ (يناير ١١٤٧) ، وبسطوا منها نفوذهم على غربى الاندلس • واغتنم القشتاليون فرصة مغادرة ابن غانية لقرطبة فبعثوا اليها حملة استطاعت أن تدخل المدينة مرة ثانية ، وأغلب الظن أنهم اصطحبوا معهم القاضى ابن حمدين ، ولكنهم لم يهنأوا بالاقامة

فيها طويلا ، اذ أن برازا المسوفى أسرع بايفاد جيش لانقاذ عاصمة الخلافة القديمة ، وأسرع القشتاليون بالجلاء عنها عندما بلغهم هذا النبأ ، وتجنبوا مواجهة الجيوش الموحدية التى دخلت قرطبة ، وثبتت بها الحكم الجديد ، وندب أمير الاندلس الموحدى ، قائد الجيش ، أبا زكريا يحى بن يومور ، لولاية قرطبة ، وظل واليا عليها ست ســنوات ، الى شهر شــعبان ٥٤٩ (نوفمبر ١١٥٤) .

(٤)

عهـــد الموحـــدين(١٣٤)

(٥٤٣ الى ٦١٠ — ١١٤٨ الى ١٢١٣)

رضى أهل قرطبة بحكم دولة الموحدين وأرسلوا الى سلا فى سنة ٥٤٥ (١١٥٠) وفدا منهم وعلى رأسه قاضيهم أبو القاسم بن الحجاج ليبايـــع الخليفة عبد المؤمن ، ويحثه على العبور الى الاندلس لينقذ أهلها المسلمين من خطر المسيحيين • واذا كان عبد المؤمن لم يستجب لهذه الدعوة ، اكتفاء منه بجيوشه الى كانت مرابطة بالاندلس تحت قيادة أميرها براز بن محمد المسوفى ، فانه عين ابنه أبا يعقوب يوسف أميرا على الانددلس ، وألحق به أخاه أبا سعيد عثمان وأوصاهما بالجهاد •

وكان القشتاليون لا يحتلون فحسب مواقع قريبة من ولاية قرطبة ، بل انهم كانوا حلفاء لبعض الاذناب المختلفة من ملوك الطوائف ، مثل سيف الدولة بن هـــود ، سليل أسرة بنى هود ، ملوك سرقسطة ، التى كانت قـــد سقطت فى سنة ٥١٢ (١١١٨) ، والذى سلم فى سنة ٥٣٤ (١١٣٩) آخر أملاكه الى ملك قشتالة ، وعاش بعد ذلك فى كنفه ، واستطاع بامداداته أن يتغلب على جيان ، فى سنة ٥٣٩ (١١٤٤) ، وأن يتطلـــع الى السـير الى قرطبة ، ومثل محمد بن سعيد بن مردنيش ، صاحب بلنسية ومـــرسية ، الذى تطلع هو الاخر الى الاستيلاء على قرطبة بمعونة القشتاليين ، وسير حملة فى سنة ٥٥٤ (١١٥٩) وصلت الى حـــدود الولاية ، ولكن والى قرطبة أبو زيد عبد الرحمن بن يكيت أو ابن تيجيت ، الذى خلـــف ابن يومـــور ، استطاع أن يصد الاعداء • ولم ييأس ابن مردنيش من تحقيق أطماعه ، فعاد فى السنة التالية ووجه حملته ثانية بقيادة صهره ابراهيم بن همشك

واستطاع ابن تيجيت أن يصدها كذلك ، ولكنه قتل اثر المعركة فى كمين نصبه له ابن همشك • وندب الخليفة عبد المؤمن لولاية قرطبة الشيخ أبا حفص عمر ابن يحى الهنتاتى ، واتخذ الخليفة ، فى منتصف سنة ٥٥٧ (منتصف ١١٦٢) ، قرارا بنقل عاصمة الولاية الاندلسية من اشبيلية الى قرطبة ، لانها « موسطة الاندلس » ، وجعل من عاصمة الخلافة القديمة ، مقرا لامير الاندلس • وأصدر أمره بذلك الى ابنه أبى يعقوب يوسف ، فسار هذا اليها مع أخيه أبى سعيد عثمان ، ودخلاها فى شهر شوال (سبتمبر) ، وانتقل اليها معهما كبار الشيوخ والاعيان والكتاب ، « وعمرت قرطبة بعد فقرها ، وأمنت من كربها بالفتنة وذعرها » •

أخذت قرطبة تزدهر من جديد ، وتحتل مركز الصدارة بين مدن الاندلس ، وتسترد بعض ما كان لها من صيت غابر ، اذ أن أبا يعقوب وأخاه أبا سعيد اهتما أكبر الاهتمام باصلاح شئون العاصمة وتعمير قصورها ودورها وأسوارها ، ونشر أسباب الامن والطمأنينة فى ربوعها • وعاد الى قرطبة الرخاء ، كما عاد اليها كثير من أهلها الذين كانوا غادروها فى فترات المحن والثورات • وبعد ذلك بأشهر ، فى المحرم سنة ٥٥٨ (ديسمبر ١١٦٢) ، استدعى الخليفة ابنه أبا يعقوب ، وانفرد السيد أبو سعيد عثمان بأمارة الاندلس ، وكانت قواعد الاندلس الاسلامية قد خضعت معظمها لحكم الموحدين ودخل أهلها فى طاعتهم ، عندما توفى الخليفة عبد المؤمن فى شهر جمادى الاخرة من السنة نفسها (مايو ١١٦٣) ، وخلفه ابنه محمد ، ولكنه خلع بعد شهر ونصف ، وبويع أبو يعقوب يوسف بالخلافة فى شهر شعبان (يوليو) •

امتنع أمير الاندلس أبو سعيد عن مبايعة أخيه أبى يعقوب ، وظل ما يقرب من سنتين متخلفا عن مبايعته ، ولكن أبا يعقوب استرضاه ،

واستدعاه الى مراكش ، واستقبله فيها بالترحاب ، وأعلن أبو سعيد بيعته ، وقدم لاخيه فروض الطاعة ، فى شـهر رجب سـنة ٥٦٠ (مايو ١١٦٥) ٠ ووصلت الى الامير أبى سعيد وهو فى مراكش أنباء تهديد ابن مـردنيش لقرطبة وتطلعه مرة أخرى للاستيلاء عليها ، فأسرع بالعودة الى عاصمتـه ووجه قواته لمهاجمة ذلك الغادر فى معقله بمرسية ، وانتصرت الجيوش الموحدية انتصارا كبيرا على قوات ابن مردنيش ٠

غادر أبو سعيد قرطبة عائدا الى مراكش فى ذى القعـدة من السنة التالية (أغسطس ١١٦٦) ، وندب الخليفة أبو يعقوب فى أواخر سنة ٥٦٣ (١١٦٨) أخاه أبا اسحاق ابراهيم لولاية قرطبة وأمارة الاندلس ٠ وكان ما زال ابن مردنيش يهدد العاصمة،فاتجهت الجيوش الموحدية فى شهررجب من سنة ٥٦٦ (فبراير ١١٧١) نحو مرسية وحاصرتها حصارا محكما ، بلغ من ابن مردنيش معه اليأس مبلغا مات على اثره فى شهر رجب مـن السنة التالية (فبراير ١١٧٢) ، وانهارت دولته بموته ، وزال خطره على قرطبة ٠

وكان الخليفة أبو يعقوب قد أعد جيشا كبيرا بعزم الجهاد وعبر به الى الاندلس فى شوال من سنة ٥٦٦ (يونيه ١١٧١) ، وبعد أن استراح أياما فى اشبيلية اتجه الى قرطبة ، عاصمة الاندلس ، وأقام بها شهرين ، واحتفل بعيد الاضحى بها ، ثم غادرها الى اشبيلية فى أوائل المحرم من سنة ٥٦٧ (سبتمبر ١١٧١) ، وطابت له الاقامة فيها ، وطالت ٠ والظاهر أنه اتخذها قاعدة لولاية الاندلس ، وان كان المؤرخون لم يشيروا الى نقل الدواوين اليها ، مثلما أشاروا الى ذلك عندما أمر هو بنفسه ، قبل ذلك بعشر سنوات باتخاذ قرطبه « مقرا للامـر » « اذ هى موسـطة الاندلس » ٠ وأيا كان الامر ، فان أبا يعقوب أمر باقامة منشئات عظيمة فى اشبيلية ، مثل القصور والبساتين ومجارى المياه ، وخاصة المسجد الجامع الذى استغرق بنـاؤه

ثلاث سنوات ، والذى أقيم فى الموضع الذى كان يشغله المسجد الذى أمر بتشبييده الامير عبد الرحمن الاوسط قبل ذلك بثلاثمائة وخمسين سنة ، ولكن مسجد أبى يعقوب كان أعظم اتساعا وأضخم بناء .

عاد أبو يعقوب الى قرطبة بعد عشرة أشهر من اقامته فى اشبيلية ، فى شوال من سنة ٥٦٧ (يونيه ١١٧٢) ، وحشد جيوشه فيها ، وسار بها منها « فى غزوة مباركة » كان له حظ الانتصار فيها ، ورجع الى اشبيلية مثقلا بالغنائم و « قدمت اليه فيها الوفود لتهنئته بانتصاراته »(١٣٥) . وأقام الخليفة فى اشبيلية أكثر من ثلاث سنوات ونصف ، خرج منها أثناءها فى غزوتين أو ثلاثة ، وأخيرا غادرها الى مراكش فى شهر شعبان من سنة ٥٧١ (فبراير ١١٧٦) ، بعد أن ندب أخاه أبا على الحسين واليا على اشبيلية ، وأخاه أبا الحسن على واليا على قرطبة .

كانت غزوات الخليفة ، واقامته بالاندلس ، ومرابطة جيوشه بها أسبابا جعلت أعداء المسلمين يسكنون ، وأخفت الى حين خطرهم عن مدن الاندلس ، غير أن عودة الخليفة الى مراكش حركت أطماع هؤلاء الاعداء من جديد ، وتوالت غارات القشتاليين على ضواحى قرطبة ، واستطاع هؤلاء ، بمعاونة (ألفونسو الثانى) ملك أراغون ، أن يستولوا على حصن (قونكة ؟) شنتفيلة فى شهر صفر من سنة ٥٧٨ (يونيه ١١٨٢) ، وكان حصنا منيعا يقع فيما بين قرطبة واشبيلية ، وان كانت الجيوش الموحدية قد عادت الى مهاجمته وحصاره ، مما أضطر الغزاة الى اخلائه بعد أشهر من الاستيلاء عليه . ولكن وطأة اغاراتهم اشتدت بعد ذلك ، ونشطت جيوش القشتاليين والاراغونيين وخاصة البرتغاليين . ولم ير الخليفة بدا من العودة الى الاندلس ومواجهة خطر هؤلاء الاعداء .

اتجه أبو يعقوب الى اشبيلية فى منتصف سنة ٥٧٩ (منتصف ١١٨٣)، وفى شهر شعبان (ديسمبر) ، ندب ابنه أبا زكريا يحى واليا على قرطبة ، بدلا من أخيه أبى الحسن على ، وولى قضاءها أبا الوليد بن رشد ، الفيلسوف الكبير • وفى اشبيلية أخذ يعد العدة لغزوة عظيمة ضد مملكة البرتغال التى كان خطرها يزداد • واتجه بجيوشه الكثيفة الى شنترين ، التى كانت فيما سبق معقلا من معاقل غرب الاندلس الكبرى ، والتى كان البرتغاليون استولوا عليها فى سنة ٥٤١ (١١٤٦) ، ولم يستطع أبو يعقوب التغلب عليها ، فأراد الانسحاب منها والاتجاه الى أشبونة ، غير أنه جرح أثناء ارتداده ، واستشهد بعد يومين فى شهر رجب من سنة ٥٨٠ (سبتمبر ١١٨٤) ، وبويع بالخلافة ابنه أبو يوسف يعقوب •

تحركت من جديد اثر وفاة أبى يعقوب أطماع الاعداء وتوالت اغاراتهم على مدن الاندلس ، واستطاع البرتغاليون أن يوطدوا سلطانهم فى غربى الاندلس ، وكانوا قد استولوا على باجة فى سنة ٥٧٤ (١١٧٨) ثم استولوا على شلب فى سنة ٥٨٥ (١١٨٩) ، ثم استطاع القشتاليون فى نفس الوقت ، أن يثبتوا أقدامهم فى وسط الاندلس ويهددوا قرطبة واشبيلية ، وكان هذا حافزا لابى يوسف يعقوب ، المعروف بالمنصور ، على التصدى للجهاد ، فجاز البحر الى الاندلس ، واتجه الى قرطبة ، وحشد قواته بها ، فى شهر جمادى الاول من سنة ٥٨٦ (يونيه ١١٩٠)(١٣٦) ، ورأى أن يهادن القشتاليين ويقصر جهاده ضد البرتغاليين ، ولكن غزوته الى شنترين وأشبونة لم تنجح النجاح الذى كان يطمع فيه ، فرجع الى الى المغرب ليعد العدة لغزوة أخرى ، وعاد الى الاندلس فى السنة التالية ، ونجح فى انتزاع مدينة شلب واستردادها من البرتغاليين فى شهر جمادى الثانية سنة ٥٨٧ (يوليو ١١٩١) ، واشتركت جيوش قرطبة بقيادة واليها

أخيه أبى عبد الله محمد ، فى هذه الغزوة وفى هـذا الانتصـار الذى عاد المنصور من بعده قافلا الى المغرب .

عزم الخليفة ، أبو يوسف يعقوب المنصور على استئناف الجهاد وأعد لذلك جيوشا كثيفة جاز بها الى الاندلس فى شهر جمادى الثانى من سـنة ٥٩١ (مايو ١١٩٥) وبعد أن أمضى أسبوعين فى اشبيلية توجه الى قرطبة ، ونظم جيوشه فيها ، ثم سار منها لمواجهة الجيوش القشتالية التى كانت مرابطة فى قلعة رباح ، والتى قادها (ألفونسو الثامن) لمـلاقاة جيـوش المنصور . ووقعت المعركة أمام حصن الارك فى شهر شعبان (يوليـو) ، وانهزمت الجيوش القشتالية هزيمة نكراء ، وفر (ألفونسو) الى طليطلة ، واستولى المسلمون على الارك ، وبعد يومين استردوا قلعـة رباح ، وعاد المنصور مظفرا الى اشبيلية ، وأقام بها يعد العدة لغزوة أخـرى قادها فى السنة التالية . ثم انه أعد غزوة جديدة فى سنة ٥٩٣ (١١٩٧) ، وسار الى قرطبة ، وأقام بها بضعة أشهر ، وبعد أن تجمعت فيها الجيوش الاسلامية، قادها المنصور الى بلاد قشتالة ، فحاصر طليطـلة ، ثم حاصر مجـريط ، وأخذت جيوشه تخرب القرى والضياع التى حولها ، ثم عاد الى قرطبة فى أواخر رمضان (أغسطس ١١٩٧) . وبعد أن أقام بها فترة قصيرة ، غادرها الى اشبيلية وهنالك أرسل اليه ملك قشتالة يطلب السلم والمهادنة ، فقبـل المنصور أن يهادنه لمدة عشر سنوات ، ثم عاد الى مراكش فى شهر شعبان من السنة التالية ٥٩٤ (يونيه ١١٩٨) ، ووافته المنية فيها بعد أشهر فى ربيع الاول من سنة ٥٩٥ (يناير ١١٩٩) .

بويع ابن المنصور ، أبو عبد الله محمد ، بالخلافة وتلقب بالناصر ، وكان له من العمر سبعة عشر عاما . ومضت سـنوات خفت فيها صـوت قرطبة ، ولم يشر المؤرخون الى أحداثها ، فيما عدا نبذ عن حيـاة بعـض شيوخها وقضاتها ■

ولمـا قارب الناصر الثلاثين من عمره ، عزم على الخروج للجهاد فى الاندلس ، وكان أجل الهدنة التى أبرمها أبوه مع (ألفونسو الثامن) قـد انتهى ، وكان هذا قد نشط من جديد فى الاغارة على مدن الاندلس ، وخرب فيما خرب أراضى جيان • وسار الناصر على رأس جيوشه الى اشبيلية فى أواخر سنة ٦٠٧ (يونيه ١٢١١) ، واتجه منها الى قرطبة ، وكانت هذه آخر مرة شاهدت فيها عاصمة الخلافة أميرا من أمراء المسلمين •

نجحت الجيوش الموحدية فى هذه الغزوة واستطاعت الاستيلاء على شلبطرة واللج ، وعاد الناصر الى اشبيلية ظافرا ، فى ربيع الاول من سنة ٦٠٨ (أغسطس ١٢١١) • وكان هذا الانتصار حافزا لملوك أسبانيا ورجال الدين فيها فى مضاعفة الجهود التى كانوا يقومون بها ، منذ انتصار المسلمين فى موقعة الارك قبل ذلك بسبع عشرة سنة ، لاتحاد المسيحية ضد الاسلام ، وأسفرت تلك الجهود عن اعداد حملة صليبية واسعة ، جمعت بين جيوش قشتالة وأرغون وليون ونبرة والبرتغال ، وانضم اليها فرسان من فرنسا وقطالونيا ، وتحركت تلك الجيوش فى مستهل سنة ٦٠٩ (يونيه ١٢١٢) ، واستولت على قلعة رباح وعلى الارك ، ثم التقت بجيوش الناصر فى شهر صفر (يوليو) عند موضع سمى العقاب ، ودارت الدائرة على الجيـوش الاسلامية ، وانهزمت هزيمة نكراء ، واستطاع الناصر أن يفر بنفسـه ، ولكنه مات بعد سنة ونصف ، « غما وهما » من هذه النكبة ، فى شهر شعبان من سنة ٦١٠ (ديسمبر ١٢١٣) •

(٥)

فترة الاحتضـــار والنهاية(١٣٧)

(٦١٠ الى ٦٣٣ — ١٢١٤ الى ١٢٣٦)

كانت هزيمة المسلمين فى العقاب نذيرا بسقوط دولتهم فى الاندلس ؛ كما كانت بداية لانهيار دولة الموحدين فى المغرب . فقد تعاقب على كرسى الخلافة خلفاء ضعاف صغار ، واشتد التنازع على الخلافة والصراع بين أمراء الاسرة ، وشاع الاضطراب فى أنحاء الدولة ، وعمت الفوضى وقامت الثورات . وكانت قرطبة مسرحا من مسارح هذه المأساة . خلف الناصر ابنه المستنصر وكان عمره ست عشرة سنة ومات بعد عشر سنوات فى شهر ذى الحجة من سنة ٦٢٠ (يناير ١٢٢٤) ، وبويع عم أبيـــه ، السيد عبـــد الواحد ، ابن الخليفة أبى يعقوب يوسف ، وكان السيد أبو العلاء ادريس، ابن أخيه المنصور يعقوب واليا على قرطبة واشبيلية فرفض مبايعته ، وبايع أخاه أبا محمد عبد الله ، الذى كان واليا على مرسية ، وتلقب هذا بالعادل . ونهض ابن عم لهما ، هو أبو محمد عبد الله ، وهو المعروف بالبياسى ، وكان واليا على جيان ، فعمل لحسابه ولشخصه ، وخلع الطاعـــة عن العـــادل ؛ واستعان بملك قشتالة (فرناندو الثالث) ، واستطاع أن يبسط سلطانه على مدينة قرطبة ، وأن يضم الى أملاكه معظم البلاد والحصون الواقعةبين اشبيلية وقرطبة ، وأعلن أهل قرطبة ولاءهم للبياسى ، فى منتصـــف ٦٢٢ (منتصف ١٢٢٥) . ودفع البياسى لملك قشتالة ثمنا لمعاونته حصونا من منطقة قرطبة ، تقع فى شماليها وفى شرقيها مثل شلبطرة وقبالة وبرج الحمة. وحاول البياسى الاستيلاء على اشبيلية ولكن جيوش الموحدين هـــزمته ؛ فارتد الى قرطبة ، واستقبله أهلها بالثورة عليه ، وقتلوه فى شهر ربيـــع

الاول (مارس ١٢٢٦) ، ثم أعلنوا طاعتهم للعادل ، وندب هــذا أخاه أبا العلاء ادريس واليا على قرطبة ، بالاضافة الى ولايته على اشبيلية ، وذلك قبل سفره الى مراكش ، اذ كان أهلها قد بايعوه بعد خلعهم خليفتهم عبد الواحد ، المعروف بالمخلوع ٠

كان (فرناندو الثالث) قد استولى على حصن أندوجر ، وانتهز فرصة هذه الاضطرابات فاستولى على بياسه ومرتش ، وأصبح بفضل انتصاراته هذه ، وبفضل الحصون التى تســلمها من البياسى ، يسيطر على مناطــق الدفاع المحيطة بقرطبة وجيان ٠ ورأى أبو العلاء ادريس أن يهادن ملك قشتالة ، ثم انبرى لاخيه العادل ، فأعلن خروجه عن طاعته ، ودعا لنفسه بالخلافة ، واتخذ لقب المأمون ، فى شــوال سنة ٦٢٤ (سبتمبر ١٢٢٧) ٠ ولم يمض ذلك الشهر حتى كانت دعوته قد لقيت صداها فى مراكش ، فثار أهلها على العادل وخلعوه ثم خنقوه وبايعوا المأمون ، الذى لم يهنأ بالخلافة غير أربع سنوات ، اذ مات فى شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ (أكتوبر ١٢٣٢) ٠ وتوالت الاحداث فى بلاد المغرب واشــتد التنازع والصراع الذى استمر تسعا وعشرين سنة والذى أدى الى انقراض دولة الموحدين بها فى سنة ٦٦٨ (١٢٧٠) ٠

كان المأمون قبل مغادرته اشبيلية الى مراكش فى سنة ٦٢٥ (١٢٢٨) قد ندب لولاية قرطبة أبا الربيع بن أبى حفص ، الذى كان واليا على جيان٠ وفى تلك السنة عاد الى الظهور مغامر من سلالة بنى هود ، ملوك سرقسطة فى عهد الطوائف ، هو محمد بن يوسف بن هود ، واســتطاع أن يتغلب على مرسية ، ويعتقل واليها الموحدى ، ويعلن الولاء للخليفة العباسى المستنصر بالله ٠ وتلقب ابن هود هذا بأمير المسلمين ، معز الدولة ، ثم بالمتوكل على الله ٠ وأدعى عزمه على تحرير الاندلس من الموحــدين والنصــارى على

السواء . وسرعان ما انتشرت دعوته ، وانخدع بها أهل الاندلس ، وانضمت اليه مدن فى شرقى الاندلس ، مثل شاطبة ، ومدن فى وسط الاندلس وجنوبه ، مثل غرناطة ومالقة والمرية . وأعلن أهل قرطبة وجيان الولاء له بعد أن قتلوا واليهما أبا الربيع ، وكذلك أعلن أهل اشبيلية وماردة وبطليوس وخلعوا طاعة الموحدين ، وأصبح ابن هود يسيطر على معظم المناطق التى كانت باقية من الاندلس فى أيدى المسلمين . غير أنه ظهر لابن هود منافس ، هو ابن الاحمر ، محمد بن يوسف بن خميس النصرى ، الذى استطاع أن يقوى وينتزع جيان ثم اشبيلية وقرطبة . ولكن أهل هاتين المدينتين ثاروا على أميرهم الجديد بعد أشهر ، وعادوا الى الدخول فى طاعة ابن هود .

مضت خمس سنوات منذ ظهور ابن هود ، اشتد فيها التنافس والتنازع بينه وبين ابن الاحمر ، وكان أهل قرطبة فيها يتقلبون ولاء وطاعة بين ابن هود وابن الاحمر ، وكان كل منهما يلتمس العون من « الطاغية » ويستنصره على الاخر ، وكانت مملكتى قشتالة وليون قد اتحدتا وأصبح (فرناندو الثالث) ملكا عليهما ، وكان « الطاغية » قد تسلم من ابن هود عدة حصون ثمنا لمعونته ، وكانت قواته تتوغل فى أحواز قرطبة . ثم مضت ثلاث سنوات أخرى كان أهل قرطبة يضطرمون فى صهيل هذه المأساة . وفى شهر ربيع الاخر من سنة ٦٣٣ (يناير ١٣٣٦) حدث أن تمكن من الفرسان القشتاليين من اقتحام أسوار الربض من مدينة قرطبة ، وقيل ان بعض أهلها من المسلمين والنصارى هم الذين ساعدوهم على هذا . وأسرعت فرق أخرى من الفرسان القشتاليين باللحاق بالفريق الاول ورابطت تحت أسوار المدينة ، وفى الشهر التالى كان (فرناندو الثالث) نفسه قد وصل على رأس قواته التى رابطت هى الاخرى حول قرطبة وأخذت تشدد الحصار عليها .

كان ابن هود يعسكر بقواته حينذاك غير بعيد عن قرطبة ، فى استجة، ولكنه لم يتحرك لنجدة المدينة • ولا شك فى أنه كان غافلا أو مستغفلا ، أو مشغولا بتحركات غريمه ابن الاحمر ، وهــو على كل حال لم يحــاول التقدم لنصرة أهل قرطبة فى « قتالهم الشديد » مع « النصارى » • وكذلك لم يحاول ابن هود أن يستدعى ابن الاحمر لمعاونته ، أو أن يمكنه وحده من محاولة نجدة قرطبة ، التى صمدت ستة أشهر • وكان فى هذه الفترة متسع من الوقت لوصول قوات ابن هــود أو ابن نصر ، ولــكن تنــافس الغريمين على مد سلطانهما قد شل حركاتهما ، ودفعهما الى تقديم قرطبة وأهلها هدية سائغة لحليفهما المشترك ، ملك قشتالة وليون •

اشتد الحصار على أهل قرطبة وطال بهم الانتظار ، فأرسلوا وفدا لمفاوضة (فرناندو الثالث) فى تسليم مــدينتهم ، ودخلهــا « الطاغية » منتصرا ، فى يوم الاحد الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة (٢٩ يونيه ١٢٣٦) ، وغادرها فى ذلك اليوم معظم أهلها بنسائهم وأطفالهم وما خف حمله ، وتفرقوا فيما تبقى بأيدى المسلمين من مناطــق الاندلس(١٣٨) •

وسجل التاريخ فى ذلك اليوم نهاية عاصمة الخلافة وانهيار الاندلس جميعا(١٣٩) •

حـواشى الفصـل الرابـع

(١١٠) أهم مراجع هذا العهد هى : صـفحات ٣٨ الى ١٥٢ من الجـزء الثالث « البيان المغرب » لابن عذارى ، وقد نقل فيها هذا المؤرخ رواية ابن حيان فى كتابه « المتين » ، وتنظر صفحات ٢٤ الى ٤٢ و ٧٨ الى ٨٣ و ٢٧١ الى ٢٧٣ و ٣٧٩ الى ٣٨٣ و ٣٩٧ الى ٤٠٤ من القسم الاول من الجزء الاول ، وصفحات ١٢ الى ١٧ من المجلد الثانى من نفس القسم من كتاب « الذخيرة » لابن بسام ، وصفحات ٢٨ الى ٤٠ من كتاب « المعجب » للمراكشى ، وصـفحات ٢٧٧ الى ٢٨٢ و ٣١٥ وما بعدها من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى ، وصفحات ٩٠ الى ١٤٣ من القسم الثانى من « أعمال الاعلام » لابن الخطيب . وتراجـع صفحات ٥٦٩ الى ٦٢٣ من كتاب « دوله الاسلام فى الاندلس » لمحمـد عبـد الله عنـان .

(١١١) تنظر الحاشية رقم (١٠٣) ، صفحة ٦٨ فيما سبق .

(١١٢) تنظر الحاشية رقم (١٠٩) ، صفحة ٦٨ فيما سبق .

(١١٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جزء ثالث ، صفحة ٧٤ .

(١١٤) شرحه ، صفحة ٩٥ .

(١١٥) ينظر ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، صفحة ١٤٠–١٤١ .

(١١٦) المراكشى ، المعجب ، صفحة ٤١ . ويذكر المراكشى أنه عنـدما تسلل الصقالبة من قرطبة ، واتجهوا شرقا ، تقاسم زعمـاؤهم المـدن التى استطاعوا الاستيلاء عليها ، فاختص مجاهد بمدينة دانية ، وخيران بكور المرية ومرسية ، وعامر بن فتوح بكورة مالقة .

(١١٧) قتل يحى هذا فى المحرم سنة ٤٢٧ (نوفمبر ١٠٣٥) ، وخلفه أخوه ادريس فى مملكة مالقة ، وتلقب بالخليفة المتأيد بالله ، ثم مات بعد ٤ سنوات ، وخلفه ابنه يحى ، وتلقب بالقاسم بأمر الله ، ولكنه تنازل عن الخـلافة بعـد أسابيع ، وبويع حسن ، ابن الخليفـة يحى المعتلى بالله ، وتلقب بالمستنصر

بالله ، وذلك فى غضون سنة ٤٣١ (١٠٣٩) ، ولكنه مات مسموما فى جمادى الاول سنة ٤٣٤ (ديسمبر ١٠٤٢) ، وخلفه اخوه ادريس ، ونلقب بالعالى ، وذلك فى جمادى الثانى سنة ٤٣٤ (يناير ١٠٤٣) . وكانت مالقة بيد بنى حمود، وكانت تتبعها سبتة والجزيرة الخضراء وغرناطه ورندة وجيان ، واعترفت المرية كذلك بالخليفة العالى ، وانتهى حكم بنى حمود فى سنة ٤٤٩ (١٠٥٨) .

(١١٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جزء ثالث ، صفحة ١٥٢ .

(١١٩ب) صفحة ٢٧٤ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى.

(١١٩ج) صفحة ١٢٣ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(١١٩د) صفحة ١٩٣ من القسم الخامس من « المقتبس » .

(١١٩هـ) صفحة ١٩٧ من الجزء الاول من القسم الاول من « المغرب » لابن سـعيد .

(١١٩و) صفحة ١٥٣ من الجزء الثانى من « نفح الطيب للمقرى » .

(١١٩ز) شرحه ، صفحة ١٧ . هذا وقد نسب المقرى هذه الرواية الى السيد أبى يحى ابن أبى يعقوب بن عبد المؤمن ، وصحة الاسم ابو زكريا يحى الذى كان واليا على الاندلس وقرطبة من قبل أبيه الخليفة ، أبى يعقوب يوسف ثم من قبل أخيه الخليفة يعقوب المنصور ، تنظر صـفحة ٥٣ ، وصـفحة ٨٤ والحاشية (٤٣) صفحة (٨٩) ، فيما يلى .

(١٢٠) تنظر صفحتا ٥٩و٧٣ فيما سبق وصفحة ١٤٤ فيما يلى من كتابنا هـــذا .

(١٢٠ أ) ذكر الرواه ، وخاصة المقرى فى صفحتى ٣٨٥ و ٣٨٦ من الجزء الاول من « نفح الطيب » وابن عذارى فى صفحة ٢٨٨ من الجـزء الثـانى من « البيان المغرب » ، والمراكشى ، فى صفحة ٢١ من « المعجب » ، أن المنصور كان يجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته ومواطن جهاده ، واحتفظ بهـا لتخلط بماء غسيل « حنوطه » عند موته ، وانه كان يحمل معه فى هذه الغزوات

مصحفا كتبه بخط يده ، وفى رايى أن ابن حيان قد أدرك بلا شك مسئولية ابن ابى عامر فى انهيار الاندلس وحللها تحليلا مفصلا فى تاريخه ، وذلك من عنوان الكتاب الذى أشرت اليه أعلاه وهو « اخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الاحداث الشنيعة » ، تنظر صفحة ٩٨ من القسم الثانى من « أعمال الاعلام » لابن الخطيب .

(١٢٠ب) اهم مراجع هذا العهد هى : ابن عذارى ، « البيان المغرب » ، الجزء الثالث ، صفحة ١٨٥ و ٢٥٥ وما يليهما ، ابن بسام ، «الذخيرة» صفحات ١١٥ وما يليها من المجلد الثانى من القسم الاول ، وابن الخطيب « أعمال الاعلام » ، صفحات ١٢٨ الى ٢٤٠ من القسم الثانى . وينظر كتاب « دول الطوائف » لمحمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٦٠ ، وصفحات ١٣٢ الى ١٤٠ من كتاب « قرطبة حاضرة الخلافة » للدكتور السيد عبد العزيز سالم .

(١٢١) ابن عذارى ، « البيان المغرب » الجزء الثالث ، صفحة ٢٤٤ .

(١٢٢) ومن هؤلاء الملوك ، مجاهد العامرى ، الذى كان يملك **دانية** والجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة ويابسة) ، وظل ملكا عليها الى أن مات ، فخلفه ابنه على ، وظل بها الى سنه ٤٦٨ (١٠٧٦) ، اذ انتزعها منه ابن هود . وكان مبارك ومظفر العامريين يملكان **بلنسية** وشاطبة ، ثم تولاها عبد العزيز بن ابى عامر اربعين سنة الى سنة ٤٥٨ (١٠٦٦) ، اذ انتزعها منه ابن ذى النون . وكان خيران الصقلى يملك **المرية** ، ثم آلت فى سنة ٤١٩ (١٠٢٧) الى زهير ، وبقيت فى حوزته عشر سنوات ، ثم ضمت الى ملك عبد العزيز بن على ، ثم اغتصبها فى سنة ٤٣٣ (١٠٤٢) معن بن صمادح التجيبى ، وظلت بين يديه عشرة سنوات ، ثم وليها ابنه يحى بن معن نيفا وأربعين سنة ، الى سنة ٤٨٤ (١٠٩١) . ويملك **سرقسطة** منذر بن يحى الى أن قتل فى سنة ٤٣٠ (١٠٣٩) ، فملكها عبد الله ابن حكيم سنه واحده ثم آلت الى ابن هود فى سنة ٤٣١ (١٠٤٠) . وكان يملك **لبلة** أحمد الحيصبى ، ملكها من سنة ٤١٣ (١٠٢٢) الى سنة ٤٣٣ (١٠٤٢) ، وملكها بعده ابنه يحى مدة عشر سنوات ، ثم ضمها

المعتضد بن عباد الى املاكه . وكانت **اشبيلية** من نصيب أسرة بنى عبـــاد التى كان عميدها ، ابو الوليد اسماعيل ، يتولى خطة القضاء فيها فى عهد المنصور ابن أبى عامر . ثم عهد ملك قرطبة ، القاسم بن حمود ، بولايتها الى القاضى أبى القاسم محمد بن عباد ، ابن القاضى أبى الوليد اسماعيل ، وكان يعرف بذى الوزارتين ، وسرعان ما سما مركزه بين ملوك الطوائف ، وخلفه فى ملك اشبيلية، فى سنة ٤٣١ (١٠٤٠) ، ابنه أبو عمرو عباد بن محمد ، وتقلب بالمعتضد بالله ، واتسعت مملكته فشملت شلب وشنت مرية ولبلة وولبه وقرمونة وشـــلطيش والجزيرة الخضراء ومناطق غيرها فى غرب الاندلس ، وظل المعتضد ملكا ثمانية وعشرين عاما ، وتوفى فى سنة ٤٦١ (١٠٦٩) ، وخلفه ابنه المعتمد محمد بن عباد. وكان أبو زيد البكرى يتملك من قبل بنى **شلطيش وولبة** . وانفـــرد بملك **البنت** نظام الدولة عبد الله بن قاسم ، وخلفه فى سنة ٤٢١ (١٠٣٠) ابنه محمد ، يمن الدولة ، وظلت هذه المدينة فى أيدى بنى قاسم الى سنة ٥٠٠ (١١٠٧) . وتملكَ **اكسونبة** سعيد بن هارون ، وخلفه ابنه الذى تلقب بالمعتصم ، ثم ضمت هـــذه المملكة الى اشبيلية فى سنة ٤٤٩ (١٠٥٧) . وكان يملك **شلب** أحمد بن جراح وتلقب أولا بمؤيد الدولة ، ثم اتخذ لقب ملك الملوك ، ولكن أهل مدينته قتلوه ، وآلت شلب الى بنى مزين ، ثم استولى عليها المعتضد فى سنة ٤٥٥ (١٠٦٣) . وتملك **سبته** ، كما أشرنا من قبل ، بنو حمود ، تولاها المستنصر حسن بن على ابن حمود الى أن توفى فى سنة ٤٣١ (١٠٤٠) ، ثم خلفه ابنه يحى الذى قتل بعد سنتين . وكانت **مالقة والجزيرة الخضراء** ، كما أشرنا فى الحاشية (١١٧) بأيدى بنى حمود كذلك . وكان سليمان بن محمد بن هـــود يتملك **الثغر الاعلى** ، لارده وقلعة أيوب ووشقة وتطيلة ، ثم تملك سرقسطة ، وظل ملكا عليها الى أن مات فى سنة ٤٣٨ (١٠٤٧) ، وخلفه ابنه المقتدر الذى اضاف دانية الى مملكته ، وظل ملكا الى سنة ٤٧٥ (١١٨٢) . وكان يملك **غرناطة واستجة** حبوس بن عاكش ثم ابنه باديس حبوس الصنهاجى . وكان يملك **بطليوس وشنترين والثغر الجوفى** ابن الافطس ، تولى ملكها بعد وفاة صاحبها سابور ، وظل ملكا عليها الى سنة ٤٣٧ (١٠٤٦) ، فتولاها بعده ابنه المظفر محمد ، صاحب المؤلف الكبير المعروف

بالمظفرى . وملك **طليطلة** ثم **بلنسية** بنو ذى النون ، وآلت فى سنة ٤٢٦ (١٠٣٥) الى المأمون يحى ، الذى استطاع أن يضخم مملكه ، ولكن ابنه القادر يحى ، الذى خلفه فى سنه ٤٦٧ (١٠٧٥) ، سلم طليطلة الى (ألفونسو السادس) (الادفونش) ملك قشتالة وليون ، فى منتصف المحرم سنة ٤٧٨ (منتصف مايو ١٠٨٥) ، وكان يملك **قرمونة** اسحاق بن محمد البرازلى ، وضمها بنو ذى النون الى أملاكهم . وكان يملك **طرطوشة** لبيب العامرى ثم مقاتل العامرى ، واستحوذ عليها المقتدر أحمد بن سليمان بن هود . وكان يملك **تاكرنا** وقلعتها رندة ، بنو يفرن ، وكان يملك **موزور** بنو دمر ، وكان يملك **شذونة وأركش** . بنو برنيان أو بنو خزرون ، ثم تملكها المعتضد ابن عباد . وكان يتملك **شنتمرية الشرق** بنو رزين أو بنو الاصلع ، وظلوا يتوارثون ملكها الى أن ضمها المرابطون الى دولتهم فى الاندلس فى سنة ٤٩٧ (١١٠٤) .

وكان هؤلاء الملوك يتنافسون فى الالقاب السلطانية والخلافية ، ومن القابهم هذه ، المتأيد والمؤتمن والمستعين والمستنصر والعالى والظافر والمهدى والمعتصم والسامى والمستظهر والمنصور والمستعلى والمأمون والمظفر والناصر والمقتدر والموفق والرشيد والمعتد والمعتمد والمعتلى والموفق والواثق والقادر والقائم ، ومنها ، ذو الوزارتين ، وذو الرياستين ، وذو السابقتين ، وذو السادتين ، ومنها عماد الدولة وعمد الدولة واقبال الدوله ومعز الدولة وعز الدوله وحسام الدولة ويمن الدوله ونصير الدولة وسيف الدولة وتاج الدولة ومؤيد الدولة وحبر الدولة ونظام الدولة وناصر الدولة ، وغيرها من القاب المجد والسلطان .

(١٢٣) قيل عن أبى الحزم جهور بن جهور هذا انه ظل بعد توليه أمر قرطبة « يؤذن على باب مسجده ، ولم يتحول من داره » وأنه « أحسن ترتيب الجند ، فتمشت دولته » ، ينظر ابن سعيد ، المغرب ، جزء أول ، ص ٥٦ . وذكر المقرى أن جهور هذا دبر أمر قرطبة « بالجد والعزم ، وضبطها ضبطا أمن خائفها » ، نفح الطيب ، جزء أول ، صفحة ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(١٢٤) تنظر الحاشية (١٢٢) فيما سبق .

(١٢٥) استطاع (فرذلند) أن ينتزع قلبرة فى سنة ٤٣٧ (١٠٤٦) ، وانتزع قلمرية فى سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) . وكان المقتدر أحمد بن هود ، صاحب سرقسطة والثغر الاعلى ، يحالف ملك جليقية ، (فرذلند) ، ويحرضه على ابن ذى النون، ملك طليطلة . ونجح ابن ذى النون فى أن يهادن (فرذلند) ويحالفه ، ويحرضه بدوره على ابن هـــود .

(١٢٦) تأهب (ألفونسو السادس) ، بعد استيلائه على طليطلة ، لحصار سرقسطة ، وأعلن عن نواياه فى غـــزو امارات الاندلس وانتزاعهـــا من أيدى المسلمين ، وكان قد سبق للجيوش القشتاليه أن انتزعت قورية وأحرقت ضواحى اشبيلية . اما موقعة الزلاقه ، فأهم المراجع عنها هى : ابن الخطيب ا أعمال الإعلام ، القسم الثالث صفحات ٢٤٢ وما يليها ، وكتاب « الحلل الموشـــية فى ذكر الاخبار المراكشـية » لمؤلف مجهول ، طبعـــة تونس ١٣٢٩ صـــفحات ٤٣ وما يليها ، وحسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٧٣ الى ٢٨٨ .

(١٢٧) كانت ممالك الاندلس فى سنة ٤٨٤ــ١٠٩١ موزعـــه بـــين ملوك الطوائف على النحو التالى : المعتمد بن عباد فى اشبيلية ، وابنه الفتح المأمون فى قرطبة ، وابنه الراضى يزيد فى رندة ، والمظفر عبد الله بن بلقين ، أو بلكين بن باديس ، فى غرناطة ، والمستنصر تميم بن بلقين فى مالقة ، والمتـــوكل عمـــر بن الافطس فى بطليوس ، والمعتصم محمد بن معن صمادح فى المرية ، والقـــاضى جعفر بن جحاف فى شاطبة وبلنسية الى أن تملكها السيد القنبيطور (لذريق) فى سنة ٤٨٨ــ١٠٩٥ واستردها المرابطون كما سنرى بعد سبع سنوات ، وكان المستعين بالله أحمد بن هود يستولى على سرقسطة وتطيلة وقلعة ايوب ووشقة وغيرها من المدن ، وكانت طرطوشة ولاردة بيدى المنذر التجيبى .

(١٢٧ب) أهم مراجع عصر المرابطين هى : « المعجب » لعبـــد الواحـــد المراكشى ، و « الحلل الموشيه » لمؤلف مجهول ، و « الانيس المطـــرب بروض القرطاس » لابن ابى زرع الفاسى ، و « البيان المغرب » ، الجـــزء الثالث لابن عذارى ، و « كتاب العبر » ، الجرء السادس ، لابن خلدون ، و « نفح الطيب »، الجزء السادس ، للمقرى و « أعمال الاعلام » القسم الثانى ، لابن الخطيب .

(١٢٨) ذكر أحد المؤرخين ، خطأ ، أن والى قرطبة فى تلك السنة كان ابا يحى بن رواده . وكان أبو بكر يحى بن تاشفين والى قرطبة قد اشترك بجيوشه فى سنة ٥١٢—١١١٨ فى نجدة سرقسطة التى كان ملك قشتالة قد استولى عليها فى مستهل تلك السنة (صفر — مايو) ، كما كان قد سير قواته فى السنة التالية للاشتراك مع جيوش اشبيلية فى حملة ضد ملك أرجون ، (ابن رذمير) ، ولكن جيوش المسلمين هزمت بالقرب من كتندة أو قتندة .

(١٢٩) وكانت سرقسطة بعد ولاية سادسة قبل سقوطها فى سنة ٥١٢—١١١٨ .

(١٣٠) تتابع الولاة على قرطبة منذ غادرها أبو بكر يحى بن تاشفين مع الامير على فى سنة ٥١٥—١١٢١ . ولا يحدد المؤرخون أسماء هؤلاء الولاة جميعا ، والذى ذكره بعضهم أن والى قرطبه فى سنة ٥٢٠—١١٢٦ كان اسمه أجداى ، وكان عبد الله ابن نينغمر واليا عليها فى سنة ٥٢٤—١١٣٠ ، وكان واليها فى السنة التالية عبد الله بن ابى بكر المعروف بابن قنونة . وهو ابن أخت الامير على بن يوسف ، ويذكر المؤرخون أن الزبير بن عمرو اللمتونى كان واليا على قرطبة فى اواخر سنه ٥٢٧—١١٣٣ ، وانه توجه على رأس قوة من الفى فارس للانضمام الى أبى زكريا يحى بن غانيه ، والى بلنسية ومرسية ، لنجده افراغه التى كان (الفونسو) ملك قشتالة يهددها . وكان الظفر نصيب الجيوش الاسلاميه ، وهلك (الفونسو) فى المعركه فى رمضان ٥٢٨ — يوليو ١١٣٤ . والظاهر أن الامير تاشفين كان ينتدب بعض الولاة على قرطبة عند تغيبه عنها ، وتنقله بين عواصم الاندلس ، فى غرناطة واشبيلية وبلنسية .

(١٣١) ذكر المؤرخين أن الامير تاشفين كان يصلى الجمعة بمسجد قرطبة الجامع يوم ٢٥ صفر سنة ٥٢٩ (١٤ ديسمبر ١١٣٤) ، وهو اليوم الذى وثب فيه رجل فى الجامع على قاضى قرطبة أحمد بن خلف التجيبى وطعنه طعنة قاتلة ، كما ذكروا أنه انتصر كذلك فى الغزوة الاولى ، فى سنة ٥٢٨ ، وهى التى قتل فيها (ألفونسو) ، ملك قشتاله .

(١٣٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ، عن عنان « المرابطون » ، قسم أول ، ص ٣١٤ و ٣١٥ .

(١٣٣) التجأ ابن غانية بعد ذلك الى غرناطة ومات بها بعد شهرين .

(١٣٤) أهم مراجع عصر الموحدين هى : كتاب « تاريخ المن بالامامة » لابن صاحب الصلاة ، و « المعجب » للمراكشى ، و « الحلل الموشية » لمؤلف مجهول، و « الانيس المطرب بروض القرطاس » لابن أبى زرع ، وكتاب « العبر » ، الاجزاء الرابع والسادس والسابع ، لابن خلدون ، و « الاحاطة » لابن الخطيب ، و « نفح الطيب » ، الجزء الثانى ، و « أزهار الرياض » للمقرى ، و « الحلة السيراء » لابن الابار ، والجزء الرابع من « البيان المغرب » لابن عذارى ، و « تاريخ الدولتين الموحدتين والحفصية » للزركشى ، وينظر القسم الثانى من « عصر المرابطين والموحدين » لعبد الله عنان .

(١٣٥) صفحة ٥١٧ من كتاب « المن بالامانة » لابن صاحب الصلاة .

(١٣٦) انتهز أبو يوسف فرصة اقامته القصيرة فى قرطبة لزيارة أطلال مدينة الزهراء ، واستذكار مجدها الغابر ، وأمر اثناء تجواله بانزال التمثال الذى كان ما يزال منصوبا على احدى بواباتها .

(١٣٧) أهم مراجع فتره الانهيار هى : الجزء الرابع من « البيان المغرب » لابن عذارى ، صفحة ١٥٦ وما يليها ، والقسم الثانى من « أعمال الاعلام » لابن الخطيب ، صفحة ٢٧٦ الى ٢٨٦ ، والجزء الرابع من « العبر » لابن خلدون ، صفحة ١٦٩ وما يليها ، و « الحلة السيراء » لابن الابار ، صفحة ٢٤٢ ، و « الانيس المطرب بروض القرطاس » لابن أبى زرع ، صفحة ١٨٣ ، و « الروض المعطار » للحميرى صفحة ١١٨ .

(١٣٨) كان سقوط قرطبه مأساة أليمه فى التاريخ الاسلامى ، وقد تحاشى المؤرخون العرب ذكر تفاصيلها ، واكتفوا بتسجيل هذه المأساة فى جملة واحدة تشمل التاريخ . بل ان ابن سعيد لم يذكر هذا التاريخ واكتفى بقوله « حصرها

اذفنش النصرانى ملك طليطلة فأخذها وخـرج منها أهلها والله يعيـدها بمنه وحوله » ، المغرب ، الجزء الاول ، صفحة ٥٧ .

(١٣٩) كان سقوط قرطبة اعلانا بسـقوط بقية عـواصم الاندلس ، اذ اتخذها (فرناندو) مركزا للغزو ، وأصبحت بقية مناطق الشرق والجنوب تحت رحمة جيوشه . واستطاع (فرناندو) أن يستولى ، برضاء ابن الاحمـر على أرجونة فى سنة ٦٤٢ـ١٢٤٤ ، وعلى جيان فى السنة التالية ، ثم استولى ، بمعاونة ابن الاحمر كذلك ، على اشبيلية فى ٥ شعبان ٦٤٦ (٢٣ نوفمبر ١٢٤٨). وكانت بلنسية والمناطق القريبة منها قد سـقطت فى سـنة ٦٣٦ (١٢٤٤) ، استولى عليها (خايمى) ، ملك أرجوان ، وكذلك استولى على دانية فى سـنة ٦٤١ (١٢٤٤) ، ثم على لقنت ، وسقطت شاطبة فى سـنة ٦٤٤ (١٢٤٦) ، وأخيرا سقطت مرسية فى سنة ٦٦٤ (١٢٦٦) . ولم يتبق بأيدى المسلمين بعد ذلك غير غرناطة ، التى استطاع ابن الاحمـر أن يكون منها دولة ظلت قائمـة مائتين وخمسين سنة أخرى .

الفصـــل الخـــامس

مـــدينة قـــرطبة

١ ــ مدن قرطبة وأسوارها وأرباضها وأبوابها .

٢ ــ الرصـــيف والقنطـــرة .

٣ ــ بسـك قـــرطبة وخططها .

٤ ــ قصر الخـــلافة .

٥ ــ المنى والمنتزهـــات .

٦ ــ دور قـــرطبة وحوانيتها وحماماتها .

٧ ــ مســـاجد قرطبة ومقابرها ومكاتبها .

الفصـــل الخـــامس

مـــدينة قـــرطبة

أفرد المقرى الباب الرابع جميعه من مؤلفه الضخم « نفح الطيب » فى « ذكر قرطبة » ، ونقل معظم وصفه ورواياته عن ابن حيان وأبى عبيد الله البكرى وابن بشكوال وابن سـعيد وابن غالب وابن حـوقل والادريسى وغيرهم من الرحالة والمؤرخين(١) ، ولكنه لم ينقل شـيئا من أهم كتـاب وضع فى تاريخ قرطبة ووصفها وخططها ، ألا وهو الكتاب الذى ألفه أحمد الرازى ، والذى فقد ، للاسف الشديد • وبالرغم من افاضة المقرى فى بابه، فان المعـلومات التى أوردها تعتبر ضئيلة ، غير وافيـة للمؤرخ والعـالم والاثرى •

وأقدم ما وصل الى أيدينا مما كتبه المؤرخون والرحالة العـرب عن قرطبة هو وصف الاصطخرى لها فى كتابه « مسالك الممالك » ، ووصف ابن حوقل فى كتابه « صـورة الارض » • وهـذا الوصـف مقتضب ، اكتفى الاصطخرى فيه بذكر أن قرطبة كانت مدينة الاندلس العظمى ، وجعلها فى وسط الاندلس ، تتفرع منها الطرق الى سائر جهاته ، وقدر المسافات الى هذه الجهات كلها ابتداء من قرطبة (١ب) • أما ابن حوقل فقد بدأ وصفه بقوله انها أعظم مدينة بالاندلس « وليس بجميع المغرب لهـا شبية ، ولا بالجزيرة والشام ومصر يدانيها فى كثرة الاهل ، وسعة رقعة ، وفسـحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق »(١ب) •

وبالاضافة الى ضآلة المعلومات التى نقلها الينا المقـرى وغـيره من المؤرخين ، فان معالم قرطبة قد تغيرت فى العهد المسـيحى ، وخاصـة فى القرن التاسع عشر ، تغيرا كبيرا ، وصغرت مساحتها(٢) ، وهدمت معظم آثارها ، بحيث يصعب استنتاج معالمها القديمة من معالمها الحالية ، غير أن

الابحاث التى أجراها الاستاذ (رافئيل كاستيخون) ، منذ سنوات ، قد مكنته من التعرف على بعض خطط المدينة • ثم ان مقارنة روايات المؤرخين عن قرطبة بمعالم بعض المدن المغربية القديمة التى ما زالت تحتفظ بطابعها العربى الاسلامى ، وخاصة مدينة فاس ، قد ساعدت على سد بعض النقص فى روايات هؤلاء المؤرخين والرحالة ، ويسرت رسم المعالم العريضة لقرطبة ، وتحديد تطورها فى تاريخها الاسلامى • ومن حسن الحظ أن قلب المدينة ، وأجل بناء فيها ، ما زال قائما ، وهو مسجدها الاعظم •

أغلب الظن أن اسم قرطبة القديم كان (كردبا) وهو الذى ما زالت تعرف به فى اللغة الاسبانية • وأول ما نعرفه بالتحقيق عن قرطبة هو أن الامبراطور الرومانى (مارسيلوس) احتلها فى سنة ١٥٢ قبل الميلاد ، وأنه جعل منها عاصمة اسبانيا السفلى • وظلت المدينة تابعة للدولة الرومانية الى أن احتلتها قبائل الواندال ، ثم أصبحت تابعة للامبراطورية البيزنطية فترة من الزمن ، الى أن احتلها الملك الفيزيقوطى (ليوفيجيلد) فى سنة ٥٧١ ، وأخذت المدينة تفقد بعد ذلك من أهميتها ، وأصبحت تابعة لطليطلة ، عاصمة القوط • فلم تكن غير مدينة صغيرة ، عند الفتح الاسلامى ، وكانت قنطرتها منهارة ، وأسوارها منقورة ، مما يدل على فقرها وقلة شأنها حينذاك •

(١)

مـــدن قرطبة وأسوارها وأبوابها وأرباضها

تقع قرطبة فى ساحل متسع على الضفة الشمالية من النهر الكبير • أو الوادى الكبير ، وعلى سفح جبل العروس • ولم يحدثنا المؤرخـــون عن الاسباب التى حملت والى الاندلس ، الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، على أن يختارها فى سنة ٩٧ (٧١٦) مقرا للولاية ، وينتقل اليها من اشبيلية ، التى كانت عند الفتح الاسلامى ، أكثر منها رخاء ، وأوفر عمرانا ، وأعظم بنيانا(٢ب) • ولكن قرطبة كانت أفضل موقعا بالنسبة للولاية الجـــديدة ، فانها كانت تنتصف القطاع الجنوبى من الاندلس ، وكانت طرق المواصلات والتجارة تنبع منها الى جميع أطرافه ، وتنصب فيها من جميع مدنه ، وقد وصف الاصطخرى أربعة عشر طريقا رئيسيا من هذه الطرق(٢ج) • ويبدأ تاريخ عمران قرطبة من أيام واليهـــا السمح بن مالك الخـــولانى ، الذى استأذن الخليفة عمر بن عبد العزيز ، حوالى سنة ١٠٠ (٧١٩) ، أن يجدد بناء أسوارها ، وجددها بالاجر ، وأن يتخذ حجارتها فى اصلاح قنطـــرتها الرومانية واعادة بنائها(٣) •

وكانت أحواز قرطبة ، أو ضواحيها ، « تنتهى فى الغرب الى أحواز اشبيلية ، وتأخذ فى الجوف ستين ميـــلا ، وتختلط أحـــوازها فى الشرق بأحواز جيان »(٣ب) ، أما فى الشمال ، فكانت تقف عند مرتفعـــات جبـــل العروس • وكانت هذه الاحواز مليئة « بالبساتين والزيتـــون والقـــرى والحصون والمياه والعيون » تحيط بالمدينة « من كل جانب »(٣ج) •

روى الادريسى أن قرطبة كانت تشمل خمس مـــدن ، بين المـــدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز ، وكل مدينة مستقلة بنفسها ، والمدينـــة

الثالثة هى الوسطى ، وفيها القنطرة والجامع • فلعله قصد بذلك أن قرطبة، وهى المعروفة بالمدينة ، وهى الوسطى ، كانت محاطة بأربع مدن تابعة لها ، ممتدة منها وحـولها ، وهى الشـقندة ، جنـوبا ، عبر الوادى الكبير ، والزاهرة ، شرقا ، والرصافة ، شمالا ، والزهراء ، غربا(٤أ) •

أما « المدينة » ، فكانت محاطة بأسوار ، تلك التى كانت منقورة عند الفتح ، منهارة أجزاء منها ، فأعيد بناؤها ، أو على الاصح عمـرت مـرة ، باللبن ، أو الاجر ، فى عهد السمح بن مالك الخـولانى ، ومرة ثانيـة ، بالحجارة ، فى عهد الامير عبد الرحمن الداخل ، فى سـنة ١٤٩ (٧٦٦) • وكانت حدود تلك المدينة ترسم شكلا قريبا من المستطيل ، طـول قاعدته التى تمتـد من شرق الى غـرب ، فى محاذاة الضفـة الشمالية للنهـر ، حوالى كيلو متر واحد ، وهى الضلع الجنوبى لهذا المستطيل ، وطول الضلع المقابل له ، شمالى المدينة يبلغ نحو ذلك ، وطول كل من الضـلعين الشرقى والغربى ، الممتدين من النهر شمالا ، حوالى كيلو متر ونصف(٤) • وكان يتوسط تقريبا كلا من الضلعين الجنوبى والشمالى باب ، هو باب القنطرة ، « الى جهة القبلة » ، وباب الهدى ، شمالا(٥) • وكان يصـل بين هـذين البابين الشارع الرئيسى للمدينة ، وهو الذى كان يعرف باسم « المحجة الكبرى » • وكان للمدينة خمسة أبواب أخرى ، بابان مفتوحان فى السور الشرقى ، كان اسم أقربهما الى النهر البـاب الجـديد(٦) ، وكان اسم الثانى ، شمالى هذا السور ، باب ابن عبد الجبار(٧) • وكانت الابواب الثلاثة الاخرى مفتوحة فى السور الغربى ، وكان اسم أقربها الى النهـر باب اشبيلية ، أو باب العطارين ، وكان اسم أقربها الى الشمال باب عامر القرشى ، وكان يتوسط هذين البابين باب الجوز ، الذى كان يعرف كـذلك بباب بطليوس(٩) ، أو باب المدور(١٠) • وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر

قد أمر ، فى سنة ٣٠١ (٩١٣) بتدعيم هذه الابواب جميعا ، وتزويد كل منها بباب من الداخل ، فأصبحت مزدوجة(١١) • وكان بهذه المدينة ، المعروفة بالعتيقة ، أو القصبة ، ربضان ، أحدهما يشمل منطقة المسجد الجامع ، والاخر يشمل المنطقة الشمالية ، وكان لكل ربض عريف ومحارس(١٢) •

كانت هذه هى حدود المدينة فى عهدها الاسلامى الاول ، فلما أصبحت عاصمة للدولة ، وتدفق اليها الناس ، وأخذ عدد سكانها يزداد اطرادا ، أخذت تمتد هى كذلك خارج الاسوار ، فتكونت المدينة الثانية ، المسماة بالجانب الشرقى ، وفتح فى السور الشرقى باب تتصل به المدينتان ، هو باب الجزيرة الخضراء ، وهو الباب الذى جدده الحكم بن هشام ، فى أواخر القرن الثانى (أوائل القرن التاسع الميلادى) • وكذلك امتد بين المدينتين سوق مشترك ، كان يسمى شبلار ، أو تسبلار ، وكان يقع على جانبى الطريق الذى سيؤدى الى المدينة الزاهرة • وما زالت مدينة قرطبة الحالية تحتفظ فى هذه المنطقة باسم « الشرقية » ، وبأسماء شوارع مقتبسة من أسماء عربية تؤدى معان تجاريه ، مثل القيصرية والجزارة والخياطة والجلود والكتب • وكان بهذه المدينه الشرقية ستة أرباض ، أو أحياء ، وهى ربض شبلار ، وربض فرن بريل ، وربض البرج ، وربض منية عبد الله ، وربض منية المغيرة ، وربض الزاهرة(١٣) • ولعل سورا أقيم حول هذه المدينة الثانية ، وكانت مفتوحة فيه أبواب ثلاثة ، هى : باب عباس وباب الفرج ، وباب الحديد •

واتسعت المدينة كذلك شمالا • ونشأت مدينة ثالثة ، وهى الرصافة،كانت تتصل بالمدينة الاولى بباب الهدى ، وكان بها ثلاثة أرباض : ربض باب الهدى أو اليهود ، وربض مسجد أم سلمة(١٤أ) ، وربض الرصافة • وكان فحص السرادق ، الذى سنشير اليه فى فصل آخر ، يمتد فى الشمال

الشرقى من هذه المدينة • ومدينة الرصافة هذه هى التى أنشأها عبد الرحمن الداخل ، وجعل له فيها منية(١٤) •

أما المدينة الرابعة ، وهى الغربية ، والمعروفة بالجانب الغربى ، فقد امتدت بصفة خاصة بعد بدء عبد الرحمن الناصر فى لنشاء مدينة الزهراء فى سنة ٣٢٥ (٩٣٦) ، واتصلت المبانى بينها وبين حدود المدينه العتيقة ، وأصبح هذا الجانب الغربى من قرطبة أكثر مدنها اتساعا وازدحاما بالسكان ، وكان يشمل تسعة أرباض : ربض الرقاقين ، وربض مسجد الشفاء ، وربض مسجد سرور ، وربض بلاط مغيث ، وربض حمام الالبرى ، وربض السجن القديم ، وربض الروضة ، أو الروض المحدث ، وربض مسجد الكهف ، وربض حوانيت الريحانى ، وتدل بعض أسماء هذه الارباض على أنها كانت قائمة منذ عهدى الحكم بن هشام وعبد الرحمن الاوسط(١٥) •

والمدينة الخامسة هى المعروفة بشقندة ، على الضفة القبلية من النهر ، جنوبى المدينة العتيقة ، وكانت تعرف كذلك بالربض القبلى ، وهو الذى أمر الحكم بن هشام بهدمه و « تعطيله » فى سنة ٢٠٢ (٨١٨) ، وأوصى خلفاءه بأن يبقوه مهجورا ، فلم يعمر قط فى العصور الاسلامية ، وأقيمت فيه بساتين ومقبرة كبرى عرفت بمقبرة الربض(١٦) • وكان بالقرب من هذا الربض ، ربض آخر يعرف بمنية عجب ، محظية الامير الحكم بن هشام •

وقد اتفق المؤرخون والرحالة على أن عدد الارباض التى كانت تشملها مدينة قرطبة العظمى واحد وعشرون ربضا ، ولم يعتبروا منية عجب ربضا قائما بذاته • وقد ذكرنا أن المدينة الوسطى كانت تشمل ربضين اثنين ، وأن الجانب الشرقى كان يشمل ستة أرباض ، وكانت الرصافة

تضم ثلاثة أرباض ، وكانت الزهراء والجانب الغربى تشمل تسعة أرباض، أما فى الجنوب فكان يقع ربض واحد وهو الربض القبلى ، ومجموع هذه الارباض واحد وعشرون(١٦ب) . وكانت الزاهرة تقع فى الجانب الشرقى، والزهراء ، فى الجانب الغربى ، وروى المؤرخون أن العمران اتصل بين هذين الطرفين وبين قلب المدينة ، حتى أنه « كان يمشى فيها بضوء السرج المتصلة عشرة أميال »(١٦ج) .

كانت المدينة الوسطى محاطة بأسوار فتحت فيها الابواب السبعة التى أشرنا اليها(١٧) ، وكانت العناية بتجديد هذه الاسوار وتقويتها و « اتقانها » متصلة . وروى ابن حوقل أن هذه الاسوار كانت حصينة مبنية بالحجارة ، وأنه دار بها « غير يوم فى قدر ساعة »(١٨) . وأغلب الظن أن الجانب الشرقى كان محاطا بأسوار كذلك متصلة بأسوار المدينة ، وكان يتخللها من الجهة الشرقية الابواب الثلاثة التى ذكرناها فيما سبق . وكان يحيط بالمدن الثلاث المتطرفة ، وهى الرصافه والجانب الشرقى والجانب الغربى ، خندق ، أو حفير ، كان يعتبر خط الدفاع الاول عن قرطبة ، وقد « أغنى النهر العظيم عن مد الحفير عليها من الجهة القبلية »(١٩) . واختلف فى طول هذا الخندق ، كما اختلف فى طول الاسوار . وقد أسفرت الابحاث الحديثة عن تحديد طول أسوار المدينة الوسطى بأربعة كيلو مترات(٢٠) ، أما الخندق ، الذى أمر بحفره الحكم الربضى فى سنة ١٨٩ (٨٠٥) ، فهو فى قول البكرى كان يمتد ثلاثين ألف ذراع ، أى ما يعادل أربعة عشر كيلو مترا ، وفى قول ابن الخطيب ، سبعة وأربعين ألف ذراع وخمسمائة ذراع ، أى ما يعادل اثنين وعشرين كيلو مترا وخمسمائة مترا ، وهذا الرقم أقرب الى الحقيقة(٢١) .

(٢)

الوصيف والاســواق والقنطــرة

كان يمتد على الجانب الايمن من النهر ، فى محاذاة السور الجنوبى للمدينة الوسطى ، وعلى جانب رأس القنطرة الشمالى ، طريق مرصــوف يعرف بالرصيف ؛ يبدأ من الطرف الشرقى ، قــرب باب شبلار ، وينتهى عند « المصارة » و « المصلى » فى الطرف الغربى بعد أن يمر « بالســوق العظمى » التى كانت بالقرب من باب اشبيلية ، الذى سمى كذلك ببــاب العطارين ، لان سويقة العطارين فى تلك السوق العظمى كانت ، لا شك ، ملتصقة به • وكانت هناك سوق عظمى أخرى تبدأ من الرصيف عند المسجد الجامع وتمتد الى الجانب الشرقى من المدينة •

وكان هذا الرصيف يحد الاسوار القبلية لقصر الخلافة ، وكان منظر عبور السفن لنهر الوادى الكبير ، متجهة نحــو اشبيلية أو قادمــة منها ، لا يجتذب العامة فحسب على الرصيف ويضيف الى بهجة النزهة عليه ، بل كان كذلك يثير ابتهاج نزلاء القصر ، حتى أن الامير عبد الرحمن الاوسط كان يطلب فى علته أن يحمل الى شرفة من قصره تطل على الرصيف ليستمتع فيها برؤية السفن الجارية فى النهر(٢١أ) •

وكانت المصارة ، وكانت ميدانا منبسطا فسيحا ، وكانت تقام فيــه صلاة الاعياد وصلاة الاستسقاء ، وقد أمر عبد الرحمن الناصر ، فى سنة ٣٠٧ (٩١٩) باقامة محراب جديد لمصلى المصــارة هــذا(٢١ب) • وأقيم بالربض ، بعد هدمه ، مصلى آخر مكتوفا ، كان يستخدم كذلك لصــلاة الاستسقاء (٢١ج) •

وكان هذا الرصيف يؤدى بعد ذلك الى « الارهاء » المقامة على سدة

النهر ، وهى التى كانت تعرف بأرحاء ناصح(٢٢) • وكان بالقرب من هذه السدة ناعورة مشهورة ، ترفع مياه النهر(٢٣) •

وكان يصل المدينة العتيقة بالربض القبلى وشقندة قنطرة عظيمة أقيمت فوق نهر الوادى الكبير ، أنشئت فيما يقال فى عهد الامبراطور الرومانى أغسطس فى القرن الاول قبلا الميلاد ، وكانت هذه القنطرة ، كما رأينا ، منهارة عند الفتح الاسلامى ، لا أقواس بها ولا شرفات ، لم يتبق منها غير «أرجلها وأسافلها»(٢٣ب) ، فعمرها وجدد بناءها الوالى السمح بن مالك الخولانى ، فى سنة ١٠١ (٧٢٠) • وقد حرص الامراء والخلفاء منذ ذلك التاريخ على اصلاحها ورمها وتجديدها ، فقد كانت أهميتها كبيرة بالنسبة لعمران قرطبة •

وكثيرا ما كان يشتد فيضان النهر ، أو يعظم السيل ، فتتصدع القنطرة أو تهدم أجزاء منها ومن « الرصيف » ، فكان الامراء والخلفاء يأمرون باصلاحها وتدعيمها ، ومثل ذلك ما حدث فى سنة ١٦١ (٧٧٨) اذ لما تولى هشام بن عبد الرحمن الامارة « نظر فى بنيان قنطرة قرطبة ، وأنفق فى اصلاحها أموالا عظيمة ، وتولى بناءها بنفسه » ، وكان ذلك فى سنة ١٧٢ (٧٨٩)(٢٤) • ومن ذلك أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أمر باصلاحها مرتين ، فى سنتى ٣٣١و٣٣٤ (٩٤٢ و ٩٤٥) ، وأن الخليفة الحكم المستنصر بالله أمر بتدعيمها وتقوية أرجلها ، فى سنة ٣٦٠ (٩٧٢) ، وكان يراقب تلك الاعمال بنفسه ويستحث العمال على تعجيل اتمامها(٢٤ب) •

وما زالت هذه القنطرة قائمة الى اليوم(٢٥) ، ويبلغ طولها ٢٢٣ مترا وعرض سطحها قريبا من ثمانية أمتار وارتفاع عقودها فوق الارجل قريبا من خمسة عشر مترا وهى على الهيئة التى وصفها بها المؤرخون والرحالة

العرب « قنطرة عظيمة من أجل البنيان قرارا وأعظمه خطــرا » ، عــدد أقواسها سبعة عشر قوسا ، « بين القوس والقوس خمسون شبرا ، ولها ستائر من كل جهة تستر القامة ، وارتفاعها من موضــع المشى الى وجــه الماء ، فى أيام جفوف الماء وقلته ، ثلاثون ذراعا ، وتحت القنطرة ، يعترض الوادى برصيف مصنوع من الاحجار والعمد الجافية من الرخام »(٢٥أ) ٠

(٣)

سكك قرطبة وخططها

تغيرت معالم قرطبة ، كما ذكرنا ، ولم يتبق من آثارها ، بالاضافة الى القنطرة العظمى ، غير مسجدها الاعظم ، الذى سنخصص له الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وآثار مدينة الزهراء ، التى سنفرد لها الباب التالى من هذا الجزء لاول ، وآثار البابين ، العطارين أو اشبيلية والجوز أو المدور ، وآثار مسجدين ، وأغلب الظن أن أحدهما كان المسجد المعروف بمسجد أبى عثمان(٢٥ب) ، وآثار زقاق من أزقة المدينة يقع قريبا من جوف المسجد الجامع . غير أنه يمكن الاستدلال مما وصل الى أيدينا من كتب الرحالة والمؤرخين على بعض المعالم الاخرى . ومن أهم هذه المعالم المحجة العظمى ، أو السكة الكبرى ، التى كانت تتوسط المدينة العتيقة ، وتقطعها ابتداء من باب الهدى شمالا الى باب القنطرة جنوبا ، وكانت هنا لك سكة كبرى أخرى ، تبدأ من باب عبد الجبار ، شرقا ، وتنتهى عند باب عامر غربا ، وتخترق قطاعا من المحجة العظمى ، أى أن هاتين السكتين كانتا تلتقيان وتمتدان مرحلة معا ، فى وسط النصف الشمالى من المدينة العتيقة . وكانت تتفرع من هاتين السكتين الازقة والدروب التى تتكون منها مجموعات من الحومات والحارات ، وكانت هذه المجموعات الاخيرة تسمى عادة باسم المسجد المشهور بها . وكان للدروب « عسس » يطوفون بها طول الليل ، ويعرفون « بالدرابين » ، وكان لها « أغلاق تغلق بعد العتمة »(٢٥بأ) . وقد وصلت الينا بعض أسماء سكك قرطبة وحاراتها ، متناثرة فى كتب المؤرخين ، مثل محجة فحلون ، والزقاق الكبير وأزقة دحيم والشبلارى وزرعة ، ودرب أبى الاصحاب ، ورحبة عازرة ، ورحبة ابن

درهمين وسويقة القومس(٢٥ج) • كما وصلت الينا أسماء أحياء مثل أحياء الخندق والقناطير والقرق والرقاقين والنشارين وغدير ثعلبة وحـوانيت الريحانى(٢٥د) •

وكانت تلك المحجة العظمى عند بدايتها جنوبا تتسع كالميدان وتتوسط قصر الخلافة والمسجد الاعظم ، وهما متقابلان ، المسجـد شرقا والقصر غربا ، وكان يصل بينهما ساباط ، كما سنرىٰ ، أو جسر « يسـلك الناس تحته ••• الى باب القنطرة »(٢٦) •

(٤)

قصـــــر الخـــــلافة

كان قصر الخلافة يقع فى الركن القبلى الغربى من المدينة ، ويتصل بأسوارها فى تلك المنطقة • وكانت مساحته أعظم بكثير من مساحة القصر القائم حاليا • وأغلب الظن أنه كان بموقعه ، عند الفتح الاسلامى ، دار رومانية اتخذها الولاة دارا للامارة • فلما تولى عبـــد الرحمن الداخـــل الامارة بنى فى أواخر عهده قصرا جديدا وسكنه فى ســـنة ١٦٨ (٧٨٤) ، ثم دفن فيه عند موته بعد ذلك بأربع سنوات • وأخذ أمراء قرطبة من بعده يزيدون فيه ويجملونه ، وقد جدده عبد الرحمن الاوسط تجديدا شاملا ، وأقام عليه شرفات فخمة لها نوافذ عريضة زجاجية ، يطل الجالس فيهـــا على منظر رائع للمدينة ، وبنى عبد الرحمن الاوسط لنفسه داخل القصر قصرا جديدا لسكناه ، وأقام نافورة أمام باب مـــن أبوابه ليســـتقى منها المـــارة ، وبنى مجلسا للوزراء وآخر للغناء ، كذلك الناصر ، الذى أنشأ مدينة الزهراء ، وجعل فيها قصورا لمقامه ولمقر خـــلافته ، فانه عنى بقصر قرطبة عناية فائقة حتى قيل انه لم يبق فيه «بنية الا وله فيها أثر محدث ، اما بتجديد أو بتزييد »(٢٧) • وأصبح هذا القصر معروفا بالقصر الكبير ، وظل مقرا للحكم فى عهود الامارة والخلافة والملوك والولاة • وكان كذلك مدفنا للامراء والخلفاء ، منذ دفن فيه عبـــد الرحمن الداخـــل ، وكانت مقبرتهم تعرف بالروضة(٢٨) •

كان القصر الكبير فسيحا ، وكان دور أســـواره ألـــف ومائة ذراع ، الاسوار التى تحصر المبانى ، أما البساتين والرياض الشاســـعة فـــكانت لا تحدها أسوار مشيدة ، وكانت فسحتها أضعاف فسحة القصر ، ومع ذلك

فان قاعاته ومجالسه ومناظره كانت تغطى مساحة تزيد عن عشرة أفـدنة ، وهذا وحده يدل على عظمته • وقد تبين من اجراء حفـائر ومجسـات فى المنطقة من صحة هذه المساحة • أما نظام هذا القصر وتفاصيل بنائه ، فانا نرجو أن نحظى قريبا بالعثور على وصف له لمؤرخ شاهـد عيان ، مثـل الرازى أو ابن حيان •/ والمعروف أنه كان يتكون من قسمين ، القسم الاول الشرقى ، يضم مجالس الديوان ، وفى القسم الثانى ، الغربى ، بنيت مقار سكنى الخليفة والحرم ، ويتصل هذا القسم بالحدائق والرياض • وكانت مبانيه مجموعة من القصـور الفخيمة وردت أسمـاء بعضـها فى روايات المؤرخين ، ومنها : الكامل والمجدد والحير (أو الحائر) والزاهى والمعشوق والمبارك والرشيق والتاج والبديع والسرور ، وهى قصاب عالية السمو ، منيفة العلو(٢٩) •

وأنشأ عبد الرحمن الناصر داخل أسوار هذا القصر قصرا لسكناه أسماه دار الروضة ، وكان اسم الروضة يطلق كذلك على مقـبرة أمراء بنى أمية ، فى داخل القصر نفسه • واستعان عبد الرحمن الناصر برجال الهندسة والبناء ، الذين كانوا يعملون فى بناء مدينة الزهراء ، على التحايل على جلب المياه الجارية لتموين قصر الخلافة ، ثم أنشأ فى سنة ٣٠٦ (٩١٨) نافورة للسقاية من الرخام أمام باب القصر المواجـه للمسجـد الجامـع(٣٠) • وأصبحت تجرى فى القصر « المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبـة على المسافات البعيدة » ، والتى تحمل البناة والمهندسون « المؤن الجسيمة حتى أوصلوا الى القصر الكريم وأجروها فى كل ساحة من ساحاته ، وناحية من نواحيه ، (وروض من رياضه) ، فى قنرات الرصـاص تؤديها منهـا الى المصانع صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز ، والفضـة الخالصـة ، والنحاس المموه ، الى البحيرات الهائلة والبرك البـديعه ، والصـهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة »(٣١) •

وكان للقصر عدة أبواب ، أهمها وأكثرها شهرة باب « السدة » ، الذى كان مفتوحا فى الاسوار القبلية ، أمام « الرصيف » ، وكان يعلوه « السطح المشرف » • ومنها باب العدل ، وهو الذى فتحه الامير عبد الله ابن محمد ، فى الاسوار الشرقية ، على المحجة العظمى ، مواجها للمسجد الجامع وبالقرب من الساباط ، وكان الامير « يقعد فيه للناس يوما معلوما فى الجمعة ، ليباشر أحوال الناس بنفسه ، ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترا » • وكان لهذا الباب « باب حديد قد صنع مشرجبا » حتى « لا يتعذر على ضعيف ايصال بطاقة يده ، ولا انهاء مظلمة على لسانه »(٣٢) • وباب العدل هذا هو الذى أنشأ عبد الرحمن أمامه الفوارة التى أشرنا اليها منذ قليل • ومن أبواب القصر باب الجامع وباب الحديد وباب الجنان وباب الوادى • وكان مفتوحا فى أسوار القصر الشمالية بابان ، باب يسمى باب قورية ، وباب يسمى باب الصناعة ، وكان هذا الباب يؤدى الى دار الصناعة(٣٣) •

وقد أجريت منذ سنوات قليلة حفائر فى المنطقة الغربية الشمالية من القصر ، وكشف عن حمام فاخر ، يجرى العمل حاليا على تعميره واعادته الى أصله • ولم تنشر بعد نتائج هذا الكشف وتفاصيله وصوره • ويحوى هذا الحمام على قاعات عديدة ، يتوسطها فناء مقبوب ، مربع طول كل ضلع من أضلاعه أربعة أمتار تقريبا ، وتتوسطه نافورة ، لعلها أعدت بحيث ينبثق منها الماء ساخنا •

وقد كشف منذ سنة واحدة ، أى فى سنة ١٩٧١ ، على آثار من القصر ، فى الجهة الغربية الشمالية ، وعلى آثار باب من أبوابه ، وما زالت أعمال الكشف جارية لتحديد تخطيط هذه المنطقة ، ونظامها •

(٥)

المـــنى والمنـــتزهات

كان القصر الكبير هـو القصر الرسمى أو قصر الامارة والخـلافة ولكنه كانت بقرطبة وضواحيها قصور أخرى أنشأها الامراء والخلفـاء ، وهى التى كانت تسمى منى أو منيات ، وأهمهـا ، وأكثرها شهرة ، منيـة الرصافة • وكانت أول منية أنشئت بقرطبة ، أنشأها الامير عبد الرحمن الداخل ، وأسماها هذا الاسم الشرقى الذى يثير ذكريات تتصل بجـده الكبير هشام بن عبد الملك الذى بنى فى الشام الرصافة بالقرب من الرقة • وكانت رصافة قرطبة أول الامر منتزها من منتزهاتها ، تقع شماليها ، وبها أنشأ عبد الرحمن الداخل قصرا وأحاطه بالبساتين التى نقل اليها « غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية » ، حتى نمت وأينعت « أشـجارا معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه »(٣٤) • ويروى غير واحد من المؤرخين قصة النخلة الوحيدة التى زرعها ذلك الامير بالرصافة وأبيات الشعر التى فيهـا(٣٥) •

وكان بقرطبة عدة من المنى منها منية نصر ، كانت بالقرب من الربض القبلى ، بناها أبو الفتح نصر ، فتى عبد الرحمن الاوسط ، ووهبها الامـير بعد موت فتاه هذا للمغنى زرياب • وهذه المنية هى التى استضاف فيها عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٣٨ (٩٤٩) سفارة امبراطور بيزنطة ، ثم اتخذها ولى العهد ، الامير الحكم مسكنا له(٣٦) • ومن المنى التى كانت مشهورة منية قنطيش ، كانت فى الجانب الغربى ، أنشأها الامير محمـد بن عبـد الرحمن وأحاطها بالبساتين ، ومنية عبد الله ، أنشأها الامير عبـد الله بن محمد على شاطىء الوادى الكبير ، غير بعيد من المصارة ، وكانت تحيط بها الحدائق والبساتين ، يصعد اليها الماء من النهر بواسطة نواعير ، ولهـذا

سميت منية الناعورة • وقد جددها الامير عبــد الرحمن وعنى بتجميلها وزخرفتها واصطفاها لنفسه قبل أن يشرع فى بناء مدينة الزهراء ، واستمر تعلقه بها بعد ذلك ، حتى أنه كان ، بعد تلقبه بالخلافة ، يتردد عليها كثيرا ويطيل الاقامة بها(٣٧) •

وبنى الامير الحكم الربضى فى الجانب الغربى ، وعلى ضفاف الوادى الكبير ، منية لحظيته عجب ، وأسماها باسمها • وكان لكل أمير منية ، روى المقرى عن «قلائد» الفتح بن خلقان أنه كان بقرطبة قصر بناه أمير من أمراء بنى أمية يسمى قصر الدمشق ، « أبدع بناؤه ، ونمقت ساحاته وفناؤه » ، وكان الامراء يتخذونه « ميدان مراحهم ومضمار أفراحهم »(٣٨) • ونهج عظماء قرطبة نهج أمرائهم ، فبنوا كذلك لانفسهم منى • ومن بينها منية جعفر ، أو « المنية المصحفية » ، أنشأها جعفر المصحفى ، ذو الوزارتين فى عهد عبــد الرحمن النــاصر ، ومنية الزبــير ، ومنية المغــيرة ، ومنية العقاب(٣٩) ، ومنية « دار الرمان » التى وهبها صاحبها الفتى الكبير درى للخليفة الحكم •

وبنى المنصور بن أبى عامر « المنية العامرية » ، بالقرب من مــدينة الزهراء ، وكانت منية فخمة محاطة بالبساتين والرياض ، ثم انه ، لما صعد نجمه ، بنى مدينة الزاهرة ، وانتقل اليها سنة ٣٧٠ (٩٨١) ، وكان بدء العمل فيها قبل ذلك بثلاث سنوات ، وكانت موصــوفة « بالقصور الزاهــرة » و « القصور الباهرة » • وكانت بطرف قرطبة الشرقى على ضفاف الوادى الكبير(٣٩ب) • ويستدل من روايات المؤرخين أنها كانت فخيمة البناء ، وأن المنصور حشد لبنائها وزخرفتها الصناع والفعلة ، على غرار ما فعله عبد الرحمن الناصر فى الزهراء ، وجلب اليها « الالات الجليــلة » • وقيل ان قصره فيها كان يضاهى روعة قصر الخلافة ، وأن المبانى امتدت فيها ، الى

جوار « الدواوين والاهراء » ، وابتنى الوزراء والكتاب والقواد « كبار الدور وجليـلات القصـور » ... « حتى اتصـلت أرباضـها بأرباض قرطبة »(٤٠) . ولم يقنع المنصور بمدينته « الباهرة » ، فانه بنى غيرها منية « السرور » ومنية « أرطانية » ومنية « ذات الواديين » ، وكانت من « المنشئات البديعة والمنتزهات الفخمة »(٤١) .

وكان للامراء ، غير هذه المنى ، منتزهات خارج قرطبـة ، من بينها « القصر الفارسى » و « المرج النضير » أو « مرج الخز » ومنها « فحص السرادق » الذى سـيأتى ذكره فيما بعـد(٤١ب) ، و « منتزه السـد » و « منـتزه المنـبر » و « الارحاء » و « النـواعـير » و « الـروض الشريف » و « وادى العقيق » و « حير الزجالى » . وقد أنشدت الاشعار والموشحات فى الاشادة بهذه المنتزهات(٤٢) .

واستمرت العناية بتجميل قرطبة بعد عهد الخلافة ، والمعـروف أن الموحدين أقاموا منشئات عديدة أثناء اقامتهم بقرطبة ، ومنها الامير أبو زكريا يحى بن أبى يعقوب بن عبد المؤمن ابنتى قصرا على ضفاف الوادى الكبير كانت له شرفات مقامة على عقود تحملها دعامات منغمسـة فى مياه النهر(٤٣) .

(٦)

دور قرطبة وحـــوانيتها وحماماتها

هذا ملخص بعض ما نعرفه عن قصور قرطبة ومنياتها ومنتزهاتها ، أما دورها ، فقد روى أنها أحصيت فكان عددها « مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دارا وسبعة وسبعين دارا ، وهـــذه دور الرعيـــة ، وأما دور الاكابر والوزراء والكتاب والاجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلاثمائة دار ، سوى مصارى الكراء والحمامات والخانات ، وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون حانوتا »(٤٤) • أما عدد الحمـــامات «المبرزة للناس» فقد روى المقرى،أن عددها كان يتراوح بين سبعمائة حمام وتسعمائة حمام وأحد عشر حماما (٤٤أ) •

وكان بقرطبة دور مشهورة بوظائفها ، ســـنشير اليها فى الفصـــول التالية ، مثل دار الصدقه ، التى أنشأها الخليفة المستنصر بالله ، فى الجانب الغربى من المسجد الجامع ، « واتخذها معهدا لتفريق صـــدقاته » ، ودار الطراز والخلع ، التى أنشأها الامير عبد الرحمن الاوسط ، وكانت تقـــع فى « مقدمة السوق العظمى » غربى قصر الخلافة ، وهذا الامير هو الذى أنشأ كذلك دار السكة والنقود ، وكان مـــوقعها بالقـــرب من باب العطارين ، فى الجانب الغربى (٥١) • وكان بقرطبة كذلك دار للصناعـــة ، فى الطـــرف الغربى الشمالى من قصر الخلافة ، وكان بها دار للرهائن بالقرب من باب القنطرة ، وكان ينزل بها الرهائن ويحتجز فيها المستعربون من أهل طليطلة الذين طالمـــا كانوا يثيرون الفتن(٥٠) ، وذلك غير دار المحبس التى كانت قريبة من قصر الخلافة ، ولعلها كانت تسمى كـــذلك « الدويرة » ، وغـــير « المطبق » الذى كان داخل هذا القصر •

(٧)

مساجد قرطبة ومقابرها ومكاتبها

روى المؤرخون أنه كان بقرطبة « ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدا ، منها بشقندة ثمانية عشر مسجـدا » • وقال ابن حيان « أن عدة المساجد عند تناهيها فى مدة ابن عامر ألف وستمائة مسجدا(٤٥أ)• وذكر الحميرى أن « عدد المساجد بقرطبة على ما أحصى وضبط أربعمائة واحدى وتسعون مسجدا »(٤٥)•وليس فى هذا العدد الذى أورده الحميرى مغالاة ، اذ أنه ؛ بالرغم من المعـلومات الضئيلة المتناثرة فيما وصـل الى أيدينا من كتب التاريخ ، فقد أمكن التعـرف على أسماء أكثر من خمسـة وأربعين مسجدا من هذه المساجـد فى كتاب « الصـلة » ، وحـده ، لابن بشكوال ، وهذا يرجـع كثيرا ، ان لم يؤكد ، صـحة الرقم الذى أورده الحميرى • وهذه المساجد هى : أبان والاسكندرانى والامير هشام وبدر وبنفسج وحكيم وابن حيوية وأبى خالد وسعد بن خلـف ورحـلة الشتاء والصيف وحوانيت الريحانى والزجاجين وسريج وسعيد بن‌عامر والسقاء والسيدة وابن شرحيل والصينى وابن ضرغام والضيافة وابن طوريل وعبد وأبى عبيدة وأبى علاقة وابن أبى عيسى القاضى وعين طار والغازى وغالب والمسجد الذى عند أصحاب الغرابيل بالسوق وغـزلان السيدة وفائـق والقلاسين وأبى لواء أو الزيتونة والليث ومسرور ومتعة ومكرم أو مكرم ومنطر ومهران والنخيل والنخيلة ونفيس وابن وضاح وياسر ويوسـف ابن بسيل(٤٦) • وكان بعض هذه المساجد صغير الحجم ، ولـكن بعضها كان كبيرا ، مثل مسجد أبى عثمان الذى استخدمه عبد الرحمن الاوسـط مسجدا جامعـا أثنـاء قيـامه بزيادة المسجـد الاعظم فى سـنة ٢١٨ (٨٣٣)(٤٧) •

وكان بكل مقبرة من المقابر مسجد أو أكثر • وتعددت المقابر بقرطبة ولعل أقدمها كانت مقبرة الربض العتيقة ، وفى الربض القبلى الذى أقيمت فيه فيما بعد مقبرة ثانية كان يطلق عليها أحيانا روضة الصـلحاء • ومن المقابر المشهورة مقبرة الرصافة أو مقبرة فرانك ، ولعلهما كانا مقبرتين ، ومقبرة أم سلمة ، زوجة الامير محمد بن عبد الرحمن ، وكانت تقع فى أول زقاق الزراعين ، شمالى المدينة ، ومقبرة متعة ، جارية الحكم بن هشام ، ومقبرة مؤمرة ، جارية عبد الرحمن الاوسط ، ومقابر بلاط مغيث وعامـر وبنى العباس الوزير والكلاعى أو كلع وابن خازم والسقاية وحلال ونجم وقريش ، وكانت هذه المقبرة الاخيرة تسمى كذلك رياض بنى مـروان • وكان لليهود مقبرة قريبة من مقبرة حلال(٤٨) •

ولم تكن المدارس قد أنشئت بعد ، ولم يرد فيما بين أيدينا من كتب المؤرخين ، ذكر لمدرسة ، وكانت المساجد هى مـراكز الدرس والتعليم • ولكن ابن عذارى يروى فى أحداث سنة ٣٥٦ (٩٦٧) أن الحكم المستنصر بالله اتخذ « المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القـرآن حـوالى المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليهم المرتبات ، وعهد اليهم فى الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وعـدد هـذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا ، منها حوالى المسجد الجامع ثلاثة ، وباقيها فى كل ربض من أرباض المدينة »(٤٩) •

حـــواشى الفصـــل الخـــامس

(١) أهم مراجع هذا الفصل هى : المقرى ، نفح الطيب ، الجزء الثانى صفحات ٤ الى ٢١٢ ، ياقوت ، معجم البلدان .

الجزء الرابع صفحات ٥٨ الى ٦١ ، وأبو الفدا .

تقويم البلدان ، صفحات ١٧٦ الى ١٤٩ ، والحميرى ، الروض المعطار ، صفحة ١٥٦ وما بعدها .

والادريسى .

وابن الخطيب .

وليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، الجزء الثالث ، صـــفحات ٣٥٦ الى ٣٨٣ ، وللمؤلف نفسه ، أسبانيا الاسلامية فى القـــرن العـــاشر ، صفحات ١٩٥ الى ٢٣٦ ،

ورفائيل كاستيخون ، « قرطبة فى عهد الخلافة »

ويجد القارىء عرضا مفصلا لتاريخ قرطبة قبل الفتح الاسلامى فى كتاب للمؤلف نفسه ، عنوانه « دليل قرطبة » .

(١ أ) صفحات ٣٧ الى ٤٦ من كتاب « مسالك الممالك » للاصطخرى .

(١ب) صفحة ١١١ من القسم الاول من كتاب « صـــورة الارض » لابن حوقل .

(٢) كانت مساحة قرطبة فى عصر الخلافة تبلغ على الاقل ثمانية أضعاف مساحه المدينة الحالية ، وتقدر بنحو خمســـين مليونا من الامتار المربعـــة ، أو ما يقرب من ١٢٥٠٠ فدانا ، نظر : ليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا ، الجزء الثالث ، صفحة ٣٦٢ .

(٢ب) تنظر صفحة (٦) والحاشية (٨) فيما سبق من كتابنا هذا .

(٢ج) صفحة ٤٦ من « مسالك الممالك » ، وصفحتا ١١٦ و ١١٧ من « صورة الارض » لابن حوقل .

(٣) اصيبت عمارة القنطرة بعد ذلك ، مرة فى عهد هشام ، ١٧٢ — ١٨٠ (٧٨٨ — ٧٩٦) من جراء الفيضان ، وأمر هشام باصلاحها وتولى بنفسه الاشراف على هذا الاصلاح . وانتزع قوس منها من جراء الفيضان كذلك فى سنة ٢٨٨ (٩٠١) ، وأصيبت بأضرار جسيمة فى سنة ٣٣١ (٩٤٢) ، ، هدمت فى سنة ٣٣٤ (٩٤٥) ، ثم جددت عمارتها مرارا بعد ذلك .

(٣ب) صفحة ١٥٨ من الروض المعطار للحميرى .

(٣جـ) صفحة ٧ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٤ أ) الادريسى ، « نزهة المشتاق » ، صفحة ٢٠٨ الى ٢١٢ (٢٥٦ — ٢٦٣) .

(٤) ذكر المقرى عن غالب فى صفحة ١٤ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » أن طول السور ومحيطه ١٤ ميلا .. وفى هذه الرواية كثير من المغالاة لان ابن الخطيب ذكر فى صفحة ١٢١ من (أعمال الاعلام) ان طول الخندق ٤٧٥٠٠ ذراعا ، أو ١٦ ميلا الا سدسا ، وسنرى أن هذا الخندق كان يبلغ طوله خمسة اضعاف طول الاسوار .

(٥) كان باب القنطرة يسمى كذلك باب الوادى ، وأحيانا باب الجزيرة ، أو باب الصورة ، لانه قيل انه كان يعلوه تمثال يمثل العذراء ، وهى التى كانت تعتبر صاحبة قرطبة ، ابن عذارى ، البيان ، الجزء الثالث ، صفحه ١٤ . وكان باب الهدى يسمى كذلك باب اليهود ، وذكر المقرى فى صفحة ١٤٨ من الجزء الاول أن أهل قرطبة « استقبحوا قولهم باب اليهود فقالوا باب الهدى » ، وذكر فى صفحة ١٣ من الجزء الثانى أن هذا الباب كان يسمى باب ليون أو باب طليرة ، وهذا الاسم الاخير محور من اسم مدينة رومانية كانت تقع شمالى قرطبة ، وكان بها دير للراهبات ، ينظر ، كاسبخون ، وليفى بروفنسال ، تاريخ اسبانيا الاسلاميه ، جزء ثالث ، صفحة ٢٢٥ .

(٦) سمى الباب الجديد لانه جدد فى عهد الحكم بن هشام (الربضى) ، ويسمى فى بعض الكتب ، باب الحديد ، وكان يعرف كذلك بباب سرقسطة .

(٧) كان باب ابن عبد الجبار يسمى كذلك باب طليطلة وباب رومية .

(٩) فتح باب عامر فى عهد عبد الرحمن الناصر ، سنة ٣٠٣ (٩١٦) وما زال باب الجوز قائما يحفظ بقاعدتيه العربيتين ، وهو كذلك ما زال معروفا باسم المدور ، ولكن بناءه جدد مرارا وخاصة فى سنة ١٨٠٢ .

(١٠) جاء ذكر هذه الابواب جميعا فى صفحة ١٣ من الجزء الثانى من نفح الطيب للمقرى الذى نقلها عن ابن بشكوال ويستدل مما جاء فى صفحة ٥٦١ من التكملة لابن الابار ، أنه كان بقرطبة بابان آخران ، باب عباس وباب الفرج .

(١١) ينظر صفحة ١٤٠ من الجزء الثانى وصفحة ٣٦٩ من الجزء الثالث من « تاريخ أسبانيا الاسلامية » لليفى بروفنسال .

(١٢) تنظر صفحة ١٠٣ من اعمال الاعلام لابن الخطيب ، نشر ليفى بروفنسال . هذا وقد جعل المقرى للمدينة الوسطى ربضا واحدا أسماه ربض المدينة العتيقة ، صفحة ١٣ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » .

(١٣) جاء فى صفحة ١٦٣ من كتاب الصلة لابن بشكوال أنه كان يوجد بهذه المدينة الشرقيه حى ، أو ربض ، اسمه النجارين ، وفى صفحة ٨٧ ، حى أخر اسمه جدير ثعلبة . وجدير بالذكر أن أرباض المدن الاربعة ، المحيطة بالمدينة العتيقة ، تحمل معظمها أسماء منيات كانت مشيدة من قبل أن أحاط بها العمران واصبحت ارباضا .

(١٤ أ) يسمى هذا الربض ايضا ربض قوت راسة ، كما جاء فى صفحة ١٠٣ من « أعمال الاعلام » لابن الخطيب ، وقد حسبهما (كاستيخون) ربضين اثنين وذلك فى صفحتى ٢٩٣ و ٢٩٤ من مقاله « قرطبة فى عهد الخلافة » .

(١٤) اغلب الظن أنه كان بموقع منية الرصافة ، قبل بناء عبد الرحمن الداخل لها ، بيوت كان انشأها رزين البرنسى ، وهو أحد زعماء البربر فى عهد الفتح ، وكان بالمدينة الغربيه كذلك مسجد يسمى مسجد رزين .

(١٥) كانت الشفاء محظية لعبد الرحمن الاوسط ، وكان مسرور فتى من فتيانه ، وكان بهذه المنطقة كذلك مسجدان : مسجد عجب ومسجدمتعة انشأتهما محظيتان من جوارى الحكم بن هشام . وكذلك انشأت فى هذه المنطقة بعض جوارى عبد الرحمن الاوسط جملة مساجد منها مسجد طروب ومسجد معمرة .

(١٦) لطخ الحكم الربضى تاريخ قرطبة بالدماء بهدمه هذا الحى السكنى الذى كان عامرا ، واجباره أفواجا من سكانه على الفرار والهجرة ، وروى بعض المؤرخين أن عدد من هاجروا حينذاك بلغ عشرين ألف أسرة .

(١٦ب) جعل المقرى ، فى صفحة ١٣ من الجزء الثانى من « نفح الطيب »، من شقندة ومنية عجب الربضين القبليين ، وجعل المدينة العتيقة ربضا من الارباض الشرقية ، ثم عاد فى الصفحة التالية ، فجعل شقندة « معدودة » من « قصبة قرطبة » .

(١٦ج) صفحة ٢٠٣ من الجزء الرابع من « نفح الطيب » . ويقصد المقرى « بضوء السرج المتصلة » أن المبانى والازقة كانت متصلة على طول تلك الأميال العشرة لانه كان « لكل زقاق سراج معلق » فيه ، تنظر صفحة ٢٠٤ من الجزء الاول .

(١٧) تنظر صفحة ١٣ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(١٨) تنظر صفحة ١١٢ من « صورة الارض » لابن حوقل .

(١٩) تنظر صفحة ١٠٣ من كتاب « أعمال الاعلام » لابن الخطيب ، نشر ليفى بروفنسال .

(٢٠) يتفق هذا الطول مع ما ذكره ابن حوقل من أنه دار « بسورها غير يوم فى قدر ساعة » ، صفحة ١١٣ من « صورة الارض » .

(٢١) تنظر صفحة ٧١ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى، وتراجع الصفحة التى ناقش فيها الاستاذ ليفى بروفنسال هذا الموضوع ، وهى صفحة ٣٨٢ من الجزء الثالث من كتابه « تاريخ أسبانيا الاسلامية » ، وجاء فى

صفحة ١٥٦ من « الروض المعطار » للحميرى أن « دور مدينة قرطبة فى كمالها (اى فى شمولها للمدن الخمس) ثلاثون الف ذراع » .

(٢١ أ) ورقة ١٩٤ أ من القسم الثانى من « المقتبس » لابن حيان ، عن ليفى بروفنسال ، الجزء الثالث ، ص ٣٢٣ (٢) .

(٢١ب) صفحة ١٧٤ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٢١ج) شرحه ، صفحة ١٠٧ ، وصفحتا ١٦٦ و ١٩٩ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٢٢) وتسمى هذه الارحاء كذلك بأرحاء الصوافى ، وبأرحاء كليب . وكان الامير عبد الرحمن الاوسط قد أمر باصلاح هذا الرصيف وتبليطه بالحجارة ، وعمل عليه « سقائف » وأقام فيه « سقابة » ، تنظر صفحة ٩١ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٢٣) وقد انشأ الامير عبد الله بالقرب من هذا الموقع منية سميت بهذا الاسم منية الناعورة .

(٢٣ب) صفحة ٢٦ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٢٤) تنظر صفحتا ٥٦و٦٦ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى . ويروى ابن عذارى فى هذه الصفحة الاخيرة أن بعض الناس تكلم فى ذلك « وقالوا ، انما بناها لتصيده ونزهته ، فحلف حين بلغه ذلك آلا يجوز عليها الا لغزو أو مصلحة » . وأصيبت القنطرة بأضرار فى سنوات ١٨٢ (٧٩٨) و ٢٨٨ (٩٠١) و ٢٩٦ (٩٠٩) و ٣٣١ (٩٤٢) و ٣٣٤ (٩٤٥) و ٣٥١ (٩٦٢) ، ثم أصابها خلل آخر فى سنة ٤٣٩ (١٠٤٧) .

(٢٤ب) تنظر صفحات ٥٨و٦٤و٦٥ من القسم الخامس من « المقتبس » لابن حيان .

(٢٥) جددت هذه القنطرة بعد سقوط قرطبة مرات عديده فى سنوات ١٦٠٢ و ١٧٠٣ و ١٧٠٥ و ١٧٨٠ و ١٨٨٠ . ينظر صفحة ٧٧ من بحث كاستيخون عن « قرطبة فى عهد الخلافه » . وهذا وقد بنى المنصور بن أبى عامر قنطرة ثانية على نهر الوادى الكبير ، « ابدأ ببنائها فى سنة ٣٨٧ ، وفرغ

منها فى النصف من سنة ٨٩ » ، صفحة ٢٨٨ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى . وقد اندثرت هذه القنطرة ، ويذكر كاستيخون ، فى صفحة ٥٠ من بحثه المشار اليه فى هذه الحاشية ، أن آثار هذه القنطرة تشاهد أحيانا عند هبوط مياه النهر ، وتقع بالقرب من موقع الارحاء ، غربى القنطرة العظمى .

(٢٥ أ) صفحة ١٥٨ من « روض القرطاس » للحميرى . وقد نقل الحميرى وصفه عن الادريسى ، ولكنه ذكر خطأ أن عدد الاقواس ١٩ ، فى حين أن الادريسى حددها بسبعة عشر قوسا (صفحة ٢١٢ من « نزهة المشتاق ») ، أما المقرى ، فقد نقل فى صفحة ٢٦ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » عن « مناهج الفكر » أن عدد الاقواس ١٨ ، ولكنه فى نفس الصفحة ، وفى صفحة ٩٥ من الجزء نفسه ، ذكر أن عددها ١٧ .

(٢٥ب) تنظر صفحتا ٢٨٢و٢٨٣ من « قرطبة فى عهد الخلافة » .

(٢٥بآ) صفحة ٢٠٤ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٢٥جـ) تنظر صفحات ١٨٧ و ١٩٦ و ٢٤١ و ٢٤٤ و ٢٤٦ و ٢٥٤ و ٢٥٧ و ٢٧٥ و ٤٨١ و ٥٦٢ من « الصلة » لابن بشكوال ، وصفحة ١٨١ من الجزء الاول من « علماء الاندلس » لابن الفرضى .

(٢٥د) تنظر صفحات ٢٤٣ و ٢٩٥ و ٣٠٤ و ٢١ و ١٦٠ و ٣١ و ١٩٥ من كتاب « الصلة » لابن بشكوال . وكانت بقرطبة أحياء مكتظة بالعمال ، يتجمع فيها ارباب كل صناعة ، فكان فيها أحياء الطرازين والخياطين والسقاطين ، وغير ذلك ، واتخذ كل حى اسمه من اسم جماعتهم . وما زالت مدينة قرطبة اليوم كما سبق أن ذكرنا تحتفظ بعض شوارعها فى الحى الشرقى بأسمائها العربية .

(٢٦) صفحة ١٥٦ من « الروض المعطار » للحميرى .

(٢٧) صفحة ٢٢٤ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى . ويذكر المقرى كذلك فى صفحة ٩٨ أن الامير محمد بن عبد الرحمن بنى « بنيانا كثيرا فى القصر الكبير والمنى الخارجة عنه » .

(٢٨) يحاول الاستاذ كاستيخون منذ سنوات اجراء حفائر فى حديقة القصر الحالى للتعرف على موضع هذه الروضة ، ولكنه لم يعط الاذن بذلك .

(٢٩) صفحة ١٢ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى . وكان فى هذا القصر كذلك مجلس الكتـــاب والوزراء ، كما كان به مجلس يسمى مجلس المغنيات . وكان بالقصر كذلك « دار الرخام » ولها شرفة عالية تطل على صحن كان يتجمع فيه حرس الخليفة وفرسانه ، تنظر صفحة ١٩٣ من القسم الخامس من « المقتبس » لابن حيان ، وفى « محراب » المجلس الكامل جلس للبيعة الامير عبد الرحمن بن محمد ، يوم الخميس مستهل ربيـــع الاول ســـنة ٣٠٠ ، تنظر الصفحة ١٥٨ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٣٠) صفحة ١٧٤ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى . وكان عبد الرحمن قد جعل فى القصر مصنعا ، أى حوضا ، تجتمع فيه مياه المطر ليتخذ شريعة يستقى منه المارة ، ينظر المقرى ، الحاشية التالية .

(٣١) صفحة ١٢ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » ، وقد نقل المقرى هذا الوصف عن ابن بشكوال .

(٣٢) صفحة ١٥٣ من المرجع المشار اليه فى الحـــاشية السابقة . وعن الساباط ، ينظر فى الجز الثانى من كتابنا هذا ، القسم الخاص بأعمال محمد بن عبد الرحمن فى تاريخ مسجد قرطبة : القسم الخامس من الفصل الثالث .

(٣٢ب) تنظر صفحا ٥٦و٨٩ من الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٣٣) صفحة ٣٥٤ من المرجع المشار اليه فى الحاشية السابقة . روى ابن عذارى فى صفحتى ٥٦و٨٩ منالجزء الثالث من « البيان المغرب » أنه كان لقصر الخلافة فى قرطبة باب « يسمى باب الشكال » بالقـــرب من باب القنطرة وكان يسمى كذلك ، فيما يغلب ، باب « السباع » .

(٣٤) تنظر صفحة ١٥ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقـــرى . ويروى المقرى عن ابن سعيد قصة الرمان المعـــروف بالســـفرى ، والذى كان

مشهورا بالاندلس ، والمنسوب الى سفر بن عبيد الكلاعى الذى غرسه وعالجه حتى أينع وأثمر ، والذى اغترس منه الامير عبد الرحمن الداخل بمنية الرصافة .

(٣٥) خربت منية الرصافة فى سنة ٤٠٠ (١٠١٠) ، خربها واضح (تنظر صفحتا ٤٢ و ٤٣ فيما سبق) ، « أطلق فيها يد السفهاء » فخربوها وحرقوها وقطعوا أشجارها ، وذلك خوفا من « أن يدخل عليه البربر من جهاتها » ، صفحة ١٠٢ من الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٣٦) تراجع ٣٨٠ و ٣٨١ من الجزء الثالث من « تاريخ أسبانيا الاسلامية» للاستاذ ليفى بروفنسال . وقد استقى المؤلف معلوماته عن منية نصر من مخطوطة من « المقتبس » لابن حيان ، وكذلك استقى المعلومات التى ننقلها هنا عن منية تنطيش .

(٣٧) صفحة ٢٠١ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى . ويروى المقرى فى صفحتى ١٠٠ و ١٠١ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » أن عبد الرحمن الناصر أمر ببناء قناة غريبة الصنعة من جبل قرطبة الى « قصر الناعورة » كان يجرى الماء فيها بتدبير عجيب وصنعة محكمة « الى بركة عظيمة ، عليها اسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة ... مطلى بذهب ابريز وعيناه جوهرتان ، لهما وميض شديد ، يجوز هذا الماء الى عجز هذا الاسد فيمجه فى تلك البركة من فيه ... فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سمعتها » . ويضيف المقرى الى ذلك أن انتهاء العمل فى القناة والبركة كان فى شهر جمادى الثانى سنة ٣٢٩ (ابريل ٩٤١) وأن العمل استمر فى كل هذا اربعة عشر شهرا .

(٣٨) صفحة ١٧ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » .

(٣٩) شرحه ، صفحتا ١٧و١٨ . وتنظر صفحة ٩١ من الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى ، الذى ذكر فى صفحة ٤٢ من نفس الجزء أن الخليفة هشام بن الحكم اتخذ منية جعفر مسكنا له .

(٤٠) صفحات ١١٥و١١٧ ثم ١١٣ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى . وتنظر فى صفحة ٢٣٠ من كتاب « اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر الميلادى » ، المراجع التى استند اليها الاستاذ ليفى بروفنسال فى تحـــديد موقع مدينة الزهراء ، وخاصة الفقرة التى نقل ترجمتها فى صفحة ٢٠٧ من « طـــوق الحمامة » لابن حزم ، صفحة ١٠٤ من طبعة ليدن Leiden ، سنة ١٩١٤. وتراجع صفحة ٤٢ فيما سبق عن مصير هذه المدينة ونهبها وتدميرها فى ســـنة ٣٩٩ (١٠٠٩) .

(٤١) تنظر صفحة ٢٩٩ من الجزء الثانى وصفحة ٤٢ من الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٤١ب) تنظر صفحة ١٤٦ فيما يلى من كتابنا هذا .

(٤٢) تراجع ، مثلا ، صفحات ١٧و١٩و٢٠و٢١و٢٣و١١٧و١٦١ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى ، وفى صفحات ٨٠ الى ٨٢ من هـــذا المرجع قصيدة لابى القاسم عامر بن هشـــام القرطبى جمـــع فيها أسماء « المنتزهات القرطبية » ، وفى صفحتى ١٥٥ و ١٥٦ قصـــيدة أخـــرى لابن زيدون فى ذكـــر منتزهات قرطبة .

(٤٣) شرحه ، صفحتا ١٦و١٧ . هذا وقد اسقط ناسخ المقرى من اسم هذا الامير كنيته (زكريا) ، فصار أبا يحى بدلا من ابى زكريا يحى ، ولم ينتبه الى هذا الخطأ كل من (عنان) ، فى صفحة ٧٢٥ من كتابه « عصر المرابطـــين والموحدين » ، و (عبد العزيز سالم) ، فى صـــفحة ٢٢٨ من الجـــزء الاول من كتابه « قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس » .

(٤٤) صفحتا ٧٨و٧٩ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٤٤أ) شرحـــه

(٤٥) صفحة ١٥٧ من « الروض المعطار » للحميرى .

(٤٥أ) شرحه ، صفحة ٧٩ .

(٤٦) تنظر صفحات .

هذا مع العلم بأننا نعرف اسماء مساجد اخرى جاء ذكرها فى كتب المؤرخين مثل مساجد عجب ومعمرة ومشتاق وشريح والبهاء والشــفاء وكــوثر وحبيب وطرفه وطروب ، ولا شك فى ان البحث ، سيسفر عن اكتشاف جمــلة كبيرة اخرى من اسماء المساجد .

(٤٧) ورقة ١٧٨ ب من مخطــوطة « المقتبس » لابن حيان ، عن ليــفى بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الاسلامية ، الجزء الثالث ، صفحة ٣٧٦ .

(٤٨) تنظر مثلا ، صفحات ٢٧ و ٢٨ و ١١٨ و ١٣٦ و ١٣٨ و ١٧٣ و ٢١٩ و ٢٢٤ و ٢٢٦ و ٢٢٩ و ٢٤٢ و ٢٤٧ و ٢٥٢ و ٢٥٩ و ٢٩٣ و ٢٩٥ و ٣١١ و ٣٢٠ من الجزء الاول من « كتاب الصلة » لابن بشكوال .

(٤٩) تنظر صفحة ٢٤٠ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابــن عــذارى ولهذه الرواية أهمية فيما جاء فيها من اجراء الخليفة الحكم المرتبات على التلاميذ، ولم يوضح ابن عذارى فيما اذا كان الخليفة قد أجــرى كذلك المــرتبات على الشيوخ .

يراجع الفصل الثامن من كتاب المؤلف « مساجد القاهرة ومدارسها » — الجزء الثانى — العصر الايوبى — دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ، وفيه عرض عن التدريس والمدارس فى الاسلام ، واهمية اجراء المرتبات .

(٥٠) تنظر صفحة ٢٩١ من الجزء الاول من « تاريخ أسبانيا الاسلامية » لمؤلفه ليفى بروفنسال ، وتنظر صفحة ١٧٦ من القسم الخامس من « المقتبس » لابن حيان .

(٥١) تنظر صفحة ٨٨ من الهمذانى .
(المكتبة الجغرافية العربية ، الجزء الخامس) .

الفصـــل الســادس

مـــدينة الزهـــراء

١ ـ انشـــاء المـــدينة وتاريخها .

٢ ـ تخطيط المـدينة ومبـانيها .

٣ ـ مسجـــد الزهـــراء .

٤ ـ دار الملك أو قصر الزهـــراء .

٥ ـ فخـامة الزهـراء وزخارفها .

الفصـــــل الســـادس

مـــدينة الزهـــراء(١)

(١)

انشــاء المــدينة وتاريخها

تعددت أسماء « الزهراء » ، فسميت أحيـانا « قصرا » وأحيـانا « مستنزها » أو « روضة » أو « منية » ، ولكن الاسم الذى غلب عليها ، وعرفت به هو « مدينة الزهراء »(١ب) •

ورويت قصص فى أسباب بنائها وتسميتها ، والواقع أن عبد الرحمن الناصر كان معروفا بشغفه بالبناء ، ثم انه رفع الامارة الى خلافة ، وأراد أن يقيم مدينة جديرة بهذا الاسم ، خاصة وأن قصر الامارة بقرطبة كان قد قدم عليه العهد ، ولم تعد أعمال التجديد والتعمير فيه تسمح باشباع نزعة الناصر الى مظاهر الفخامة • ثم ان الناصر أراد أن يخلد ذكراه فى التاريخ ، ونسبت اليه أبيات من الشعر فى ذلك • وأغلب الظن أن الناصر سمى المدينة « الزهراء » ، قاصدا مدلول اللفظ ومعناه ، ولعـــله أرضى فى الوقت نفسه جاريته المحبوبة بأن اختار اسمها لمدينته(٢) •

واختار الناصر موقع المدينة الجديدة على سفح جبل العـــروس ، فى منطقة كانت تعرف بالقنبانية ، وهو موقع يطل على منظر بديع يشرف على السهول الممتدة الى نهر الوادى الكبير ، ويقع شمالى غربى قرطبة ، وعلى بعد « أربعة أميال وثلثى ميل » من مسجدها الجامــع(٣) • وزاد الناصر منظر الجبل بهاء بأن أمر بقطع أشجار السهل المطـــل منه على مـــدينته ، وغرسه « تينا ولوزا » • و « لم يكن منظر أبهى منها ، ولا سيما فى زمان الازهار وتفتح الاشجار » بين الجبل والسهل(٤) • وكان الافق يمتد أمامها

« طلقا » رائقا(٤ب) ، يرتسم على حدوده مجرى الوادى الكبير ، وتنتصب فيه شامخة مئذنة المسجد الجامع •

وكان يصل الزهراء بقرطبة طريق يبدأ من باب الهدى ، أو باب ليون، شمالى العاصمة ، ويتجه الى الرصافة ، ثم ينحنى غربا • مجتازا بضعة قناطر ، مارا بسفح جبل العروس ، منتهيا عند الباب الذى يتوسط أسوار المدينة الشمالية ، وهو الباب الذى كان معروفا بباب « الجبـل » • وكان يتفرع من هذا الطريق ، جنوبى الرصافة ، طريق آخر يؤدى الى باب آخر ، يتوسط أسوار المدينة القبلية ، وهو الباب المعروف بباب « الاقباء » أو « باب الصحراء » أو باب « الصورة » • وما زالت تشاهد قنطرتين من القناطر التى كانت تمتد على طول هذا الطريق ، كما أنه ما زالت تشاهد أطلال أربعة قناطر أخرى • وكانت الابنية تملأ هذا الطريق(٥) ، وكان يمشى فيه ليلا « بضوء السرج المتصلة عشرة أميال »(٦) •

بدىء العمل فى بنيان « الزهراء » أول المحرم سنة ٣٢٥ (١٩ نوفمبر ٩٣٦) • واستمر نحوا من أربعين سنة • خمسا وعشرين سنة الى وفاة الناصر ، ثم طيلة عهد ابنه الحكم ، أى الى سنة ٣٦٥ (٩٧٦)(٧) • وبدىء فى رصف الطريق الذى يصلها بقرطبة فى منتصف شهر رجب من سنة ٣٢٩ (أبريل ٩٤١) ، وانتهى العمل فيه بعد سنة واحدة ، وركب فيه الخليفة « ووضعت أعلامه على حدوده »(٨) • ويستدل من ذلك ، ومن أن بناء المسجد الجامع للمدينة كان قد كمل ، وصليت فيه أول صلاة جماعة يوم الجمعة « لثمان بقين من شعبان » سنة ٣٢٩ (٢٢ مايو ٩٤١)(٩) ، أن الناصر انتقل الى « الزهراء » ، قبل أن يتم تحقيق مشروعه من جعلها مدينة عظيمة ، تضم بجوار قصور سكناه ، دور حاشيته وأرباب الوظائف فى دولته وحرسه ، ودواوينه وخزائنه وذخائره ومحبسه •

وجعل الناصر ابنه الحكم مشرفا على تنفيذ مشروعه ، أو « المتولى لهذا البنيان »(١٠) ، وكان المهندس المقيم ، أو العريف ، هو مسلمة بن عبد الله ، وكان يعاونه « عبد الله بن يونس ، عريف البنائين ، وحسن بن محمد وعلى بن جعفر الاسكندرانى »(١١) • وقد عثر فى أطـلال « دار الملك » بمدينة الزهراء على نقوش كتابية حفرت عليها أسماء بعض العمال ، وهم سيف وسعيد الاحمر ، وسعد ومحمد بن سعد ورشيق وغالب وسـعيد بن محمود وفتح وأفلح ودمير ومظفر والنقاشـون بدر ونصر وعبيد • وكان يشتغل فى حقل البناء « ثلاثمائة من حذاق البناة ومائتان من النجارين ، ومن العمال والفعلة خمسمائة »(١٢) ، وذلك بالاضافة الى « عشرة آلاف رجل » « من الخدام والفعلة » ، كان منهم ، فى كل يوم ، « من له درهم ونصف ، ومن له الدرهمان والثلاثة » • وكانت تستخدم فيها فى كل يوم كذلك « ألف وخمسمائة دابة »(١٣) •

وقيل ان مبلغ ما أنفق « فى بناء الزهـراء مائة مـدى من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة » ، وأن الناصر كان يخص مـدينة الزهـراء بثلث ايرادات الدولة السـنوية ، أو ما يعـادل مليون وثمـانمائة ألف دينـار سنويا(١٤) • وكان يصرف فى بنائها كل يوم « ستة آلاف صخرة من الصخر المنحوت » ، « سوى الاجر والصخر غير المعدل » وأربعمائة حمل « من الجير والجص » • « وجلب اليها الرخام من قرطاجنة وافريقية وتونس »، وكان الناصر يدفع عشرة دنانير ثمنا عن « كل رخامة صغيرة وكبـيرة » ، « سوى ما كان يلزم على قطعها وصقلها ومؤنة حملها »(١٥) • وكان عـدد سوارى الزهراء « أربعة آلاف سارية » ، منها « ألف سارية وثلاثة عشر سارية » مجلوبة من افريقية ، و « تسع عشرة سارية » ، من بلاد الفرنج ، و « مائة وأربعين سارية » ، هدية من أمبراطور بيزنطة ، « وسـائرها من مقاطع الاندلس ، طركونة وغيرها » (١٦) • وكان عدد الابواب خمسة عشر

ألف باب(١٧) ، وعدد الحمامات ثلاثمائة ، وعدد الدور أربعمائة (١٧ج) •

انتقل الناصر الى مدينته الجديدة ولما يكتمل بناؤها • وفى سنة ٣٣٦ (٩٤٧) نقل اليها دار « السكة »(١٨) ، ولعله نقل فى تلك السنة كذلك دار « الصناعة »(١٩) ، ونقل اليها قبل سنة ٣٤٠ (٩٥١) الدواوين والخزائن والمطبق(٢٠) • وكان الناصر قد أقام فيها ، سنة ٣٣٣ (٩٤٤) ، حفلا عظيما لختان أولاد ابنه(٢١) ، واستقبل فى نفس السنة وفد الادارسة برئاسة محمد بن أبى العيش ، « وقعد له أفخم قعود » فى قصر الزهراء(٢٢) • واستقبل فى السنة التالية ، أو فى سنة ٣٣٦ (٩٤٧) ، سفارة امبراطور بيزنطة(٢٣) ، واستقبل بها مرة ثانية فى السنة التالية وفد الادارسة وقعد بها لهم « قعودا بهيا »(٢٤) • وتوالت السفارات فى السنوات التالية ، وكانت آخرها ، فى سنة ٣٤٧(٩٥٨) ، سفارة على رأسها ملكا البشكنس ، (طوطة) وابنها (شانجة)(٢٥) •

وظلت الزهراء ، فى عهد الحكم المستنصر بالله ، مسرحا للاعياد والحفلات والاستقبالات ، ومن ذلك الاحتفال ببيعته نفسه ، يوم وفاة أبيه(٢٦) ، وحفلات استقبال الملك (أردون الرابع) ، واستقبال السفارات الوافدة من ملوك البشكنس وبرشلونة والبيرة وجليقية وقشتالة ، ومن أمراء المغرب(٢٧) • وكان الناصر ، كما كان الحكم المستنصر بالله ، يتخذان من « الزهراء » مقاما لهما • ومقرا لدولتهما ، ولا يتوجهان الى قرطبة الا لاستطلاع أعمالهما فى المسجد الجامع(٢٨) • وقد زاد الحكم فى عمارة الزهراء ، وأغلب الظن أنه شيد قصرين فى المدينة العليا ، أحدهما فى أقصى الشرق ، والاخر فى أقصى الغرب •

ظلت « الزهراء » زاهية مزدهرة الى سنة ٣٧٠ (٩٨٠) ، وهى السنة التى نقل فيها المنصور بن أبى عامر دواوين الدولة منها الى مدينته

« الزهراء » ، وبدأ شأن « الزهراء » فى الاضمحلال . ثم نقل المنصور الخليفة هشام الى قصر قرطبة ، وحجر عليه فيه . والظاهر أن هشام كان ينتقل أحيانا الى مدينة الزهراء ، ولكن ذلك لم يكن لغير فترة قصيرة ، فلم يعد فى عهده الى المدينة ازدهارها ، بل ظل شأنها فى الافول . وبدأت المدينة تنهار منذ سنة ٤٠٠ (١٠١٠) ، عندما أنزل بها سليمان المستعين بالله جيشه من البربر « بعيالهم وذراريهم » ، واتخذها قاعدة للاغارة على قرطبة . ثم انه عندما خرج منها منهزما فى ١٢ شوال من السنة نفسها (٢٩ مايو) ، وخرجت منها أفواج الناس التى كانت معه ، هجم عامة قرطبة عليها ، « فنهبوا ما وجدوه ، ونهبوا المسجد وحصيره وقناديله ومصاحفه وسلاسله وصفائح أبوابه »(٢٩) ، ولا شك فى أنهم نهبوا كذلك كثيرا مما كانت تحويه قصورها .

وعاد البربر فاحتلوا « الزهراء » فى شهر ربيع الاول من السنة التالية (نوفمبر ١٠١٠) ، وبقوا بها سبعة أشهر ، ثم رحلوا عنها عندما هاجم أهل قرطبة ، مرة ثانية ، وأحرقوا المسجد ، وأخذوا ما كان قد بقى فيه من قناديله وصفائح أبوابه ومنبره وحصره .

وبعد ذلك بسنتين عاد سليمان المستعين الى « الزهراء » بجنده البربر . واحتلوا المدينة ، وظلت المدينة مهملة منذ سنة ٤٠٣ (١٠١٣) ، حتى كانت أيام الخليفة المستكفى بالله . قيل انه فى سنة ٤١٥ (١٠٢٤) ، «استؤصل بقية قصور جده الناصر بالخراب ، وطمست أعلام قصر الزهراء، واقتلع نحاس الابواب ... ، وغير ذلك من الالات »(٣٠) ، ثم تولى بيع موادها « من رفيع المرمر ونضار الخشب وخالص النحاس وصاق الحديد، رجل اسمه ابن باشه ، كان قد جلبه ابن السقاء ، مدبر قرطبة ، فى أوائل

دولة بنى جهور ، حوالى سنة ٤٢٣ (١٠٣٢) » • وابن باشه هذا هو من يسميه ابن بسام « هدام القصور ومبور المعمور »(٣١) •

صارت « الزهراء » أطلالا ، وكان أهل قرطبة ، منذ ذلك التاريخ وعلى ممر القرون ، يتخذون من مبانيها محاجر • وجاء ذكر « الزهراء » بعد ذلك فى وصف ليلة قضاها فيها بعض وزراء المعتمد بن عباد ، حوالى سنة ٤٦٧ (١٠٦٥) ، اذ قيل انها كانت « قد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ••• ولم يبق من آثارها الا نؤى وأحجار هوت قبابها ، وهرم شبابها »(٣٢) •

ولعل آخر من زار أطلالها من أمراء الاندلس هو أبو يعقوب المنصور فى سنة ٥٨٦ (١١٩٠) ، اذ أمر هذا الخليفة بانزال التمثال الذى كان ما زال مقاما على باب « الصورة » ، من أبواب « الزهراء »(٣٣) • ثم ان جماعة من الرهبان اقتلعوا حجارة أطلالها فى منتصف القرن الخامس عشر، واستعانوا بها فى بناء دير لهم ، هو دير بلباريسو
الذى ما زال قائما بالقرب منها (٣٤) •

اندثرت أطلال الزهراء ، وكستها الرمال والنباتات ، واختفت معالمها تماما ، حتى كانت سنة ١٨٥٤ ا اذ اكتشف موقعها ، وأجريت بها بعض الحفريات السطحية ، ثم انه فى سنة ١٩١٢ ، اكتشف العالم الاثرى ، ريكاردو بلاسكيث بوسكو ، بعض أطلالها • وظل يعمل حتى موته فى سنة ١٩٢٤ • وكان قد نشر نتائج أبحاثه فى مجلدين ، فى سنة ١٩٢٣(٣٥) • واستمر التنقيب فى موقعها بعد ذلك على فترات متقطعة الى سنة ١٩٤٤ ، باشراف الدكتور رفائيل كاستيخون والمهندس العالم الاثرى فيليث هرنانديث • ثم استؤنفت أعمال التنقيب بصورة أكثر اتصالا ، منذ تلك السنة ، وأخذت معالم المدينة ، أى أسس أبنيتها ، تظهر سنة بعد أخرى

تدريجيا • وكان آخر ما اكتشف فيها هو المسجد الجامع ، فى سنة ١٩٦٤ ، والساباط ودار الرخام ، فى سنة ١٩٦٥ • واعتنى فى تلك الفترة كذلك باعادة بناء بعض الجدران والاسوار الضخمة والدعامات التى تسند « سـطح القبلة » • وقد حاول علماء الاثار ، باشراف الاستاذ فيليث هرنانديث ، اعادة بناء مجلس عبـد الرحمن الناصر ، أو « دار الملك » ، وهم ما زالوا يحاولون اعادة زخارفه العتيقة ، بالاستعانة فى ذلك ، فحسب ، بالانقاض التى كانت متراكمة فى موقعه(٣٦) •

(٢)

تخطيط المـدينة ومبـانيها(٣٧)

تحتل « الزهراء » مساحة كبيرة تبلغ مليونا وثلاثين ألفا من الامتـار المربعة أى ما يقرب من مائتين وخمسين فدانا • وتمتد حدودها ، على هيئة شبه مستطيل ، طوله من الشرق الى الغرب ٢٧٠٠ ذراعا ، أو ١٥١٨ مترا • وكانت الحدود الشرقية والجنوبية والغربية ترسم خطوطا مستقيمة ، أما الحدود الشمالية فكانت تنحنى انحناءات فرضتها مرتفعات جبل العروس، ولهذا السبب اختلف عرض المـدينة ، من الشمال الى الجنـوب ، فـكان أقصاه ١٥٠٠ ذراعا أو ٧٤٥ مترا ، عند كل من الطرفين الشرقى والغربى ، وكان أقله ٩٩٠ ذراعا ، أو ٦٠٠ مترا ، فيما بين وسطى حدودها الشمالية والجنوبية •

وكان يحيط بالمدينة سوران متوازيان ، بينهما ممر ، فيما عدا القسم الاوسط من السور الشمالى ، فكان السور فيه منفـردا ، وكانت تحـف بالاسوار أبراج فى بعض أجزاء منها • وكانت المدينة « العظيمة » تشمل ثلاثة أقسام ، أو ثلاثة مدرجات ، « مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الاعلى يوازى الجزء الاوسط ، وسطح الثلث الاوسط يوازى على الثلث الاسفل ، وكل ثلث منها له سور » • وكان القسم الاعلى يشمـل القصـور « التى يقصر الوصف عن صفاتها » ، وكانت البساتين والروضات تمتد فى القسم الاوسط ، أما القسم الادنى ، فكانت تتجمع فيه الديار(٣٧أ) •

أما المدينة الاولى ، العليا ، فكانت تحدها شمالا الاسوار الممتدة على سفح الجبل ، والتى كان يحازيها الطـريق الرئيسى الى قـرطبة • وكان يتوسط هذه الاسوار باب الجبل • وكان يحدها جنوبا شـارع عـريض طويل مرصوف طوله ألف متر تقريبا ، وهو المشـهور المعـروف فى كتب

المؤرخين بالسطح المرد ، أو « الصرح المرد » • وامتدت القصـــور فى مواجهة الصرح ، أقصاها شرقا ، قصر كبير تمتد حدوده من شرق الى غرب ثمانين مترا ، ومن شمال الى جنوب ، ستين • وفيه قاعة عظيمة تتكون من عشرة أروقة ، مســـاحتها ٣٥ مترا من الشمال الى الجنوب و ٥٠ مترا من الشرق الى الغرب • ولا شك فى أن هـــذا القصر هـــو الذى أسماه الرواة « المجلس الشرقى » أو « قصر المؤنس » أو « بيت المنام » ، وأشاروا الى أنه كان به مجلس فخم أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بأن يوضع فى بيت منامه « الحوض الصغير الاخضر المنقوش بتماثيل الانســـان » ، والذى جلبه أحمد الفيلسوف من الشام ، والذى قيل انه « لا قيمة له لفرط غرابته وجماله» • وأمر الناصر بأن يصاغ « بدار الصناعة بقرطبـــة » اثنا عشر « تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغـــالى » ، وأن تنظم هذه التماثيل فوق ذلك الحوض بحيث « يخرج الماء من أفواهها » ، وكانت « صورة أسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقارب وفيل ، وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجـــة وديك وحـــدأة ونسر »(٣٧) •

وكشف عن أسس بناء يقع على بعد مائة وخمسين مترا غربى هذا المجلس ، هو موضع القبة الصـــغرى ، أو « القبيبة » ، التى كان الناصر اتخذ لسطحها قراميد ذهب وفضة ، « وجعل سقفها صـــفراء فاقعة الى بيضاء ناصعة ، تستلب الابصار بأشعة نورها » ، ثم انه أمر بنقض هذه السقف ، ونزع الذهب والفضة من عليها ، عندما أنبه القاضى منـــذر بن سعيد على اتخاذه « سقفا من فضة » ، تشبها بالكافرين(٣٨) •

ويتصدر القبيبة بهو واسع كبير كان مسورا ، ويليها بهو أكبر حجما ، مربع طول ضلعه مائة متر ، كان كذلك مسورا • ثم تظهر آثار قصر ضخم

يقع بالقرب من باب الجبل فى منتصف المدينة العليا ، تتعدد فيه القاعات والممرات والغرف والابهاء ، وينتصب فى طـرفه الشرقى البناء المعـروف « بالمجلس الغربى » • ويحتوى هذا المجلس على قاعة كبرى طولهـا ٣٨ مترا وعرضها ٢٠ مترا ، يتقدمها ، من ناحية القبلة ، رواق عرضـه سبعة أمتار ، فيـه خمسـة أبواب ، كل باب منها يؤدى الى رواق من أروقـة المجلس الخمس(٣٨ب) • ويتصدر المجلس والرواق بهو كبير طـوله ٥٣ مترا ، وعرضه خمسون(٣٩) •

واكتشفت غربى هذا « المجلس الغربى » آثار قصر ضخم خامس ، فيه كذلك قاعات وغرف وأبهاء ومجموعة من الابنية • وأغلب الظن أن هذا القصر وهذه الابنية هى التى كانت معروفة بقصر الخـلافة ، وكانت تضم الدواوين ودار الحاجب ودار صاحب الشرطة • وكان بهذا القصر « مجلس الخلافة » ، وهو الذى روى ابن حيان عنه أن قرامـده كانت من الذهب والفضة ، وأنه كانت فى كل جانب من هذا المجلس ثمـانية أبواب « قـد انعقدت على حنايا من العـاج والابنوس المرصـع بالذهب وأصـناف الجوهر ، قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى »(٤٠) • وقد كشف حديثا فى أطلال هذا القصر على لوحات من الرخام حفرت فيها ثقوب يستدل من أوضاعها أنها كانت مواضع الترصيع ، وأنها كانت حقيقة مرصعة « بالذهب وأصناف الجوهر ••• وكانت تتوسـط هـذا المجلس « اليتيمة » ، أو « الحوض المنقوش المـذهب الغـريب الشـكل الغـالى القيمة » الذى أهـداه « أليون ملك القسـطنطينية » الى الناصر ، وكان الناصر قد ملأه زئبقا ، ينعكس عليه شعاع الشمس « فيصير من ذلك نور يأخذ الابصار »(٤١) • وكشف بقصر الخلافة هذا عن بهو كبير شبه مربع طول ضلعه ثلاثون مترا ، كان يحيط به رواق مسقوف ، وكانت سقفه ترتكز على دعامات ، أربع فى الاركان وأربع على كل جانب من جوانبه الاربعة •

ولا شك فى أن هذه المدينة العليا كانت تحتوى على قصور أخرى لم يكشف عن أطلالها بعد،ولا نعرف عنها أكثر من أسماء وردت فى كتب الرواة، منها مجلس الذهب ، والابهاء المذهبة القبلية ، والمجلس البديـع ومجلس الاجراء •

وكان يحد المدينة العليا ويصلها بالمدينة الوسطى مجموعة من المبانى، تتوسط الصرح المرد ، وتنتصف حدود المدينتين تماما • وهى تشمل « دار الملك » أو « مجلس عبد الرحمن الناصر » أو « قصر الزهراء » ، وهو الذى كشف عنه حديثا ، فى سنة ١٩٤٤ ، ويجرى العمـل على تعمـيره واعادة زخارفه ، وسنتحدث عنه ونصفه فيما بعد • ويحف بدار الملك الفصلان ، فصيل الفتيان وفصيل الكتاب شرقا ، فصيل أبى العراض ، غربا • ويتصل بها غربا كذلك دار الجند • وتتكىء دار الجند على سـور فاصـل بـين المدينتين ، فهى تقع اذن فى المدينة الوسطى • وكانت أعمال الكشف والتعمير تجرى ببطء فى هذه المنطقة منذ سـنة ١٩١٢ فلما اكتشـفت « دار الملك » اقتصرت الاعمال عليها وتوقفت بدار الجند • وكانت هذه الدار تمتد أكثر من مائة متر تجتازها ممرات مسقوفة بقبوات مستندة على عقود منفوخة ، ترتكز على دعامات فى جانبى الممرات • وكان الممر الرئيسى فى هذه الدار يمتد متصلا من شرقيها الى غربيها ، ويؤدى ، من جهة ، الى غـرفة كبيرة مستطيلة متصلة بدار الملك ، ومن الجهة الغربية ، الى باب مفتوح على طريق منحدر يصل الى منتصف المدينة الوسطى •

أما الفصلان فشمل جناحا كبيرا شرقى دار الملك ، تمتد واجهته على امتداد واجهة المجلس وواجهة دار الجند • ويتكون هذا الجناح من مجموعة من القاعات والممرات تحتل مساحة طولها من الشرق الى حـدود دار الملك ستين مترا وعرضها من القاعات والممرات ٢٨ مترا • أما الواجهة فهى تطل

على السطح المعروف « بسطح القبلة » ، وفتح فيها خمسة أبواب تؤدى الى الطريق الطويل المرصوف الذى يتقـدم دار الملك ومجموعـة المبانى المحيطة بها شرقا وغربا ، والذى يبلغ طوله مائة وخمسين مترا . وفى هذا الجناح غرف عديدة قسمت الى مجموعات مستقلة ، ولكنها تتصل بممرات تؤدى من جهة الى الطريق المرصوف ومن جهة أخرى الى داخل دار الملك . وتحوى كل من هذه المجموعات مرافقها الصحية . وقد عثر فى احدى هذه القاعات على قاعدة عمود مزخرف عليه كتابة منقوشـة فيهـا دعاء لعبـد الرحمن الناصر .

ويتتصف هذا الجناح مجموعة الحمام الفاخر الخـاص بالخليفة ، القسم الشرقى منها مستقل تماما ، وفيه الموقد وغرف صغيرة للخدمة الموكل اليهم تنظيم جريان المياه وتسخينها وتوجيه البخار منها ، وهو غير متصل بالقسم الذى يقع فيه الحمام ومشتملاته(٤١ب) . والحمام حوض كبير يتوسط قاعة مستطيلة مسقوفة بقبو فتحت فى جدرانها مواضع لانابيب المياه وفتحات للبخار ، وفى هذه القاعة باب يؤدى الى قاعة صغيرة مستطيلة أخرى فتح فيها بابان آخران ، باب يؤدى الى قاعات خلفية للخدمة ،وباب يؤدى الى قاعة فخيمة كبرى ، كانت لا شك قاعة استراحة الخليفة ، وفيها ثلاث أبواب أخرى ، باب يؤدى الى مرافق خلفيـة ، وباب مفتـوح على الواجهة ، وباب يصلها بقاعة مربعة كبرى فخمة كذلك كان يتوسطها نافورة. وقد بلطت أرضية هذه المجموعة جميعا بقطع كبيرة من الرخام الابيض ، وامتدت على جدرانها وزرة سفلى من الرخام الابيـض كـذلك ، ونقشت بزخارف رائعة منحوتة ، لونت تجاويفها باللون الاحمر .

وكانت تلك المدينة الوسطى تشمل مجالس للناصر ومناظـر(٤٢) ، منها ، كما سنرى ، سطح القبلة ودار الرخام ، وذلك بالاضافة الى البساتين

والمروضات والاحواض والبحيرات(٤٣) ، ومنها البركة « المصهريج » الكبير الذى أذن الحاكم المستنصر بالله لقاضيه المنذر بن سعيد أن يستحم بها فى يوم قيظ شديد(٤٤) • وكانت « دويرات البرطلات » أو « البرطل » تقع الى الغرب من البحيرات وأمام دار الجنـد(٤٥) ، ولعلها كانت مظـلات ومناظر أعدت لجلوس حاشية الخليفة وانتظار الزوار •

ويقع المسجد الجامع ، الذى اكتشف فى سنة ١٩٦٤ شرقى المـدينة الوسطى ، وان كان الادريسى يحدد موقعه فى المدينة السفلى • والواقع أنه يقع بين المدينتين ، على شرفة ، تنخفض مستوى أرضيتها عن سـطح المدينة الوسطى ، ويصله بسطح القبلة « ساباط » • وسنصف هذا المسجد بعد قليل •

أما المدينة السفلى ، أو « الطبقة الثالثة » فـكانت تقع فى « أكناف الزهراء » ، وكان يفصلها عن المـدينة الوسطى سـور يتوسـطه « باب السدة » • وكانت تلك الطبقة السفلى ، التى لم يكشف عنها بعـد ، تشمل مساكن الحاشية وأهل الخدمة،وتضم دور الصناعة والسلاح والعدة والسكة والمطبق • وكانت فيها « محلات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك »(٤٦) • وكان يحد هذه الطبقـة سـور المدينة القبلى ، الذى يتوسطه « باب الاقباء » ، المعروف كذلك « ببـاب الصحراء » أو « باب الصورة » أو « الباب القبلى » •

وقد أصبح من الممكن تحقيق وصف الرواة لحفلات الاستقبال ، مثل حفلة بيعة الحكم المستنصر بالله(٤٦ب) ، ومثل حفل استقباله للامير المغربى ابن الاندلسى(٤٦ج) • وأصبح من الممكن تحديد مواضع المستقبلين على رسم المدينة • فنرى أن فرسان العبيد كانت مصطفة على جانبى الطريق الممتد من « باب الاقباء » الى « باب السدة » ، واصطف على هـذا الباب

البوابون • وانتظمت الصفوف من هذا الباب ، على جانبى الممر المـؤدى الى « الفصلان » ، شرقى « سطح القبلة » ، وهى صفوف الخصيان ، وعلى طول « الصرح الممرد » ، اصطف الفتيان ، « صفين منتظمين » على جانبيه، وقامت « التعبئة » فى « دار الجند » عنـد نهاية هذا الصرح من ناحيـة الغرب ، أى اصطف الجند فيه على هيئة الاستعراض •

واجتاز الضيوف هذه الصفوف حتى وصلوا الى « برطـل البهـو الاوسط من الابهاء القبلية التى بدار الجند » ، وبعد أن حيـوا الجنـد وشاهدوا العرض ، انتقلوا من هذا « البرطل » أو « دويرات البرطلات »، وتقدموا فى « السطح الممرد » حتى وصلوا الى « المجلـس الشرقى » • وكان الوزراء مجتمعـين فى « دار الوزراء » ، وهى التى كانت تسمى « دار الملك » فى عهد عبد الرحمن النـاصر ، وكان الامـراء مجتمعين فى دارهم ، فأحاطوا بالضيوف وانتقل موكب الجميع ، الضيوف والامـراء والوزراء الى المجلس الشرقى ، « الموفى على الرياض والسـطح العالى » و « اتصلت صفوف المستقبلين منه » الى « مجلس الامراء الغربى » • وفى المجلس الشرقى ، كان الحكم المستنصر بالله يقعد « فى البهو الاوسط من الابهاء المذهبة» المطلة على « السطح الممرد « •

(٣)
مسجـد الزهـراء(٤٧)

نقل المقرى عن ابن الفرضى(٤٨) أن مسجد الزهراء بنى ، « واستتم بنيانه واتقانه فى مدة من ثمانية وأربعين يوما » ، وكان يعمـل فيه « من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمـة ، منها ثـلاثمائة بناء ومائتـا نجـار ، وخمسمائة من الاجراء وسائر الصناع » .

وكان طوله من القبلة الى الجوف ، سوى المحراب ، سبع وتسعون ذراعا ، وعرضه من الشرق الى الغرب تسع وخمسون ذراعا ، وكان بيت الصلاة فيه يشمل « خمسة أبهاء عجيبة الصنعة » ، وكان طوله من القبلة الى الجوف ، حاشا المقصورة ، ثلاثون ذراعا ، وكان عرض كل بهو اثنا عشر ذراعا ، فيما عدا « البهو الاوسط » فكان عرضه ثلاث عشرة ذراعا . وكان للمسجد « صحن » مكشوف ، طوله من القبلة الى الجوف ثلاثة وأربعون ذراعا ، وعرضه من الشرق الى الغرب واحد وأربعون ذراعا ، وكان هـذا الصحن مفروش جميعه بالرخام الخمرى ، وكان فى وسـطه « فـوارة » يجرى فيها الماء . وكان للمسجد صومعة ، عرضها عشرة أذرع فى مثلها ، وطولها فى الهواء أربعون ذراعا .

وأمر الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجـد ، فصنع فى نهاية الحسن ووضع فى مكانه منه ، ، وحظرت حـوله مقصـورة عجيبة الصنعة . وكمل بنيانه يوم الخميس ، « لتسع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثلثمائة » ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة « ٢٢ مايو ٩٤١ » .

ويستدل مما رواه ابن الفرضى على أن المحـراب كان بارزا خارج جدار القبلة ، وأن المقصورة كانت كذلك خارجة عن بيت الصلاة من جهة القبلة ، وأن بلاطات المسجد كانت معقودة ، عقودها وتيجـانها « عجيبة الصنعة » ، ويستدل كذلك على أنه كانت تحف ببهو المسجـد مجنبتان ، واحدة شرقية وواحدة غربية ، وأن عرض كل منها تعادل عرض البلاطة

المتطرفة من بيت الصلاة(٤٩) ، وأخيرا يستدل على أن قاعدة المئذنة كانت مربعـــة •

وقد أثبتت نتائج التنقيبات أن المقرى كان صادقا فيما نقله عن ابن الفرضى • فالمقاسات التى أوردها ، كما سنرى ، تكاد تطابق المقاسات التى أسفر عنها الكشف الاثرى ، فيما عدا خطأين أعـــزوهما الى نســـاخ المخطوطات • واتضح أولا أن اتجاه القبلة فى المسجد اتجـــاه صـــحيح لا انحراف فيه • وحدود المسجد الخارجية تحتل مســـاحة أقصـــاها من الجنوب الى الشمال ٦٣ مترا ومن الشرق الى الغرب أربعون مترا(٥٠) • وكانت أسوار المسجد عريضة يبلغ سمكها مترا ونصف المتر ، وكانت تلتصق بها دعامات مربعة القاعدة ، ضلعها يعادل سمك الجدار ، سبع دعامات فى كل من الجدارين الشرقى والغربى ، وأربع دعامات ضخمة فى كل من أركان الجدران الاربعة ، وثلاث دعامات كبرى فى جدار القبلة ، الوسطى منهما تقابل المحراب ، وهى أكثر بروزا •

وكان بيت الصلاة يمتد طولا من شرق الى غرب ٣٤ مترا ، و ٢٥ مترا من جدار القبلة الى حافة البهو • وكان المحراب مجوفا على شكل نصـــف دائرة قطرها أربعة أمتار • وكان بيت الصلاة هذا يشمل خمسة بلاطات ، عرض كل من البلاطتين المتطرفتين ستة أمتار ونصف ، وعـــرض بلاطـــة المحراب يزيد نصف متر تقريبا عن عرض كل من البلاطتين المتطرفتين(٥١)• وكانت هذه البلاطات تحف بها أعمدة تحمل عقودا ، وتجتاز كل صف منها ثمانية أساكيب ، عرض كل أسكوب منها ثلاثة أمتار تقريبا • ولم يكن فى بيت الصلاة أبواب تؤدى مباشرة الى خارج المسجد •

وكان للمسجد بهو طوله من حدود بيت الصلاة الى جدار المؤخر ٢٩ متراء وعرضه من شرق الى غرب ٢١ مترا ، وكان يحف به مجنبـــة عن شرقيـــة

وأخرى عن غربيه ، بكل منهما رواق عرضه يعادل عرض البلاطة المتطرفة المؤدى اليها • وأغلب الظن أنه كان يتوسط كلا من جدارى البهو الشرقى والغربى باب مفتوح على خارج المسجد ، وأنه كان يتوسط جدار المؤخر باب كذلك يؤدى من الخارج الى المئذنة ، التى كانت تنتصب داخل البهو، ملاصقة لهذا الجدار ، والتى كانت قاعدتها مربعة ، يبلغ ضلعها خمسة أمتار ونصف المتر(٥٢) •

ويبدو من دراسة تخطيط المسجد أن أسس جدار القبلة غربية ، وخاصة فى منطقة المحراب ، فقد التصق بها صفان من الدعامات ، ليست لصف منهما ضرورة معمارية • وتفسير ذلك ، فى رأيى ، هو أن المهندس ، أو عريف البناء ، خطط المسجد ووضع أسسه ، ثم طلب منه أن يضيف اليه مقصورة وساباطا(٥٣) ، فوضع أسسا جديدة لجدار القبلة ، على بعد خمسة أمتار جنوبى الاسس الاولى ، وأقام فيما بين الجدارين مقصورتين ، الشرقية منهما لامام المسجد ، والغربية للخليفة ، وفتح فى كل منهما بابين، باب يؤدى الى داخل بيت الصلاة بجوار المحراب ، وباب يؤدى ، فى المقصورة الشرقية ، الى خارج المسجد ، وفى المقصورة الغربية ، الى الساباط ، (شكل أوب) • وكانت مساحة كل مقصورة من هاتين المقصورتين اثنى عشر مترا طولا وخمسة أمتار عرضا •

(٤)

دار الملك(٥٤)

أنشئت « دار الملك » ، أو « مجلس عبـد الرحمـن الناصر » وتم بناؤها ، فيما بين سنتى ٣٤٢ (٩٥٣) و ٣٤٥ (٩٥٦) • ويؤكد ذلك أن هذه التواريخ مسجلة على النقوش التى عثر عليها فى موقع هذه الدار ، منقوشة على قواعد بعض الاعمدة وقرم تيجانها(٥٥) • وتحتل هذه الدار مستطيلا طوله من شرق الى غرب أربعون مترا ، وعرضه من شمال الى جنوب ٢٨ مترا • ويتكون هذا المستطيل من أربعة أقسام رئيسية ، قاعة وسطى ، تحف بها قاعة صغرى من كل جانب ، ويتقدمها رواق • وطـول القاعـة الوسطى عشرون مترا وعرضها ١٧ مترا ونصف المتر ، وهى بدورها تنقسم الى ثلاثة أبهاء ، البهو الاوسط منها أكثر فسحة من الاخرين بمقدار متر تقريبا • ويفصل بين الابهاء بائـكتان ، تتكون كل منهما من ستة عقـود منفوخة ترتكز على سبعة أعمدة ، يلتصق كل من العمودين المتطرفين منها بدعامة فى كل من طرفى البائكة • وقد حلى صدر كل من هذه الابهاء ، أى جداره الشمالى ، بعقد أصم ، نقش على الحجارة على هيئة عقد منفوخ، وامتلأ حلقه بالزخارف •

وتطل أبهاء القاعة الوسطى ، من الجهة القبليه ، على رواق تصلها به بائكة من سبعة عقود ، تقابل ثلاثة منها البهو الاوسـط ، وترتكز على أربعة أعمدة ، العمودان المتطرفان منها مندمجان فى دعامتـين ، ويقابـل كلا من البهوين الجانبيين • عقدان يرتكزان على ثلاثة أعمدة وترتفع بواطن العقود جميعا عن أرضية « المجلس » أربعة أمتار وربع المتر •

أما من الجهتين الشرقية والغربية ، فيحد هذه القاعة جداران ، جوفت فى طرفى كل منهما نافذة مستطيلة الشكل ، صماء ، نقش جوفها بالزخارف المنحوتة • وفتح باب فى منتصف كل من هذين الجدارين ، يصل القاعـة الوسطى بالقاعة الجانبية المستطيلة ، التى يبلغ عرض كل منهما خمسة أمتار ، وطولها ، أحد عشر مترا • وتؤدى كل من هاتين القاعتين الى قاعة أخرى مربعة ، تقع فى شماليها ، وتتصل بها بباب معقود بعقد مفصص • وأغلب الظن أن كلا من هاتين القاعتين المربعتين كانت تحـوى المرافـق الصحية للدار • ويقابل هذا الباب المعقود باب آخر يؤدى الى قاعة مربعة أخرى أمامية ، أى فى جهة القبلة ، وبكل من هاتين القاعتين المربعتين بابان آخران ، تتصل القاعة الشرقية منهما عن طريق باب منهما بالفصلان(٥٦)، وتتصل الغربية بدار الجند • ويؤدى الباب المواجه لهذا الباب الى الرواق المفتوح أمام أبهاء « الدار » • أما الباب الاخير فهو مفتوح على سـطح القبلة •

ويمتد الرواق الامامى على الابهاء الثلاثة ، ويبلغ طوله عشرين مترا ونصف المتر ، وعرضه سبعة أمتار • وكان لهـذا الرواق جـداران على طرفيه ، طول كل منهما أربعة أمتار • وكان هذان الجداران ، هما وجدارا القاعتين المتطرفتين ، تكون جـزءامن واجهـة « دار الملك » • وكانت تلك الواجهة تمتد من شرق الى غرب أربعين مترا ، وترتفع الى ما يزيد عن عشرة أمتار • وكان يمتد وسط هذه الواجهة اطار كبير مستطيل محشو بالزخارف، وكان يضم بائكة من خمسة عقود منفوخة ، فخيمة الزينة ، تتكىء على ستة أعمدة وردية اللون ، وكان يحف بهذه البائـكة ، باب على كل مـن جانبى الجدارين ، هما بابا القاعتين المربعتين المتطرفتين اللذان يطلان على سطح القبلة ، وكان كل منهما معقودا بعقد شبيه بعقود الرواق ، يتكىء عـلى عمودين ، وردى اللون كذلك ، ملتصقين بالجدار •

وهكذا كانت تلك الواجهة رائعة المظهر ، لا فحسب ، من أشكال عقودها وازدهار زخارفها وألوان أعمدتها ، بل كذلك من تناسب أجزائها ، ومن تلاعب الاضواء والظلال عليها ، ومن التناسق بين فراغاتها ، فتحات العقود والابواب ، وبين أجسادها ، الجدران والعقود والاعمدة . وأغلب الظن أنه كانت تنتصب على جانبى هذه الواجهة قبتان صغيرتان ، تتوج كل منهما غرفة من الغرفتين المربعتين المتطرفتين ، وكان مظهرهما يزيد ابداعا منظر الواجهة .

كانت تمتد ، كما سبق أن ذكرت ، مبان عن يمين تلك الواجهة ويسارها ، وعلى خط مستواها ، هى الفصلان شرقا ودار الجند غربا . وكانت تلك الواجهة تطل على شرفة كبرى طولها سبعون مترا وعرضها أربعون ، هى المعروفة « بسطح القبلة » . وكانت تتوسط هذا السطح « دار الرخام » أو « المجلس القبلى » ومساحتها مربعة تقريبا ، ضلعها عشرون مترا . وقد استمدت هذه الدار اسمها من وفرة الرخام الذى استخدم تبليطها وكسوة جدرانها . وكانت تشمل ثلاثة أبهاء ممتدة من الشمال الى القبلة ، أوسطها أوسعها ، يقرب عرضه من ستة أمتار ونصف المتر ، فرشت أرضيتها ، مثل بقية أجزاء « سطح القبلة » بقطع كبيرة مربعة من الرخام . وأغلب الظن أن جدران « دار الرخام » كانت قصيرة ، وكانت سقفها محمولة على عمد من كل جانب من غير عقود ، فكانت مفتوحة من جهاتها الاربعة ، وكانت منظرا من المناظر المرموقة فى مدينة الزهراء .

وكانت تحيط بدار الرخام أرصفة ومبان صغيرة ، كما كان يحيط بها برك أربع ، تتوسط « البحيرة » ، أو « البركة الكبرى » ، المسافة بينها وبين « دار الملك » . وهى بركة عظيمة ، سبق أن أشرت اليها ، وهى شبه مربعة ، طول ضلعها عشرون مترا ، وكانت حافتها العليا فى مستوى أرضية

« دار الملك » ، ولكنها تعلو عن أرضية السطح بمقدار متر ونصف المتر • والبرك الثلاث الاخرى ، شبه مربعة كذلك ، ولكنها أصـــغر حجمها ، اذ لا يتعدى ضلع الواحدة عشرة أمتار • وتقع كل واحدة منها على جانب من جوانب « دار الرخام » الثلاثة الاخرى • وكانت البركة الكبرى تستخدم للسباحة ، وكانت البرك الصغرى تربى فيها الاسماك •

تقع تلك المجموعة من « دار الملك » على شرفة كبرى طولها أكثر من ٢٢٠ مترا من شرق الى غرب ، وعرضها ١٢٠ مترا ، وكان « سطح القبلة » والرياض المحيطة به يحتل من هذه المساحة ١٤٠ مترا من شرق الى غرب ، وسبعون مترا من شمال الى جنوب • وكان هذا السطح يهبط عن مستوى المدينة العليا بمقدار عشرة أمتار • وكانت تحد هذا السطح ، شرقا وغربا ، أسوار ضخمة ذات دعامات ، وكانت الرياض والبساتين تمتد خلف الاسوار الغربية ، وكان يمتد طريق منحدر خلف الاسوار الشرقية ، وكان المسجد الجامع يقع فى طرف هذا الطريق ، وكان يصله ، كما ذكرت ، ساباط بدار الملك • وكانت تلك المجموعة تحدها شمالا سور يقع خلـــف « دار الملك » وأمام « السطح المرد » ، وكان ارتفاعه أحد عشر مترا • أما من ناحية الجنوب فكان يحد « السطح » طريق عظيم ممتد من شرق الى غرب • وكان سور عال ينتصب فى محاذاة هذا الطريق ويتوسطه « باب السدة » الذى كان يصل بين المدينة الوسطى والمدينة السفلى • وكان هذا الطريق يتصل بالطريق الشرقى المنحدر •

وكانت الرياض والبساتين الواقعة فى غربى مجموعـــة « دار الملك » تشتمل على مجموعة من البرك الصغيرة المدرجة المتصلة بشبكة من السواقى والقنوات المعدة لرفع المياه وتصفيتها ونقلها • ولا شك فى أن تنسيق هذه الرياض كان رائعا ، اذا ظلت ذكراها قائمة الى اليـــوم ، ولا شـــك فى أن البساتين كانت تحوى بدائع الزهور والثمار والفواكه •

لا يستطيع المرء أن يتخيل الروعة التى كانت تفرضـــها على النفس « دار الملك » والمبانى والبرك ودار الرخام والبساتين والرياض والارصفة والطرق والاسوار المحيطة بها ، ولا منظر الفخـــامة والابداع التى كانت تبدو عليه (٥٧ أ) • غير أن أطلالها تشهد بمظاهر تلك الروعة وهذا الابداع وتثير ذكراها البعيدة ، بالرغم من أن مساحات شاسعة منها لم يكشف عنها بعد ، وما تزال أنقاضها ترقد تحت التلال • لقد صدق الرواة حين قالواأن مدينة الزهراء « من المدن الجليلة العظيمة القدر »(٥٧) ، وحين ســـجلوا وصفها وأبعادها وأقسامها ومجالسها ، وصدقوا ، كما رأينا ، فى وصفهم لمسجدها الجامع،ولم يغالوا فى قولهم ان « دار الملك » أو «قصر الزهراء»، المتناهى فى الجلالة والفخامة ، أطبق الناس على أنه لم يبن مثله فى الاسلام البتة ، وما دخل اليه قط أحد من سائر البلاد النائية ، والنحل المختلفة ، من ملك وارد ، ورسول وافد ، وتاجر وجهبذ ••• ، الا وكلهم قطع بأنه لم ير له شبها ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثـــله ، حتى أنه كان أعجب ما يؤمله القاطع الى الاندلس فى تلك العصـــور النظر اليـــه والتحـــدث عنه »(٥٨) •

(٥)

فخـــامة الزهراء وزخارفها

كان بناء مدينة الزهراء « فى غاية الاتقان والحسن »(٥٩) ، وكانت « من عجائب أبنية الدنيا »(٦٠) ٠ وأول ما يلاحظ من مشاهدة أطلالها تلك العناية الفائقة التى بذلت فى انتقاء مواد البناء وصقلها ورصـــها وتنظيمها وهندمتها ، لا بالنسبة لحسن مظهـــرها فحسب ، بل احـــكاما لتماسكها وضمانا لطول عمرانها ٠ لم تكن مدينة الزهراء « منظرا » عابرا لفترة من الزمن ، أو لجيل من الاجيال ، بل كانت بناء أريد له البقـــاء ٠ وليس أدل على ذلك من أن جدرانها بنيت بنيان القلاع ، اذ بلغ سمكها مترا أو يزيد ، بالرغم من قلة ارتفاعها ٠ وتبدو العناية الفائقة فى انتقاء مواد البناء ممـــا عثر عليه من قطع الحجارة التى أسماها المؤرخون « الصخر المنحوت » ، والذى كان ينفق منه فى كل يوم « ستة آلاف صخرة » ، ومما تبقى من قطع الرخام التى ذكر المؤرخون أن عبد الرحمن الناصر كان « يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير ، سوى ما كان يلزم على قطعها ونقلها ومؤونة حملها »(٦١) ٠

وترى آثار الرخام فى كل مكان ، فى القصـــور والمجـــالس والمناظر والسطح والارصفة والممرات ، منه قطع صغيرة ، ومعظمـــه قطـــع كبيرة مربعة ، ضلع الواحدة متر ، ومنه أرضية فـــرشت ، أو كســـوة ألصـــقت بالجدران (٦١ب) ، ومنه عتبات أبواب واطارات وأفاريز ولوحات منحوتة بشتى الزخارف ٠ وكذلك استخدم الاجر ، فى مناطق ، واعتنى بصـــنعه وحرقه وتنظيمه ، واتخذ عنصرا فى بناء العقود ، يزيدها بهاء ، بتنـــاوب ألوانه الحمراء مع ألوان الحجارة البيضاء(٦٢) ٠

واعتنى بانتقاء أخشاب السقف عناية لا تقل عن العناية بانتقاء بقية المواد ، وكانت معظمها من خشب الصنوبر ، وجميعها محـــلاة بالزخارف المنحوتة الملونة(٦٢ب)•وكانت معظم السقف خشبية،فيما عدا بعض الممرات، مثل ممر دار الجند ، فقد كانت سقفها مبنية بقبوات نصف أسطوانيـــة ، تسندها دعامات وعقود ، وضعت على مسافات متقاربة •

أما الاعمـــدة ، وهى التى يسميها الرواة « الســـوارى » ، فقـــد استخدمت بكثرة فى بناء « الزهراء » ، وكانت جميعها من الرخام المجزع ، بعضها رمادى اللون مائل الى الزرقة ، وهو المقطوع من جبال قـــرطبة ، وبعضها وردى اللون مجزع بالبياض ، مجلوب من منطقة قريبة من قرطبة ، وبعضها ، كما ذكر الرواة ، « مجلوبة من افرقية » ومن بـــلاد الفرنـــج ومن بيزنطة • والاعمدة جميعها « كأنما أفرغت فى القوالب »(٦٣أ) انسيابية البدن ، أى أنها أوسع حلقة فى أسفلها منها فى أعلاها ، اذ يبلغ قطر العمود فى المتوسط أربعين سنتيمترا عند القاعدة وثـــلاثين سنتيمترا عند العنق ، وطول العمود فى المتوسط متران ، يقف على قاعـــدة من الرخام ترتفـــع حوالى ربع متر ، وتتكون من جـــزئين : جـــزء أدنى مربـــع ، منقـــوش بالزخارف ، يعلوه جزء مستدير ، نقشت حوله أحيانا كتابة كوفية جميلة تحمل اسم الناصر • ونص معظم هذه الكتابات هو : « بسم الله ، بركة من الله ، لعبد الله عبد الرحمن (أو الامام الناصر) ، أمير المؤمنين ، أبقاه الله (أو أعزه الله) » ، ويلى هذا النص فى معظم الاحيان ذكر التاريخ وأسماء المتولى لاعمال البناء والقائمين به أو النقاشين • ويرتقى العمود تاج من الرخام كذلك ، ارتفاعه حوالى أربعون سنتيمترا ، شكل على مثال التاج الكورنثى ، ونحت بمهارة فائقة اكتسب معهـــا مظهـــرا يمـــيزه عن الانموذج الكلاسيكى • ويعلو التاج قرمة مربعـــة قصـــيرة ، نقشت على بعض منها كتابة كوفية جميلة مثل الكتابة المسجلة على القاعدة • ويعـــلو

هذه القرمة حدارة من الرخام الابيض المزين بالزخارف المنحوتة ، شكلها هرمي مقلوب ، أعلاها عريض طوله ثمانون سنتيمترا ، وهو ضعف طول أدناها ، وارتفاعها ربع متر ، وهي بمثابة سند ترتكز عليه قدما العقدين المتجاورين •

وتحمل هذه الاعمدة عقودا ، جميعها منفوخة ، تزيد فتحة كل منها عن أربعة أخماس قطر دائرته(٦٣) ، ولكل عقد ساقان طويلان نحتا من قطعة واحدة من الحجارة ، ترتكز على الحدارة ، أما العقود المتجاورة فسيقانها مشتركة ، وليست مزدوجة • وتعلو الساقين احدى عشرة صنجة رفيعة ، يتدرج طولها من سبعين سنتيمترا عند أدنى كتف العقد ، الى تسعين سنتيمترا عند غلقه ، أي رأسه •

وقد روعي أن يحاط العقد باطارين ، اطار منفوخ يضم داخله صنجات العقد ، واطار مستطيل يحصر داخله العقد جميعه ، أو بائكة العقود هي وتواشيحها• وقد روعي كذلك أن تكون العقود،في البناء الواحد، متماثلة ، ارتفاعا وقطرا ونفخا وفتحة ، وأن يكون عدد صنجات كل واحد منها متماثلا كذلك • وكانت هذه الصنجات وسيقان العقود وأكتافها وخواصرها وبطونها كلها مزدانة ممتلئة بالزخارف •

وقد عثر في الزهراء على آثار عقود مقصوصة ومن خمسة فصوص • كما عثر على آثار عقود صم حفرت على الجدران واتخذت شكلا مماثلا للعقود المفتوحة •

وأخيرا كانت تمتد السقف الخشبية ، الزاهية زخرفا وألوانا ، فوق جزء من جدار يعلو اطارات العقود وكانت ترتفع عن الارضية بمقدار ستة أمتار ونصف المتر •

تستمد مدينة الزهراء بهاءها من تناسق كل مجموعة من مجموعات

مبانيها ، وتناسب أجزائها تناسبا يجتــذب الانظار ويبهــرها ، وتكتسب « الزهراء » فخامتها من كثرة الزخارف وتنوعها ، واحتشادها فى كل مكان ، « ما بين مرمر مسنون ، وذهب مصـــون (موضـــون) ، ••• ونقــوش كالرياض »(٦٤) • نحتت هذه الزخارف على الحجارة أو على الرخام ، وهى اليوم تتناثر فى قطع مهشمة ، آلافا على أرضية أطلال القصور ، وقد أصاب المؤرخ فى تشبيه هذه الزخارف بالرياض ، فان معظم عناصرها موحاة من الازهار والاوراق والاغصان ، أو ما يسمى بزخرفة « التوريق » • وكانت ورقة العنب وورقة الاكانتس هما أهم مصدر استلهم منــه النقاشـــون أشكالهم الزخرفية • وقد تنوعت هذه الورقات ، وتعــددت شــحماتها ، وتخللتها الخروم والنقور ، واكتسبت رقة ورشاقة من انثنائها أو انتصابها، ومن أنعطافاتها الامامية والخلفية ، ومن تقابلها وتعارضها •

وتنوعت العروق والسيقان والاغصان ، شكلا وحركة • أما من حيث الشكل ، فانها قلما تظهر منفردة ، ومعظمها مزدوج ، حز فى وسط الساق خط رفيع امتد معه كأنه قناة قسمته الى ســاقين • وتارة نلقى الســيقان مضفرة ، أو متفرعة الى فرعين أو أكثر ، وتارة نلــقى الغصن محشـــوا باللالى أو البراعم • وأما من حيث الحركة ، فهى أحيانا رشيقة خفيفة ، وأحيانا شديدة عنيفة ، وهى دائما فى دواب منتظم واضطراد ، كأنها نظم من الشعر أو توقيع من الموسيقى ، تشـــدو أوزانها ونغماتها من تموجات الاغصان والسيقان ، تارة فى صعود ، وتارة فى انحدار • وغالبا ما يحتضن البعض بعضا ، أو تتعانق ، وتتشابك ، تشابكا واضح المعالم أحيانا ، معقدا أحيانا أخرى تعقيدا يحير النظر ، ويطيل التأمل •

وتتكون من جميع هذه التشكيلات مجموعات زخــرفية كأنها باقات ، تخرج منها الوريقات يمنة ويسرة ، بحيث تملأ المســطحات ، وتختــفى

الفراغات • وكثيرا ما تمتزج بهذه الباقات وتتخللها عناقيد العنب أو ثمار الصنوبر أو سعف النخل أو زهيرات ووردات • ونظمت هذه المجموعات فى أشكال متجددة ، أملاها اتساع مجال الخيال عند النقاشين والمزوقين ، اذ قلما نجد فيها شكلا معادا ، أو مكررا •

والى جانب زخرفة التوريق انصب هذا الخيال على مجالات أخرى ، فى الاشكال الهندسية وفى الكتابات الكوفية وفى التيجان والالوان ، وسيجد القارىء دراسة مفصلة لهذه الخصائص الزخرفية فى القسم الخاص بالزخرفة من الجزء الثانى من كتابنا هذا •

وقد روعى فى منحوتات « الزهراء » أن تصاغ حواف الاوراق والاغصان بشكل حاد ، وأن يكون تجسيدها قليل البروز ، وأن تكون بطونها مجوفة ، تمتد فيها العروق والقنوات • كل ذلك نحت أو حفر بعناية فائقة وحذق للصناعة واضح ، بحيث يظهر كل عنصر مستقلا ، مهما صغر حجمه، وبالرغم من تشابكه بالعناصر الاخرى ، وبحيث تزداد أشعة النور المسلطة على الاطراف البارزة ، من تعارضها مع الظل القائم المنحدر على التجاويف ، وبحيث تكتسب المجموعة الزخرفية روحا من الحياة يزيدها بهجة ورقة ، وبحيث لا يمل النظر من متابعتها •

وقد أدعى بعض الكتاب وعلماء الاثار أن زخارف « الزهراء » مستمدة من الفن الهلينستى البيزنطى ، وأن نقاشين قدموا من بيزنطه عند شروع عبد الرحمن الناصر فى بناء مدينته واصطحبوا معهم نماذج بيزنطية، وعلموا الحرفة فريقا من أهل قرطبة • وهكذا فى رأى هؤلاء العلماء ، اتسعت مدارك النقاشين الاندلسيين وتهذب خيالهم • ومثل هذا الادعاء يحتمل المناقشة والنقد والرد ، ولكنا اذا افترضنا جدلا صحته فانه يتعين ابداء الرأى فى قيمة هؤلاء النقاشين الاندلسيين الشخصية ، وفى مدى

مقدرتهم على اكتساب أسرار الحـرفة واسـتيعاب دروس أسـاتذتهم البيزنطيين • ولا مفر ، مع هـذا الافتراض ، من الاعـتراف بأن هـؤلاء النقاشـين الاندلسيين لم ينجحـوا فحسب فى تعـلم تلك الاسرار وتلك الدروس فى فترة وجيزة من الزمن ، بل أتقنوها اتقانا مذهلا ، وتفوقـوا فيها تفوقا ساطعا ، وأبدعوا اخراجها فى أشـكال تتميز فيها عن النماذج التقليدية ، وبثوا فيها حياة عـربية صميمة ، لا هلنيستية ولا بيزنطيـة ، وخلقوها خلقا جديدا • وهذا ما اعترف به علماء الاثار أولئك أنفسهم(٦٥)•

ومما يزيد الدهشة ويرفع التقدير ، اذا قبلنا هـذا الافتراض ، أن الامر لم يقتصر على نقاشين معدودين ، تتلمذوا على أولئـك الاسـاتذة البيزنطيين المفترضين ، بل أن أفواج النقاشين الذين كانوا محتشدين فى « الزهراء » لكسوتها بهذه الكسوة الثمينة البهية قد أثبتوا جميعا « أنهم راتقوا الى قمة العباقرة »(٦٦) • وهذا وحده يكفى لدحض هذا الافتراض والافتراء ، وليس من شك فى أن هؤلاء « العباقرة » قد ورثوا الحرفة عن آبائهم وأجدادهم ، وتسبعوا بالروح الفنية الاصيلة منذ نشأتهم •

حـــواشي الفصـــل الســـادس

(١) أوفى بحث كتب حتي الان عن مـــدينة الزهراء هـــو الفصـــل الذي خصصـه (توريس بلبلس) فى القسم الخاص بالفن الاسلامى من الجزء الخامس من كتاب « تاريخ اسبانيا » صفحات ٤٢٣ الى ٤٦٣ .

L- Torres Balbas, Ar eccaliFal in Tomo HisToria de Espana, paı Ramon menendez pidal, Madrid, 1965, pp- 331 - 188 .

وتنظر الحاشية (٣٧) صفحة ١٥٢ فيما يلى .

(١ب) صفحتا ٦٥ و ٦٧ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٢) ينسب الى عبد الرحمن الناصر نظمه :

همم الملوك اذا ارادوا ذكـــرها　　　من بعدهم فبالسن البنيان

ان البنـــاء اذا تعـــاظم قـــدره　　　اضحى يدل على عظيم الشـــان

تنظر صفحة ٦٢ من المرجع المشـار اليه فى الحاشية السابقـــة ، وروى المقرى ، فى صفحة ٦٥ ، أن الناصر بنى المدينة تحقيقا لامنية جاريته الزهراء ، وكان يحبها حبا شديدا ، وأنه « نقش صورتها على الباب » .

(٣) صفحة ٣٣٧ من الجزء الاول ، وصفحة ٦٥ من الجـــزء الثـــانى من المرجع السابق ، وصفحة ١٧٥ من « نزهة المشتاق » للادريسي ، طبعة ليدن ، سنة ١٨٦٤ .

(٤) صفحة ٦٥ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٤ب) تنظر الحاشية (١٥٧) ، صفحة ١٥٦ فيما بعد .

(٥) صفحة ١٠٨ من « صورة الارض » لابن حوقل ، وطبيعي أن الابنية ملأت الطريق بعد ازدهار المدينة الجديدة ، وروي ابن حوقل فى صفحة ١٠٧ أن الناس كانوا يتسارعون الى بناء الديار لان الناصر كان يمنــح اعانة قـــدرها أربعمائة درهم لكل من يبنى دارا « بجواره » .

(٦) ٢٠٣ من الجزء الرابع من « نفح الطيب » للمقرى .

(٧) صفحة ١٠١ من المرجع السابق . وقد نقل المقرى روايتــه عن ابن حيان ، وحققها معظم المؤرخون ، مثل الادريسى وابن عذارى والحميرى وابن

الخطيب ، ولم يشذ عنهم غير النويرى الذى ذكر فى صفحة ٦٢ من الجزء الاول من « نهاية الارب » أن مدة البناء اقتصر على اثنتى عشرة سنة ، وهو خطأ وقع فيه المؤرخ . اذ انه اكتشفت بالزهراء نقوش كتابية من عهد الناصر تحمل تواريخ ، منها سنة ٣٤٥ ، أى بعد عشرين سنة من بداية البناء ، والمعروف كذلك ، كما سنرى ، أن الحكم المستنصر بالله أقام فيها منشئات اثناء عهده ، وكشف كذلك عن نقوش كتابية بعضها يحمل اسمه والبعض الاخر يحمل تواريخ ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٣ و ٣٦٤ . ينظر : جيمنيث ، من الزهراء ،

M . OCana Tımenez .

Capitales epıgraFiados de Madina al - zahra, Al Andalus, 1936 -39, pp,

(٨) ورقة ١٨١ من القسم الرابع من « المقتبس » لابن حيان ، مخطوطة الرباط ، عن نجله العزى ، صفحة ٤٤ ، تنظر الحاشية (٣٦) صفحة ١٥٢ ، فيما بعد .

(٩) صفحة ١٠١ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(١٠) صفحة ١٠٤ من المرجع السابق ، وصفحة ٣٤٥ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(١١) صفحتا ١٠٣ و ١٠٤ من الجز الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(١٢) صفحة ٣١ من « فرحة الانفس فى تاريخ الاندلس » لابن غالب الاندلسى ، والواقع أن هذا العدد ينصب على أولئك الذين كانوا يعملون فى المسجد الجامع بالزهراء فقط ، تنظر صفحة ١٢١ فيما يلى .

(١٣) صفحة ٦٧ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(١٤) صفحة ١٠٥ من المرجع السابق .

(١٥) صفحة ٦٧ و ١٠٠ الى ١٠٤ من المرجع السابق .

(١٦) شرحه .

(١٧) صفحة ٦٦ و ١٠٢ من المرجع السابق .

(١٧ج) صفحة ٢٣٢ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(١٨) صفحة ٢١٥ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

ومما يؤكد ذلك أنه عثر على قطع من العملة ضربت فى الزهراء . تحمل تواريخ ٣٣٩ و ٣٤٢ و ٣٤٨ واسم الخليفة الناصر ، كما عثر على قطع اخرى تحمل اسم الخليفة الحكم المستنصر بالله . واستمرت دار السكة فى الزهراء تضرب فيها النقود ، وقد عثر على قطع من العملة تحمل تاريخ ٤٠١ (١٠٠٩) .

(١٩) صفحة ١١٢ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٢٠) صفحة ١٠٨ من « صورة الارض » لابن حوقل .

(٢١) صفحة ٣٥٢ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٢٢) صفحة ٢١٢ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٢٣) صفحة ٣٤١ من الجزء الاول من « نفح الطيب » ، وصفحة ٢٦٠ من الجزء الثانى من « أزهار الرياض » للمقرى . هذا وقد حدد ابن عذارى تاريخ هذه السفارة فى سنة ٣٣٤ ، تنظر صفحة ٢١٣ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » .

(٢٤) صفحة ٢١٥ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٢٥) صفحة ٣٤٢ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٢٦) صفحتا ٣٦٣ و ٣٦٤ من المرجع السابق .

(٢٧) تنظر صفحة ١٤٣ فيما يلى من كتابنا هذا ، وتنظر خاصة صفحات ٤٤ الى ٥٧ من القسم الخامس من « المقتبس » لابن حيان .

(٢٨) صفحة ٢٥٣ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٢٩) صفحة ٩٥ من المرجع السابق .

(٣٠) صفحة ٢٨٢ من القسم الاول ، المجلد الاول ، من « الذخيرة » لابن بسام ، وصفحة ٥٥ من الجزء الاول من « المغرب » لابن سعيد .

(٣١) ١١١ من القسم الاول ، المجلد الثانى ، من « الذخيرة » لابن بسام .

(٣٢) صفحة ١١ من « قلائد العقيان » لابن خاقان ، وصفحة ١٥٢ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » .

(٣٣) ١٧٥ من الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٣٤) صفحة ١٣٧ من كتاب « قرطبة » لمؤلفه (توريس بلباس) .

(٣٥) « حفائر مدينة الزهراء » لمؤلفه (بلاثكيث بوسكو) .
Ricardo velasquez- Bosco, Excavociones en Madına Azzahra, Madrid 1923.

(٣٦) قدمت السيدة نجله اسماعيل العزى ، فى سنة ١٩٦٩ ، رسـالة للحصول على درجة الماجستير فى الاداب من جامعة بغداد ، عنوانها « قصر الزهراء فى مدينة الزهراء » ، وكان لى حظ الاشراف على اعداد هذه الرسالة وتوجيه صاحبتها . وفى الرسالة ، من صفحة ٣٧ الى صفحة ٤٣ ، فصل عن « تاريخ الاستكشافات الاثرية فى مدينة الزهراء » شرحت فيه السيدة نجـله مراحل هذه الاستكشافات شرحا وافيا .

(٣٧) استخلصت البيانات التى أقـدمها فى هـذا القسم من الفصـل السادس من دراساتى للاثار على الطبيعة ، فى مدينة الزهراء نفسها ، ومقارنة هذه الدراسات بالنصوص الواردة فى كتب المؤرخين العـرب وبالنتائـج التى سجلها العلماء الاسبان من أعمال التنقيبات الاثرية فى أطلال المـدينة . وبيان هؤلاء وأولئك هو : ابن حيان : القسم الخامس من « المقتبس » ، صفحات ٢٢ الـى ٢٨ و ٤٤ الـى ٥٣ و ٧٦ و ١٣٧ و ١٨٠ و ١٨١ و ١٩٣ الـى ١٩٩ ، الادريسى : « نزهة المشتاق » ، صـفحة ٢٢٢ ، وابن عـذارى : « البيـان المغرب » ، صفحات ٢٠٩ و ٢١٢ و ٢١٥ و ٢٣٢ و ٢٤٠ و ٢٤١ و ٢٩٩ من الجزء الثانى ، والحميرى : « الروض المعطار » ، صفحتا ٦٥ و ٩٥ ، ، والمقرى: « نفح الطيب » صفحات ٣٤٣ و ٣٤٤ و ٣٥٢ و ٣٦٣ الى ٣٦٩ من الجزء الاول ، وصفحات ٦٢ و ٦٤ الى ٦٨ و ١٠٠ الى ١٠٢ و ١٠٨ و ١١١ و ١١٢ و ١١٨ من الجزء الثانى ، والمقرى : « أزهار الرياض » ، صفحات ٢٤٠ و ٢٥٨ و ٢٦١ الى ٢٦٨ و ٢٨٠ و ٢٨٦ ، والنويرى : « نهاية الارب » ، صفحات ٦٢و٦٣و٦٥.

ومـؤلفات (كاستيخـون) و (بافـون) و (تـوريس بلبـاس) و (بلاثكيث بوسكو) المبينة أسماؤها فى المراجع فى آخر هذا الجـزء الاول من كتابنا . هذا وقد ترجمت السيدة (روزاريو كاسيخون) الى اللغة الاسبانية النصوص العربية الواردة فى كتب المؤرخين ، ونشرتها فى سنتى ١٩٥٩ و ١٩٦٠، فى مقالين من مجلة « الملك » التى تصدر فى قرطبة :
Rosario (as Tejon; Madinat Azz Ahro en los autores arabes Al-Mulk, Cardoba, 1959-60, 1960-61.

(٣٧ أ) صفحة ٢١٢ من « نزهة المشتاق » للادريسى .

(٣٧ب) صفحة ١٠٤ من للجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٣٨) ذكر المقرى فى صفحة ١٠٨ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » أن هذه القبة سميت « القبيبة » للخصوصية .

(٣٨ب) كانت هذه الابواب خشبية ، وكانت تفتح وتغلق عند الحاجة ، وقد كشف فى ارضية الابواب على ثقوب الاعقـــاب التى كانت تدور عليهـــا المصـــاريع .

(٣٩) ليس « المجلس الغـــربى » هـــو « قصر الخـــلافة » كما كان يظن (بلانكيث بوسكو) ، فقد تبت أنه ليس فى أطلال هذا المجلس اى أثر يستدل منه على أنه كان به عقود ، أو كما يقول ابن حيان ، « حنايا » ، ينظر جوميثمورينو ، الفن الاسلامى ، الترجمة العربية صفحة ٨٢ . وبالتالى فلم يكن هذا « المجلس الغربى » يحتوى « صهريج الزئبق » المشهور ، كما جاء فى صـــفحة ٢٤٠ من كتاب « قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس » للدكتور السيد عبد العزيز سالم . أما قصر الخلافة الذى كان به هذا الحوض فسنشير اليه بعد قليل .

(٤٠) صفحتا ٦٧ و ٦٨ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٤١) شرحه وصفحة ١٠٤ من نفس المرجع .

(٤١ب) كانت فخامة مدينة الزهراء تبهر السفراء الذين قدموا اليها ، لانهم كما سنرى فيما بعد ، (الحاشية ٥٨ صفحة ١٥٦) ، لم يشاهدوا نظيرا لها فى بلادهم ، ولا شك فى أن الدهشة كانت تأخذ هؤلاء الســـفراء كـــذلك من مشاهدة المرافق الصحية والحمامات بالمدينة ، اذ لم تكن قصور أوربا جميعا ، ولا مدنها ، تعرف حينذاك مثل هذا النظام المحكم لتلك المرافق الذى يهيأ فيها أنابيب تتدفق منها المياه ، ومجار تنزح منها الفضلات .

(٤٢) صفحة ٦٢ من « نهاية الارب » للنويرى .

(٤٣) صفحة ٢١٢ من « نزهة المشتاق » للادريسى . وكانت تربى الاسماك فى هذه البحيرات ، ذكر المقرى فى صفحة ١٠٤ من الجـــزء الثانى من « نفـــح

الطيب » أنه « كان يخبز فى كل يوم برسم حيتان (أى أسماك) البحيرات ثمانمائة خبزة » .

(٤٤) صفحة ٥٠ من « مطمح الانفس » للفتح بن خاقان .

(٤٥) صفحة ٣٦٦ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى ، وصفحة ١٩٧ من القسم الخامس من « المقتبس » لابن حيان .

(٤٦) صفحة ١٤٤ من الجزء الرابع من « كتاب العبر » لابن خلدون ، وصفحة ١١٢ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٤٧) قام الاستاذ « بافون » بأعمال التنقيب عن المسجد الجامع فى الزهراء وكشف عنه كما ذكرنا فى سنة ١٩٦٤ ، ونشر فى سنة ١٩٦٦ بحثا عن هذا الكشف مزودا بالرسوم التخطيطية والصور :

pavon, Basilio, Las excavaciones de le Mazquita de Madinat al- zahra Madrid, 1966 .

(٤٨) صفحة ١٠٠ و ١٠١ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » .

(٤٩) وذلك لانه ذكر أن عرض بيت الصلاة تسع وخمسون ذراعا وعرض البهو واحد وأربعون ذراعا .

(٥٠) يلاحظ أن ابن الفرضى اقتصر على ذكر المقاسات الداخلية ولم يشر الى قدر المقاسات الخارجية .

(٥١) الارقام التى نوردها هنا تقريبية ، تيسيرا للشرح .

الواقعية فهى :

علما بأن عرض البلاطات والاساكيب لا تحتسب فيما بين الاعمدة ، بل من مركز مواضعها .

(٥٢) حدد ابن الفرضى مقاس ضلع الصومعة بعشرة أذرعة ، ومعنى هذا أن الذراع يعادل خمسة وخمسين سنتيمترا ، واذا احتسبت مقاساته على هذا الاساس ، كانت جميعها متقاربة من المقاسات الواقعية ، فيما عدا تحديده لطول « الصحن » من القبلة الى الجوف بثلاثة وأربعين ذراعا واقربها الى الصحة ٥٣ ، وتحديده لطول بيت الصلاة « من القبله الى الجوف ، حاشا المقصورة » ، بثلاثين ذراعا والاقرب الى الصحة ٤٥ .

(٥٣) ذكر ابن الفرضى أن المقصورة كانت « عجيبة الصنعة » ، وانها خارجة عن بيت الصلاة ، لانه حدد طول بيت الصلاة من القبلة الى الجوف « حاشا المقصورة » ، أى أنها خارجة عن جدار القبلة ، وقد كشف من جهة أخرى عن آثار « الساباط » ، وهو ممر مسقوف خاص بالخليفة ، يربط بين دار الملك وهذه المقصورة .

(٥٤) حاولت السيدة نجلة العزى ، فى الرسالة التى أشرت اليها فى الحاشية ٣٦ ، صفحة ١١٧ فيما سبق ، أن تبرهن أن « دار الملك » كانت تسمى « قصر الزهراء » ، والادلة التى استندت اليها فى هذا مرجح صحة رأيها، غير أنى أفضل استخدام تعبير « دار الملك » اسما لمجلس عبد الرحمن الناصر ، لمنع الالتباس بينه وبين « مدينة الزهراء » ، خاصة وان الرواة كثيرا ما أطلقوا هذا الاسم ، أى « دار الملك » ، على هذا الجناح من « المدينة » .

هذا ويسرنى أن أقرر أن رسالة السيدة نجلة قد أعانتنى فى جمع مادة هذا القسم من « مدينة الزهراء » ووفرت من جهدى فى مراجعة هذه المادة على الطبيعة .

(٥٥) لست اوافق السيدة نجلة العزى فيما ذهبت اليه من أن « دار الملك » بنيت قبل هذا التاريخ ، وأن الناصر استقبل فيها ، سنة ٣٣٨ (٩٤٩) ، سفارة امبراطور بيزنطة ، وأن أعمال الزخرفة والنقش قد تمت فى فترة لاحقة، أى بين سنتى ٣٤٢ و ٣٤٥ . اذ أنى أعتقد أن نقش قواعد الاعمدة وقرمها ، الذى تم بلا شك فى هذه الفترة ، كان سابقا لتركيب الاعمدة فى البناء ، لانه من الضرورى ان يسبق نقش قواعد الاعمدة وتيجانها وضعها فى أماكنها ثم بناء العقود والسقف ، وبالتالى بناء الدار جملتها .

(٥٦) نقل الحكم المستنصر بالله مجلسه من « دار الملك » الى المجلس الشرقى ، وجعلها « دار الوزراء » ، وجعل فيها مجلسا لابنه هشام يتلقى العلم فيه . ولهذا فتح فى هذه القاعة المربعة الشرقية بابا خامسا اختصارا لطريق ابنه من القصر الشرقى الى هذه الدار ينظر القسم الخامس من « المقتبس » لابن حيان .

(٥٧) صفحة ٩٩ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٥٧أ) أشاد الشعراء بفخامة الزهراء وبهجتها ، تنظر مثلا صفحتا ١٧١ و ٢٠٠ من « ديوان ابن زيدون » شرح محمد سعيد الكيلانى .

(٥٨) صفحة ١٠١ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى . وجدير بالذكر ما كتبه العلامة الاثرى الاسبانى توريس بلباس فى صفحة ١٣٤ من كتابه « مسجد قرطبة والزهراء » من أنه « ليس فى عواصم العالم الاوربى بنساء يقارن ، حتى من بعد ، بفخامة بناء مدينة الزهراء ، تلك المدينة التى خلقت كأنها أعجوبة » . وقد سجل فى الصفحة التالية من كتابه ، مثل ما سجله ابن بشكوال ، من قبل ذلك بثمانمائة سنة ونقله المقرى فى الصفحة المشار اليها فى صدر هذه الحاشية ، من أن « الرحالة من مختلف الاقطار قد أكدوا ، هم والامراء والسفراء والتجار والحجاج والكهنة والشعراء ، أنهم لم يروا قسط أثناء رحلاتهم ، مدينة مثل مدينة الزهراء ، التى يتعدى وصفها حدود الخيال ».

I. Torres Balbas, La mazquita de Cordoba ymadinat AL- zahra

(٥٩) صفحة ٦٨ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٦٠) صفحة ٦٥ من المرجع السابق . اكدت نتائج التنقيبات التى أجريت فى مدينة الزهراء ، كما رأينا ، صدق وصف المؤرخين لها ، وسردهم لتاريخها . وفى هذا برهان ساطع على أن روايات المؤرخين العرب صادقة دقيقة ، وان الاخطاء التى وقعت فيها ترجع معظمها الى خطأ فى نقل النساخ ، ويرجع بعضه الى ضعف فى السند التاريخى .

(٦١) صفحة ٦٧ من المرجع السابق .

(٦١ب) وكانت هذه الكسوة الزخرفية المنحوتة على لوحات حجرية أو رخامية رقيقة ، تعلو وزرة من الرخام الابيض ، ملساء من غير زخرفة ، الصقت لوحاتها ، التى ترتفع نصف متر ، حول أسفل الجدران . كما كانت ارضيات القاعات والابهاء مغطاة هى الاخرى بلوحات كبيرة من الرخام أو الحجارة أو الاجر ، مختلفة الالوان ، بيضاء وصفراء وزرقاء ، منسقة فى أشكال هندسية رائعة .

(٦٢) كانت جدران بعض القاعات والممرات مكسوة بغطاء جصى ملون ، بدلا من الرخام أو الحجارة ، وكان يغلب على هـذا الغطاء اللونان الاحمر والاصفر الداكن ، وكانت المادة الجصية ناعمة ملساء السطح ، بحيث يثبت الطلاء الملون عليها . وقد اختفت معظم هذه الالوان ، ولكن آثارا منها ما زالت ثابتة على جدران الممرات الارضية ، وترى عليها أجزاء من زخارف هندسية بديعة ومنوعة . واذا علمنا أن هـذه الممرات كانت ثانوية بالنسبة لمبانى الزهراء ، فيمكننا أن نتصور مدى الفخامة التى كان يبدو عليها طلاء الاجزاء العليا من القاعات الرئيسية .

(٦٢ب) لم يتبق شىء من أخشاب الزهراء ، أو لم يكشف بعد عن شىء منها ، والذى كشف عنه رماد التهمته الحريق — ومع ذلك فقد استطاع الاستاذ فيليث هرنانديث أن يحقق صورة سقف « دار الملك » ويحاول تجديدها بالمقارنة بما تبقى من سقف المسجد الجامع . ينظر القسم الخاص بهذه السقف فى الجزء الثانى من كتابنا هذا « مسجد قرطبة الاعظم » ، وتنظر مقالة الاستاذ فيليث عن هذه السقف : Felix Hernandez : La Tachumbra de la epam Mazquita ALjamade Cordoba Archivo Eopanal de Azte yAycheolagıa Toma Madrid, 1928, pp. 202 - 222.

(٦٦٣) صفحة ١٠٢ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى ، عن ابن بشكوال .

(٦٣) طول القطر ١٩٠ سم ، وارتفاع الفتحة من منبت العقد الى بطنه ١٥٠سم ، وقد ترتب على نفخ العقد بهذه النسبة ، وعلى تزويد الاعمدة بقواعد وتيجان وقرم وحدارات أن ارتفع بطن العقد عن سطح الارض أربعة أمتار ونصف المتر ، أى ما يزيد كثيرا عن ضعف ارتفاع الاعمدة . ينظر أهمية هـذا الابتكار واحكامه فى القسم الخاص بالعقود من الجزء الثانى من كتابنا هذا .

(٦٤) صفحة ١٠١ و ١٠٢ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى ، عن ابن بشكوال .

هذا ويجد القارىء دراسة تفصيلية لزخارف « مدينة الزهراء » فى الفصل الخاص بالزخرفة من الجزء الثانى من كتابنا هذا « مسجد قرطبة الاعظم » .

(٦٥) صفحة ٩٧ من كتاب « الفن الاسبانى المغربى » لمــؤلفه (تراس) ، وفيها يعترف المؤلف بأن « النحاتين الذين اشتغلوا بمــدينة الزهــراء كانوا متمكنين تماما من اسرار مهنتهم » :

"étàient en pleine possession de leur art".

(٦٦) نفس الصفحة من المرجع السابق ، وفيها يعترف المؤلف ، وهــو الذى كان يدافع عن راى الاقتباس من الفن الهلينستى البيزنطى وافترض قدوم الاساتذة من بيزنطة ، بأن النقاشين الاندلسيين :

a S'élevoient sons effort jusqu'a la virtuosité"

« ارتقوا بدون جهد الى العبقرية » .

ويؤيد هذا الحكم جميع علماء الاثار الذين كتبوا عن مدينة الزهراء مثــل (مارسيه) و (جوميت مورينو) و (توريس بلباس) .

الفصـــل الســابع

أهــل قرطبة ومعاشهم

١ ـ العرب والمولدون والمستعربون واليهود •

٢ ـ عــدد الســكان •

٣ ـ طبقة الخاصة وطبقة العامــة •

٤ ـ فضائل أهــل قرطبة ورذائلهم •

٥ ـ المشارب والمطاعم ، والمتاجر والمصنوعات •

٦ ـ النقـــود •

٧ ـ المـــلابس •

٨ ـ الحفـــلات •

٩ ـ المحن والنكبـــات •

الفصـــل الســـابع

أهــل قرطبة ومعاشهم

(١)

العرب والمولدون والمستعربون واليهـود

كانت الطبقة السائدة فى قرطبة قبل الفتح الاسلامى قوطاً مسيحيين، فلما دخلها العرب والبربر أصبح أهل قرطبة ، أول الامـر ، خليطا مـن الاجناس والاديان • وكان عدد الطليعة الاولى من الوافدين الى الاندلس يقدر بعشرين ألفا من البربر وعشرة آلاف من العرب ، ثم تبعتهم طلائـع أخرى كبيرة من المهاجرين من هؤلاء وأولئك • وبينما استقر معظم العرب فى قرطبة ، تفرق معظم البربر فى غيرها من بلاد الاندلس • وأخـذ عنصر العرب يزداد سنة بعد سنة بالوافدين من المشرق • كانت الطليعة الاولى من العرب الذين قدموا مع طارق بن زياد وموسى بن نصـير ، ومعظمهم من قبائل قيس وكلب ، ثم مع الحر بن عبـد الرحمن الثقفى فى سنة ٩٧ (٧١٦) ، يطلق عليها اسم « البلديين » • واستمر سيل الهجرة من العرب يتدفق طيلة خمسين سنة • ومن ذلك ، تلك الطليعـة الثانية ، وهم الذين أطلق عليهم اسم « الشاميين » ، لان معظمهم كان من جند الشام ، التى قدمت مع بلج بن بشر ، سنة ١٢٣ (٧٤١)(١) •

لم تذكر المصادر التاريخية عدد من دخلوا قرطبة من هذه الطلائـع والافواج الاولى التى دخلت الاندلس ، والتى تقدر بنصف مليون نسمة • ولكن الذى لا شك فيه أن قرطبة صارت منذ بداية الفتح ، وقبل غيرها من مدن الاندلس ، أو أكثر منها جميعا ، مدينة عربية اسلامية ، وأخذ هـذا

الطابع يزداد قوة وشمــولا على ممر الايام • والعامــل الاول على ذلك هو ما ذكرناه من أن معظم العرب الوافدين قد استقروا بها • ولهذا ظلت ثلاثة قرون بعيدة الى حد كبير عن الصراع الذى كان يقع ، فى غـــيرها من المناطق ، بين البربر والعرب ، والذى كان البربر يثيرونه فى معظم الاحيان• وهذا يؤكد أن نسبة البربر بين سكان قرطبة كان ضئيلا(٢) • ثم ان قدوم عبد الرحمن الداخل ، ونجاحه فى اقامة الامارة الاموية بالاندلس ، شجع كثيرا من عرب افــريقية والمغــرب والمشرق الى الهجــرة الى الاندلس ، وخاصة الى قرطبة •

أصبح العرب كثرة فى قرطبة ، منذ القــرن الاول بعــد الفتـــح ، وازدادوا كثرة على مضى الايام ، وتكاثروا بالتناسل تكاثرا سريعا متصلا ، يكفى للدلالة على أهميته ومداه أن نشير الى أن أميرا واحـــدا من أمـــراء قرطبة ، هو عبد الرحمن الاوسط ، وقد أنجب أكثر من مائة ولد ، خمسين من الذكور ، ومثلهم من الاناث(٣) • ثم ان القلة من البربر ، التى كانت قد استوطنت قرطبة ، اندمجت فى العرب ، وصارت منهم ، ونسيت بمضى الزمن أصلها(٤) ، وأصبح الجميع عربا يفتخرون بالانتساب الى قرطبة(٥) • صحيح ان البربر تزايد عددهم فى القرن الرابع ، وكانوا يؤلفون طائفـــة عنصرية • ولكن هذه الطائفة لم تندمج حينذاك فى السكان ، وكانت طبقة مرتزقة ، منحصرة فى الجيش ، طارئة على أهل قرطبة ، فلم تكن طبقـــة مستقلة أو أصيلة ، ولم تكن عنصرا من عناصر السكان المقيمين • واذا كان البربر قد تفوقوا عددا على العرب ، فقد كان ذلك التفوق العددى مقصورا على طبقة الاجناد • كان البربر القادمون فى أول العهد الاســـلامى قـــد استعربوا ، كما ذكرت من قبل ، أما البربر الوافدين منهم للاقامة بقرطبة والاستقرار فيها ، بعد تلك الطلائع الاولى ، فقد كانوا قلة ، فيما عدا تلك

الفترة العابرة التى كان البربر فيها طبقة مرتزقة يمثلون أغلبية ، لا بين أهل قرطبة ، بل فى الجيش فحسب ، وليس أدل على ذلك من أنهم خرجوا من قرطبة ، ولم يعد لهم فيها أثر ، وتفرقوا فى الاندلس ، بعد انقضاء فترة الفتن التى أثاروها وتزعموها ، والتى لم تزد عن ربع قرن(٥ب) •

أما القوط الذين بقوا فى قرطبة بعد الفتح فقد استعربوا كذلك ، ودخل الاسلام أفواج منهم ، عن رغبة لا عن رهبة • فقد كانت تعاليمه تجتذبهم ، من جهة(٦) ، وكانوا من جهة أخرى ، يعتبرونه الحصن الذى أنقذهم الالتجاء اليه من مرارة المذلة التى كانوا يذوقونها فى عهد الحكم القوطى ، وحررهم من العبودية والطغيان(٧) • وهؤلاء القوط المسيحيون، أصلا ، هم الذين كانوا يسمون « المسالمة » أو « المولدون »(٨) • وقد استعرب هؤلاء المولدون بعد أن أسلموا ، وأضحوا ، بعد جيلين أو ثلاثة ، مثلهم مثل العرب ، لا فرق ولا تفريق ، بين هؤلاء وأولئك ، فى اللغة والدين والسلوك ، وتلاشت صلاتهم بماضيهم المسيحى ، وفقدوا تدريجيا العاطفة التى كانت تربطهم بأصلهم(٩) ، واتخذوا أسماء عربية ، أو مستعربة • بل ان البعض منهم اختلقوا لانفسهم ولاسراتهم أنسابا عربية صميمة ، وأصبح من الصعب التمييز بين العناصر المحلية والعناصر الوافدة(١٠) ، وغدا الجميع يعدون من أهل قرطبة ، عربا مسلمين • واقتصرت طائفة المولدين ، بعد ذلك ، على أولئك المسيحيين الذين أسلموا فى العهود التالية ، والذى كان اعتناقهم للاسلام ، متأخرا عن عهد الطلائع الاولى ، حديث العهد بالنسبة للعصر الذى يعيشون فيه ، لم يتعد جيلا أو جيلين • ذلك أن الاسلام ظل يجتذب المسيحيين اليه طيلة استقراره بقرطبة •

كان العرب والمولدون يكونون الفئة الغالبة من أهل قرطبة • وكانت تعيش الى جانبهم وبينهم فئات أخرى ، منها فئة الصقالبة ، التى سنتحدث

عنها فيما بعد(١٠ب) ، ومنها فئة قليلة من السودان أو العبيد ، وأهمها فئة المستعربين ، الذين كانوا يسمون أحيانا العجم ، وغالبا المعاهدون ، وهم المسيحيون الذين بقوا فى قرطبة واحتفظوا بديانتهم بعد أن تعهد العرب لهم باحترامها واحترام أدائهم لشعائرها(١١) • ولهذا كان هؤلاء المعاهدين يعيشون فى أمان واطمئنان ويسر فى قرطبة ، وكان كثير منهم يحظى بعطف الامراء والخلفاء ، وثقة الوزراء والحجاب والكتاب • واستمروا فى قرطبة يحظون بمثل هذا العطف الى عهد ابن جهور ، الذى ندب للنظر فى شئونهم وزيره ابن زيدون • وكان المعاهدون يلقون من الاهالى كذلك تسامحا ، بل رعاية ومودة(١٢) • ولم تؤثر فى مجرى حياتهم ما نسب الى بعض رجال الدين منهم من التعصب واثارة الفتن ، فى عهدى الامير عبد الرحمن الاوسط وابنه الامير محمد(١٣) • وقد هاجر بعض هؤلاء المعاهـدين ، فى فترات متباعدة ، وخاصة فى القرنين الخامس والسادس (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) الى مناطق فى شمال الجزيرة ، وانضموا الى أهل الممالك المسيحية ، وظلوا يعرفون فيها بالمستعربين Mozarabes ، ويحافظون على تقاليدهم الاندلسية(١٤) • وبالرغم من هذه الهجرات فان عـدد من تبقى منهم فى قرطبة كان ملحوظا للرواة والرحالة •

وكان هؤلاء المعاهدون مستعربين حقا ، اذ كانوا يعرفون اللغة العربية ويتكلمونها ، بل وكان كثير منهم يتذوق آدابها(١٥) • وكانوا مندمجين فى الحياة العامة اندماجا لم يعد يلاحظ فيه ذلك الفرق الذى كان يميزهم عن العرب فى أوائل سنى الفتح • وقد أثرى كثير منهم ، وكان لهؤلاء الاثرياء عبيد أرقاء من ديانتهم ، واحتل بعضهم مراكز مرموقة من طبقات الخدمة ، وأبدى معظمهم مظاهر الولاء لمدينتهم ومشاعر الاخلاص لحكامها • وكان كل ما يفرض على المستعرب ، باعتباره معاهدا ، هو دفع الجزية السنوية ،

وكانت قيمتها ضـئيلة ، وكانت الاعفـاءات منها واسـعة • وكان يترأس المعاهدين قومس ممنهم ، وكان له مركز تسجل فيه أسمائهم ، وكان مقره فى موضع عرف بسويقة القومس • وكذلك لهم قاض يسمى قاضى النصارى أو قاضى العجم • واشتهر من قوامسة المعاهدين القومس ربيع بن تدلف ، فى عهد الحكم الربضى ، وهو الذى استعمله هذا الامير فى قمع ثورة أهل الربض القبلى ، وهدم ديارهم • وكان القومس ابن أنتنيان كاتبا للامير محمد بن عبد الرحمن ، واشتهر القومس أبو سعيد الذى كان جد المؤرخ ابن القوطية ، والقومس معاوية بن لويه فى عهد الحكم المستنصر بالله • وذكر ابن حيان أنه كان فى سـنة ٣٦١ (٩٧١) من بين وجهاء المعـاهدين الاسقف عيسى بن منصور ، والقاضى أصبغ بن عبد الله بن نبيل ، ووليد ابن حيزون • ويلاحظ أن المستعربين كانوا يتخذون معظمهم أسماء عربية بجوار أسمائهم اللاتينية ، وقد احتفظ ذراريهم بهذه الاسماء بعد سقوط الاندلس ، أو على الاقل بالكنية منها •

لم يشر المؤرخون العرب الى أسماء القوامسة والاساقفة • ولكن واحدا منهم برز اسمه مرارا فى عهـدى عبـد الرحمن الناصر والحـكم المستنصر بالله ، وهو ربيع بن زيد ، أو (ريثموندو) ، وكان عالما باللغتين العربية واللاتينية ، وكان محظيا عند الناصر • ولهذا أرسله فى سفارة ، فى سنة ٣٤٤ (٩٥٥) ، الى الملك (أوتو) ، ملك ألمـانيا ، وأوفـده الى القسطنطينية بعد ذلك ليجلب حوضا من الرخام أهداه الامبراطور البيزنطى الى الخليفة الاندلسى ، وهو الذى أقامه الناصر فى مدينة الزهراء • وكذلك قرب الحكم اليه ربيعا ، وطلب منه أن يؤلف له كتابا ، بالاشـتراك مـع عريب بن سعد ، وقد عرف هذا الكتاب بكتاب « الانواء » •

وكان للمستعربين جملة كنائس داخل حدود قـرطبة وفى أرباضها ، ومن ذلك كنيسة كانت فى حى الطرازين ، وأخرى فى حى الرقاقين ، وثالثة كانت تدعى كنيسة القـديسين الثـلاثة ، وكان عادة ، يلحـق بـكنائس الارباض أديرة(١٦) •

أما اليهود ، وكانوا يسمون أهل الذمة(١٧) ، فيبدو أن عددهم كان قليلا فى قرطبة ، بالرغم من أنه كان لهم فيها حى يعرف باسمهم ، ولكنه لم يكن لهم فى قرطبة شأن يذكر •

وكانت شهرتهم فى تجارة الفراء والرقيق والخصـيان ، ونفائس السبى والسلب ، كانوا يسافرون لجلبها • ولم يسجل التاريخ من أسمائهم غير نفر قليل ، من بينهم الطبيب أبو يوسف حسداى بن اسحاق بن شبروط الذى كان عبد الرحمن الناصر يخصه بعطفه ، فأوفده فى جملة سفارات الى ملك ليون • وكان اليهود على العموم يعيشون حياة هنيئة ، وكانوا ينعمون بالعطف والتسامح • ولم ينسوا أن المسـيحيين والقـوط استعبـدوهم واضطهدوهم فترة طويلة قبل الفتح الاسلامى ، اضطهادا أنقذهم الاسلام منه ومن العبـودية ، وأمنهم فى حياتهم(١٧ب) • ولم يتردد اليهـود فى الاندماج فى المجتمع القرطبى وكان لهم فيه قاض وبيع ، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية • فكانوا ، جميعا ، يحسنونها ، حديثا وكتابة ، غير أن حرصهم على مصالحهم التجارية مع المعاهدين فى قرطبة والاندلس ، ومع المسيحيين خارج الاندلس ، جعلهم يحتفظون بمعرفتهم باللغة اللاتينية •

(٢)

عـــدد الســكان

اختلف المؤرخون فى تقدير عدد سكان قرطبة ، ولم يشر القدامى منهم الى بيان بذلك فى أى عهد من عهودها • ولكنهم أشاروا ، كما رأينـا ، الى عدد دورها ومساجدها وحماماتها وكنائسها • وقد استعان بعض البحاثة حديثا بهذه المعلومات فى تقدير عدد السكان فى أكثر عهود قرطبة ازدهارا ، أى فى نهاية القرن الرابع (العاشر الميلادى) •ولكنهم اختلفوا فى هـذا التقدير ، اذ بينما اقترح أحدهم تحديد عـددهم بنصف مليون نسمـة ؛ اكتفى باحث ثان برقم مائة ألف ، وذكر باحث ثالث أنه لو أخذ بتقديرات الكتاب العرب لصح الافـتراض بأن عـدد سـكان قرطبـة كان مليون نسمة(١٨) •

ومن الصعب المجازفة بتحديد رقم بمجموع أهل قرطبـة ، ولـكن المسجد الجامع وحده ، يشهد ، أولا ، بأن عدد السكان المسـلمين ، وهم أغلبية أهل قرطبة ، كان يتزايد على الدوام ، بحيث كان المسـجد يضيق بهم ، وكان الولاة يزيدون فيه ، ويوسعونه ، حتى أصبحت مسـاحته فى سنة ٣٨٠ (٩٩٠) تقرب من ٢٢٠٠٠ مترا مربعا ، وحتى أصبح يتسع لاكثر من خمسين ألفا من المصلين ، الذين كانوا يجتمعون فى بيت صلاته وبهوه لاداء صلاة الجمعة(١٩) • وهذا العدد يمثل ، فى رأيى ، وعلى أقل تقدير ، عشر عدد السكان • وأعتقد أننا لا نبعد كثيرا عن الحقيقة اذا افترضنا أن جملة أهل قرطبة ، فى نهاية عهد المنصور ، كان نصف مليون نسمة •

(٣)

طبقة الخـاصة وطبقة العامـة

كان أهل قرطبة ينقسمـون من ناحيـة الجنس والدين الى عـرب وصقالبة ومولدين ومستعربين ويهـود ، وكانوا ينقسمـون من الناحيـة الاجتماعية الى طبقتين : طبقة الخاصة وطبقة العامة • أما الخاصة ، فكانوا سلالة أعيان العرب الفاتحين ، وسلالة عبد الرحمن الداخل وأهله ، وهؤلاء هم أهل البيت ، أو أهل قريش أو بنو هاشم ، وكذلك سلالة أنصار الامير الاموى(٢٠) الذين قدموا عقب قدومه • ومن هؤلاء وأولئك كان الامير ، أو الخليفة ، يختار « أرباب الدولة وخاصتها » ، أو كبار أهل الخـدمة ، ومنهم نشأت كبرى « البيوتات » فى قرطبة ، اذ كثيرا ما كان يتوارث الابناء وظائف الاباء • ومن هذه البيوتات اشـتهرت أسرة بنى أبى عبـده وبنى حضـير وبنى شـهيد وبنى عبد الرؤوف وبنى فطيس وبنى جهـور وبنى الطبنى •

وكان ينتسب الى الطبقة الخاصة جمهرة عديدة من الاعيان ، وهم الذين يصح أن نطلق عليهم الاصطلاح الحديث المعروف بالطبقة الوسطى ، وهى طبقة كانت تتكون على الاخص من التجار الذين كانوا يعتبرون أقـل مرتبة من طبقة أهل الخدمة وأرباب الوظائف • ولكنهم كانوا أحيانا أكثر ثراء وأوسع عيشا • وكثيرا ما كان أهـل الخـدمة ، ومن بينهم القضـاة والفقهـاء ، يمتلكون ، خارج قـرطبة ، ضـيعا يستثمرها لحسـابهم « عامرون » ، أى رجال فلاحة وتعمير •

وكانت فئة الموالى ، سواء كانوا عربا أو صقالبة(٢١) ، تنسب الى طبقة الخاصة ، ونشأت منها بيوتات أخرى مشهورة ، مثل بدر بن أحمد

وبنى أبى عامر ، ومثل درى وأفلح وطرفه وجعفر والمصحفى • وقد بلغت معظم بيوتات الخاصة حداً ضخما من الثراء ، يشهد به هدية ابن شهيد للناصر(٢٣) • وهدية جعفر المصحفى للحكم المستنصر بالله(٢٣) • وقد ظهر التنافس بين العرب والصقالبة • وأخذ هؤلاء يفاخرون بأعمالهم ، كما كان العرب يفاخرون بأنسابهم(٢٤) • وظلت طائفة العرب هى الطائفة الغالبة المقدمة فى الخاصة ، الى أن شتتهم المنصور بن أبى عامر « وقطع التحامهم وتعصبهم فى الاعتزاء »(٢٥) •

وكان معظم الصقالبة من أصل أوروبى ، ولهذا أطلق عليهم هذا الاسم • وكان قصر الامارة والخلافة يعج بالغلمان من خصيان وفحول ، وكانوا عبيد الامير وخدمه وحراسه وأتباعه • ولعل أول من اقتنى الغلمان هو الامير الحكم الربضى ، الذى كان يسميهم ، كما رأينا ، الخرس(٢٦) • ثم اشترى من بعده الامير عبد الرحمن الاوسط عددا وفيرا منهم • ولكن الغلمان الصقالبة لم يصبح لهم شأن كبير الا فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، حيث عهد اليهم هذا الخليفة بأعمال هامة فى الدولة ، كانت حتى ذلك العهد ، وقفا على بيوتات العرب وأعيانهم وأفراد الاسرة الاموية •

وغالبا ما كان الامير أو الخليفة يعتق هؤلاء الغلمان العبيد ، فيصبحوا فى عداد الموالى • وكان يطلق على هؤلاء الغلمان المعتوقين لقب « الخلفاء » لتمييزهم عن غيرهم من الموالى ، بأنهم موالى الخلفاء • ومن هؤلاء القائد غالب والحاجب جعفر ، فقد كانوا ينسبون الى عبد الرحمن الناصر ، ويسمون غالب بن عبد الرحمن وجعفر بن عبد الرحمن ، وكذلك كان طرفه يسمى طرفه بن عبد الرحمن وذلك توكيدا لولائهم للخليفة الذى أعتقهم •

وكانت من الغلمان كذلك طبقة ممتازة تسمى الفتيان ، أو الفتيان الكبار • وكان أكثرهم نفوذا وقربا من الخليفة عبد الرحمن الناصر « الفتيان الكبيران » ياسر وتمام • وأغلب الظن أن أحدهما كان يرأس ديوان الجيش ، وأن الاثنين كانا يتناوبان قيادة « الدائرة » ، أى رياسة الحرس ، أو « الخدمة » ، ويسميها ابن عذارى « الخدمة السلطانية » • وكان من بين هؤلاء الغلمان « صاحب المطبخ » و « صاحب البنيان » ، و « صاحب الخيل » و « صاحب البريد » و « صاحب البيازة » و « صاحب الطراز » و « صاحب الصاغة » وكانت تتبعه دار الصناعة ، وغير ذلك من أصحاب الوظائف(٢٧) •

وكان عدد الغلمان فى قرطبة كبيرا ، وقيل كانوا أول الامر ٣٧٥٠ نفرا، ثم زادوا الى ٦٠٨٧ وارتفع عددهم الى ١٣٧٥٠ فى عهد المنصور بن أبى عامر • وكثير من هؤلاء الغلمان أثرى وصار من أصحاب الضياع ، واقتنى بدوره غلمانا • وكان الصقالبة المستجدون يتكلمون لغاتهم ولا يفقهـون العربية ، ولكنهم سرعان ما كانوا يندمجون فى الوسط العربى ، ويتعلمون اللغة العربية ويتكلمونها • بل ان كثيرا من سلالاتهم ارتقى الى مراتب الاديب الممتاز أو الشاعر الفذ ، واشتهر بعضهم بجمع الكتب وآخـرون بالتأليف(٢٨) •

والى جانب الغلمان كانت هنالك طائفة الخصيان ، وكان معظمهم من أسرى حروب الجرمان الذين كان يشتريهم تجار يهود مختصون فى عملية التعقيم ، ثم كان ينقلهم تجار يهود كذلك الى الاندلس(٢٩) • وكان كثير من بيوتات قرطبة تقتنى الخصيان • ولما كانوا جميعا يجلبون الى قرطبة صغار السن ، فقد كانوا يتعلمون العربية بسهولة ، وكان كذلك يسلم الكثير منهم • وكان يسمى كل منهم اسما رمزيا مثل يمن ويسر ونجاة ، أو اسم كوكب ، مثل بدر ، أو اسم جوهرة ، مثل عنبر وياقوت ، أو اسم شاعر ، مثل طرفه وزهير •

وبالرغم من كثرة عدد الغلمان والخصيان ، فان عدد الارقاء فى قرطبة كان ضئيلا ، اذ كانوا يعتقون فى آخر الامر ، ويتصـلون ، كما ذكـرنا ، بأسيادهم بالولاء ، ثم يندمجون دائما فى طبقة مواليهم • وتجدر الاشارة هنا الى طبقة ممتازة من الجوارى الارقاء ، البيض والسود ، اللاتى كانت تكتظ بهن بيوتات قرطبة ، واللاتى كن موضع تنافس وجهائها • وقد تحرر الكثيرات منهن ، وأصبحن « أمهات أولاد » • وجميعهن كن ، على كل حال، ينسبن الى طبقة الخاصة(٣٠) •

أما طبقة العامة فكانت تشمل معظم أهل المدينة ، وكانت تتكون من أرباب الصناعات والعمال والخدم ، وكانت تضم كذلك الفئة التى يسميها الرواة « الغوغاء » • وكثيرا ما كان هؤلاء يميلون الى الشغب واثارة القلاقل ، يشهد على ذلك ثورة أهل الربض القبلى فى عهد الحكم بن هشام، وثورة عامة قرطبة فى سنة ٣٩٩ (١٠٠٩) ، فى عهد المهدى وثورتهم على القاضى ابن زرب(٣١) •

(٤)

فضـــائل أهـــل قرطبة ورذائلهم

ذكر بعض المؤرخين القدامى أن علمة قرطبة كانوا « أكثر النـــاس فضولا ، وأشدهم تشغيبا » ، وأنهم اشتهروا « بكثرة شرهم واعيائهم فى أمور التلصص » فكانوا شرا « من عامة العراق » ، وأنه يضرب بهم المثل ما بين أهل الاندلس فى القيام على الملوك ، والتشنيع على الولاة ، وقـــلة الرضا بأمورهم(٣٢) • ويهيأ الى القارىء لمثل هذه الاحكام أن أهل قرطبة، وهذه صفات العامة ، وهم غالبيتهم ، كانوا متقلبين كثيرى التقلب ، هوائيين تسلطت عليهم الاهواء ، انتهازيين للفرص ، ضعيفى الايمان • غـــير أن هؤلاء المؤرخين ، أشادوا فى الوقت نفسه بأهل قرطبة ، وذكروا أنهم قوم « لهم رياسة ووقار ، ولا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم » ، وكان الأغلب عندهم « اقامة حدود الدين وانكار التهاون بتعطيلها » •

ولعل ظاهرة التدين هذه كانت أهم طابع فى سلوك أهـــل قرطبـــة ، تشهد بذلك ، أولا ، كثرة عدد المساجد ، ويشهد بها ، ثانيا ، تمكن عقيدة الجهاد فى قلوبهم • فقد كانت قـــرطبة مركز الجهـــاد ضـــد المسيحية فى الاندلس ، لم يقتصر على أهلها • بل كان يجتذب اليه أفواجا يؤمون قرطبة من جميع جهات الاندلس والمغرب ، مندفعين عن عقيدة وايمان ، بالرغبة فى الاستشهاد • صحيح ان البعض منهم كانت تجتذبه آمال الفوز بالغنائم والاشتراك فى الاسلاب ، ولكنهم كانوا جميعا ، وقبل كل شىء ، تواقين الى الاستشهاد فى سبيل الله(٣٣) • ولعل أوضح دليل على ذلك الايمان هـــو اصرار أحد شيوخ قرطبة ، وهو فى الثمانين من عمره ، على الخروج مـــع المجاهدين ، وموته فى الطريق ، عند طليطلة(٣٤) •

وكان الحج ظاهرة أخرى من مظاهر تمسك أهل قرطبـــة بأهـــداب الدين ، اذ كان يراوغ أمل كل قرطبى ، بالرغم من المشقة والاخطار التى كان يتعرض لها الحاج فى رحلته الطـــويلة الى الحجاز • ولكن الحـــج ، بالاضــــــافة الى أنه كان ركنا من أركان الاســـلام ، كان يعتبر كـــذلك نوعا من الجهاد(٣٥) • وكان الاثرياء والامراء يوكلون غيرهم بأداء هـــذه الفريضة ، ويوفدونهم اليها ليقوموا مقامهم بها •

واذا كانت ظاهرة التدين ظاهرة عامـــة ، فيما يبدو لى ، فقـــد كانت ظاهرة المجون ظاهرة خاصة تقتصر على أصحاب المنى والقصور • كانت مجالس الطرب والشرب والغناء فيها مشهورة ، وكانت الراقصات والمغنيات والموسيقيات يملأن تلك المجالس مرحا وغزلا ، ولهذا كان أعيان قرطبة ، كما ذكرنا ، يتنافسون فى شراء الغوانى ، وامتلأت كتب المؤرخين بروايات فى ذلك ، وامتلأت دواوين الشعراء بقصائد فى وصف ما كان يحتشـــد فى تلك المجالس من أنس وطرب(٣٦) •

وكانت مظاهر الترف والنعيم زاهية فى قرطبة حتى وصف أهلها بأنهم « أهل ذكاء وجمال ومرح وترف » •

وصف الادريسى أهل قرطبة فقال ان فضائلهم « أشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تسطر ، واليهم الانتهاء فى الثناء والبهاء ، وهم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المـــكسب ، وحسن الزى فى الملابس والمراكب وعلو الهمة فى المجالس والمـــراتب ، وجميـــل التخصص فى المطاعم والمشارب ••»(٣٧) •

(٥)

المطاعم والمشارب والمتاجر والمصنوعات

ليس بين أيدينا مصدر نستقى منه معلومات دقيقة عن هذا « التخصص فى المطاعم والمشارب » الذى تحدث عنه الادريسى ، غير ما ذكره المقرى من أن زرياب عرف أهل قرطبة ألوانا من الاطعمة أورد منها « بقلة الهليون » ، المعروف بالاسفراج ، و « التفايا » ، « وهو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة ، محلى بالسنبوسق والكباب » ، ولون آخر كان معروفا بالتقلية الزريابية(١) . وتنقصنا المعلومات كذلك عن مأكولات الاندلس بصفة عامة ، ولكنا ، لحسن الحظ ، نستطيع أن نسجل بعض أنواع المأكولات الاندلسية التى كانت تطهى وتباع فى الاسواق ، بفضل كتاب « الحسبة » الذى كتبه « السقطى » ، (أ) . ومن هذه « المطاعم» المركاس(ب) ، والهرائس(جـ) والبلاجة(د) ، والاسفيدباج(هـ) ، والاسفنج (و) ، والحوت المقلو ، والكعك ، والمجبنات المقلوة (ز) والمسمنات (ح) ، والسخينة(ط) ، واللحوم المشوية . وكان لها طباخون يدعون الشواؤون . وكان أهل الاندلس يصنعون المربى من الزنجبيل والجزر والشقاقل والجوز والسفرجل والتفاح والصعتر والحبق والنعنع والقسطران ، كما كانوا يصنعون اللفت ، ويصنعون الحلواء من العسل واللوز ، ويصنعون الشراب والاشربة من العناب والخروب والبنفسج والتمر هندى والمسك ، وكان الصيادلة هم الذين يختصون بصناعة الاشربة(ى) . أما النبيذ فكان يختص رهبان الاديرة بصناعته . وكان له سوق فى الشقندة ، على أبواب قرطبة ، ولكن الامير عبد الرحمن الاوسط امر بهدمه فى أوائل عهده ، فصار بعد ذلك يباع خفية .

ويحدثنا السقطى عن أصـحاب المطاعم العامـة ، وكانوا يسمـون الطباخون ، أنه كان يفرض عليهم أنتكون حوانيتهم « مجصصة مسطحة يتمكن من غسلها فى كل الاوقات » ، وأن تغطى المـأكولات « بمنـديل نظيف » ، وأن تنظف الاوانى والقدور(ك) •

ولا شك فى أن ألوان الطعام التى كانت تعد فى دور الخاصة كانت أكثر تنوعا وأغنى تكوينا • والغريب أن أهل قرطبة كانوا مولعين بأكل السردين، وكانت تجلب منه كميات كبير الى أسواق قرطبة(ل) •

أما الخبز فكان من المتبع ، فى قرطبة أن يحمل أهلها غلتهم من الحبوب لطحنها دقيقا فى احدى الارحاء العديدة التى كانت مقـامة على ضـفاف الوادى الكبير(ل٢) ، ثم يحملون دقيقهم بعـد عجنه الى أحد الافـران العديدة المنتشرة فى الارباض لتحويله خبزا ، وكان الخباز يستقطـع من العجينة عينا معلوما نظير أجره • ولهذا كان هذا الخباز يبيع الخبز ممـا يتجمع له من هذا المستقطع • وكان للخبز الذى يباع للعامة وزن معـلوم وسعر محدود •

وكانت تمتد فى بعض دروب قرطبة وشـوارعها مخـازن البقـول ومتاجرها وحوانيت اللحوم والخضروات والفواكه ، وذلك بالاضـافة الى الاسواق الكبرى ، التى كانت تمتد على ضفاف الوادى الكبير ، والتى سبق أن أشرنا اليها • وكان من الطبيعى أن تحتوى هذه المخازن والحـوانيت جميع أنواع المحاصيل التى كانت تنمو فى أطراف الاندلس أو تستجلب من خارجها(م) • وكان يجب على التاجر أن يحدد سعر السلعة المعروضة للبيع على ورقة ، وكان التاجر لا يجسر « أن يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب فى الورقة (ن) •

وكذلك كانت بقرطبة حوانيت لبيع المصنوعات التى كانت تصنع بها

أو التى جلبت اليها • والعادة أن حوانيت كل صنف من هـذه المصنوعات كانت تتجمع ، كما سبق أن أشرنا اليه ، فى حى من أحياء قرطبة • واشتهرت قرطبة بجملة من الصناعات ، منها صناعة الجـلود ، التى كانت تتبعهـا صناعة الدباغة والصبغ واعـداد الفراء ، والتى كانت تنتـج الحقـائب والسروج والصناديق والاقراق وغير ذلك(س) • وكانت لصناعة المنسوجات الفاخرة بها شهرة تتردد فى أنحاء العالم الغربى والعربى ، وتنافس شهرة بغداد • وكذلك اشتهرت قرطبة بصناعـة المصنوعات الذهبية والفضـية والمجوهرات ، وسنستعرض فى فصل آخر مصنوعاتها العاجيـة وتحفها البرنزية الفريدة فى نوعها •

وكانت بقرطبة مصانع للحصير والسلال والاوانى الخوصية ، وكان بضواحيها مصانع أخرى للفخار والخزف ، وتصنع فيها الاوانى والقدور • من أحجام وأشكال مختلفة ، كما كانت تصـنع فيها الاتابيب المستخـدمة لجلب المياه ، والقراميد المربعة لتبليط أرضية الابهاء والقاعات ، والمزججة لكسوة الجدران ، وجميع أنواع الاوانى التى كانت تستخـدم فى الحياة اليومية ، فى الشراب والطعام • وكانت بها مصانع كذلك لصناعة الزجاج ، واكتشف عباس بن فرناس سر صناعة نوع من البللور الزجاجى ، أصبحت لاوانيه المصنوعة بقرطبة سوق رائجة •

وأقيمت خارج حدود المدينة مصانع الاجـر ، وكانت لها أحـكام وأنواع مختلفة ومقاسات محددة • وكان « بجبل قرطبة مقاطـع الرخام الابيض الناصع اللون والخمرى »(ع) • واجتذبت صناعة البناء كثيرا من العمال المهرة فى قطع الحجارة وتصفيفها وتبطينها ، وقد رأينا فيما سبق ، كما سنرى فيما بعد ، آثار أعمال هؤلاء البناة والعمال المهرة • وكان يتبع هذه الصناعة صناعات النجارة والحدادة(ف) •

(٦)

النقــــود

كانت وسيلة التعامل أول الامر ، عند الفتح ، تجــرى بالمبــادلات العينية ، ثم تدوولت بالاضافة الى ذلك العملة الفيزيقوطية والعملة المشرقية والمغربية ، ولهذا كانت نادرة(ص) • ثم بدأت النقود العربية تســك فى الاندلس على نطاق محدود ، فى عهد الولاة ، ثم فى بداية عهــد الامارة • وكانت بعض النقود تسك خصيصا كذلك فى بعض البلاد العربية ، وخاصة فى العراق ، ثم تجلب للتداول فى الاندلس ، وقد عثر على بعض الدنانــير الذهبية التى تحمل أسماء ولاة وأمــراء(ق) • وظــل الامر كــذلك ، ليس للاندلس عملة منتظمة ، الى أن أنشأ الامير عبد الرحمن الاوســط دارا للسكة بالقرب من المسجد الجامع ومن باب العطارين(ر) • وأغلب الظن أن هذه الدار اقتصرت على السكة الفضية حتى عهد الخليفــة عبــد الرحمن الناصر ، فبدأت تخرج النقود الذهبية كذلك • وقد أمر هذا الخليفــة بأن يكون سك النقود ، دنانير أو دراهم ، من « خالص الذهب والفضة » وكانت مثاقيله ودراهمه عيارا محضا »(ش) •

ولسنا نعرف ، تحقيقا ، قيمة الدرهم بالنسبة للدينار ، ولا شك فى أن هذه القيمة كانت تختلف من عهد الى عهد ، اذ ذكر بعــض المؤرخــين أن الدرهم كان يوازى سبع الدينار ، وذكر البعض الاخر أنه كان يعادل جزءا من سبعة عشر جزء • وسواء كان التعامل يجرى بالدرهم أو بالدينار ، فان النقود كانت فى كل معاملة توزن ، وتحسب قيمتها بالنسبة لكيل درهم متفق عليه ، هو « الدرهم القاسمى »(ت)• وكانت النقود الذهبية أصغر استدارة من النقود الفضية ، ولكنها كانت أكثر سمكا ، وكانت تختلف أحجــامها فى

عهـــد خليفة عنهـا فى عهـد خليفــة آخـر ، وان كانت أسماؤها لم تختلــف ، دينـــارا أو درهمـــا . وأغلـب الظـن أنه كانت هنـالك أنصـــاف دنانــير وأرباع وأثــلاث . ولكنهـا كانت جميعـــا تحمل اسم الدينار . وكان وزن هذه القطع يتراوح بين أربعة جرامات وربع الجرام . وليس فى هذا غرابة ، فان التعامل بالدنانير الذهبية ، كما ذكرت، كان يجرى تبعا للوزن أو بالوازنة(ث) . وكانت دار السـكة وحـدها هى الضمان لنقاوة نوع المعدن وصحته .

وأقدم الدنانير الناصرية التى عثر عليها تحمل سـنة ٣١٧ (٩٢٩) ، وقد عثر على أكثر من خمسمائة دينار تحمل تواريخ تمتد من تلك السنة الى سنة ٤٠٣ (١٠١٣) التى انتهت فيها الخلافة الاموية . وجميع هـذه الدنانير ضربت بقرطبة أو بمدينة الزهراء(خ) . أما الدراهم ، فقـد عثر على كمية هائلة منها تزيد عن ستةعشر ألف درهم،تحمل تواريخ تمتدمن سنة ١٤٦ (٧٦٣) الى سنة ٣١٥ (٩٢٧)(ذ) . وكان يسجل على وجـه الدينار ، وعلى ثلاثة سطور فى وسطه جملة « لا اله الا الله وحـده لا شريك له » ، تحيط بها ، مسجلة بين دائرتين ، البسملة وتاريخ الضرب ومكانه . أما على ظهر الدينار ، فكان ينقش اسم الخليفة مسبوقا بلفظة الامام وملحـوقا بجملة أمير المؤمنين ولقبه ، ثم اسم صاحب السكة أو اسم الحاجب ، وذلك على أربعة أسطر أو خمسة فى الوسط ، محاطة بدائرتين نقشت بينهما الاية الكريمة « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهـره على الدين كله ولو كره المشركون » ، تتبعها جملة « النبى محمد رسول الله »(ض) .

(٧)

الملابس

اشتهر أهل قرطبة ، كما قال الادريسى والمقرى وغيرهما ، بحسن الزى « فى الملابس والمراكب » • وغير أننا لا نعرف كثيرا عن أنواع ملابسهم ، وان كان يفهم من حديث ابن حوقل أنه كان يقصد قرطبة حين ذكر أنه كان بالاندلس « اللبود المغربية الثمينة ، والخز ، وما يؤثرونه من ألوان الخز والقز » ، وأنه كان « يجلب منها الديباج ، ولم يساوهم فى أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الارض ، وربما عمل لسلطانهم لبود ثلاثينية يقوم اللبد منها بالخمسين والستين دينارا ••• فهى من محاسن الفرش • ويعمل عندهم من الخز السكب والسفيق ما يزيد ما استعمل منه السلطان على ما بالعراق • ويكون منه المشمع فيمنع المطر أن يصل الى لابسه »(٣٨) • وكذلك يفهم مما رواه المقرى عن ابن سعيد أن ما كان يجرى بالاندلس ، كان يجرى بقرطبة ، وأن الغالب على أهلها ترك العمائم ، وأنهم كثيرا ما كانوا يلبسون غفائر الصوف الحمر والخضر ، أما الغفائر الصفر فكانت « مخصوصة لليهود » ، والذؤابة لا يرخيها الا العالم ، ولا يصرفونها بين الاكتاف ، وانما يسدلونها من تحت الاذن اليسرى » ••• وأكثرهم لا يمشى « دون طيلسان ، الا أنه لا يضعه على رأسه منهم الا الاشياخ المعظمون »(٣٩) •

وذكر ابن عذارى أن من أصناف الاكسية الممتازة التى كان يرتديها أهل الاندلس ، الخز الطرازى وصوف البحر والكساء العنبرى والسقلاطون والمريشات وأنماط الديباج والديباج الرومى والفروى الفنك(٤٠) • وكان زرياب قد سن لاهل قرطبة لباس البياض ، وجعلهم يخلعون الملابس

الملونة ، وذلك من أوائل شهر يونيه الى آخر سبتمبر ، « ويلبسون بقيـة السنة الثياب الملونة » . كما جعلهم يلبسون فى « الفصل الذى بين الحر والبرد « جباب الخز والملحم والمحرر والدراريـع التى لا بطائن لها » ، ويلبسون فى أوائل الفصل الذى بين البرد والحر ، وهو ما يسميه المقرى بالخريف » « المحاشى والمروية ، والثياب المصمتة ، وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة» ، أما فى الشتاء فقد أوصاهم زرياب أن « يستظهروا » من تحت ثيابهم « صنوف الفراء » (٤٠ب) .

ويشهد المقرى وابن سعيد أن أهل الاندلس كانوا « أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلـق بهم » ... « وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه ، فيطـويه صائما ويبتـاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيه ساعة على حالة تنبو العين عنها»(٤١) . بل كانوا يحرصون على « تطييب » الفم والجسد « بماء الورد والبخورات والروائح »(٤٩ب) . والذى يزور قرطبة اليوم ، يدهشة أن تبقى ظاهرة النظافة هذه واضحة الى اليوم ، وأن يرى شرفات الدور مزدهرة بالزهر ، وأرضية البيوت والقاعات لامعة مصقولة ، ليس فيها «ما تنبو العين عنها» . وكان سكان كل حى من أحياء قرطبة يتعاونون فى تحمل نفقات تنظيف حيهم ونقل « زبالتهم »(٤٢) .

(٨)

الحفـــــلات

يخرج القارىء لروايات المؤرخين عن قرطبة وأهلها بأن مظاهر الترف والبهجة كانت غالبة عليها وعليهم • ولا شك فى أن ما كان يجرى فى استقبال الامراء والخلفاء للسفراء ، كان يجرى مثــله ، وأعم منــه ، فى الاعيــاد والحفلات ، وكانت مواكب الامراء فى كثير من المناسبات مجــالا لاشراك العامة فى مظاهر الابتهاج • واذا كانت لم تصل الينا من روايات هــؤلاء المؤرخين تفاصيل عن هذه المظاهر مثل ما وصل الينا من روايات المؤرخين عن الاحتفالات التى كانت تقام ، مثلا ، فى القاهرة فى العصر الفــاطمى ، فان القارىء يمكن أن يتخيل بعضها مما رواه مؤرخو الاندلس عن بعض حفلات الاستقبال التى كانت تقام فى قصر الخلافة أو فى مدينة الزهراء •

وكانت أولى هــذه الســفارات ، ســفارة الامــبراطور البيزنطى (تيوفيلوس) ، الى الامير عبد الرحمن الاوسط ، فى ســنة ٢٢٥ (٨٤٠) • وقد بعث الامبراطور مع سفيره هدايا ثمينة ، واستقبله الامير استقبالا حسنا ، وبعث معه وفى صحبته الشاعر يحى الغــزال ويحى « صــاحب المنيقلة » ، وحملهما الى الامبراطور كتابا وهدايا نفيسة(٤٣) •

وقد تعددت سفارات الدول المسيحية الى قرطبة ، خاصة فى عهدى الناصر والحكم ، فقد وفد على قرطبة فى عهــد النــاصر رسل « من ملك الصقالبة ـــ وهو يومئذ دوقوه » (هوتو أو أوتون الاول) ، امبراطــور الجرمان ، ومن « ملك الافرنجة وراء البرت ـــ وهو يومئــذ (أوفــه) ، (هوجو) ، ومن « ملك الافرنجة بقاصية المشرق ـــ وهو يومئذ (كــلدة)

(جيدو) ، واحتفل الناصر لقدومهم ، وبعث مع رسول الصقالبة ربيعا الاسقف الى ملكهم دوقوه ، ورجع بعد سنتين »(٤٤) .

وكانت أكثر السفارات شهرة فى عهد الناصر هى سفارة امبراطور بيزنطة ، (قسطنطين السابع) ، التى استقبلها الخليفة فى بهو المجلس الزاهر بقصر الخلافة بقرطبة ، يوم السبت ١١ ربيع الاول سنة ٣٣٨ (٨ سبتمبر ٩٤٩) ، وقد نقل المقرى عن ابن حيان وصف حفل استقبال هذه السفارة ، وروى أن الخليفة قعد للسفراء « قعودا حسنا ، وقعد عن يمينه ولى العهد من بنيه ، الحكم ، وأربعة غيره من أولاده ، وقعد عن يساره ثلاثة آخرون من أولاده و « حضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم ، وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك ، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور ، فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ... »(٤٥) .

ووفدت على الناصر سفارات أخرى ، منها سفارة (أردون الثالث)، ملك ليون ، فى سنة ٣٤٤ (٩٥٥) ، وفى سنة ٣٤٧ (٩٥٨) وفدت طوطة (Toda) « ملكة البشكنس » (نبرة) ، ومعها ابنها شانجه (Sancho) واحتفل الناصر لقدومهما(٤٦) .

وفى عهد الحكم المستنصر بالله وفدت على قرطبة سفارات أخرى ، منها ، فسنة ٣٥١ (٩٦٢) ، السفارة التى ترأسها (أردون الرابع) ملك ليون نفسه ، وفى السنة نفسها سفارة (شانجة) ، وفى سنة ٣٥٥ (٩٦٦) ، سفارة من ملكى برشلونة وطركونة ، ثم وصلت رسل (غرسية بن شانجة)،

ملك البشكنس ، ثم « وفدت على الحكم أم (لذريق بن بلاشك) القومس بالقرب من جليقية »(٤٧) •

كانت حفلات استقبال السفراء أياما مشهودة فى قــرطبة ، يطــير « خبرها » بالاندلس جميعا ، ويتداول الناس الحديث عنها زمنا طويلا • وقد وصل الينا وصفا دقيقا مسهبا سجله ابن حيان لحفل استقبال الخليفة الحكم للامير المغربى جعفر بن على بن حمدون المعــروف بابن الاندلسى وأخيه يحى(٤٨) • وفى هذا الحفل الذى جرى صباح يوم الخميس ٢٧ ذى القعدة سنة ٣٦٠ (٢١ سبتمبر ٩٧١)(٤٩) ، تحرك الاميران من منية ابن عبد العزيز ، التى كانوا أنزلوا بها ، الى قصر الزهراء(٥٠) • وعلى جانبى هذا الطريق الطويل تجمع أهل قرطبة وكورتها ، واصطفوا « سماطــين » لمشاهدة موكب الاميرين • وقد كان الموكب فى حد ذاته غير حافل ، تتقدمه رؤوس زيرى بن مناد وأصحابه مرفوعة فى قنوات « عالية وحراب سامية »، ويحيط بالاميرين وأصحابهم ورجالهم صاحب الشرطة العليا ومعه رسل من كبار أصحاب الخدمة • أما الحفل فكان يستمد أهميته من اصطفاف طبقات الجيش على طول الطريق ، اصطفافا قصد به بهر أنظار الضيوف واطاشة « أفئــدتهم » ، فــرتبت « الــكتائب » وعبئت « المقــانب » ونظمــت « العساكر » لهذا الغرض • وكانت صفوف هذا الجيش ممتدة ، صفا على كل جانب من جانبى الطريق ، امتدادا متصلا من المنية الى القصر ، « فى رداء جميل وترتيب جليل » تحمل ضروب الاعلام الفخام وصنوف الرايات الجسام » ، أعدادا متراصة ، « قــد ضــاقت بهم الافنية ، وشرقت بهم السروج والافضية » • وعند خروج الضيوف من منيتهم ، اجتازوا أولا صفوف « رجالة قرطبة من أحداثها وفتيانها » ، وكان عدتهم « ستة عشر ألف راجل عم جميعهم بالتراس والرماح » ، وبعــد أن انتهت صــفوف

الرجالة ، بدأت صفوف « الفرسان المدرعين » من أهل الخدمة والصقالبة ، « فى الاسلحة الشاكة ، وكانوا عدة وافرة » ، ومر الضيوف بعد ذلك بين صفوف « فرسان الطنجيين المدرعين » ، تتبعها صفوف « فرسان الخمسيين وعبيد الدرق والعبيد الرماة ، وعلى جميعهم الدروع السابغة والبيض اللامعة » • ثم شق الضيوف « صفى فرسان العبيد الرماة الخاصة لابسى الاقبية البيض ، متقلنسى الاقاريف الوبر ، متنكبى قسيهم وكنافهم الزغرية » • وتلت ذلك صفوف « الفرسان المدرعين حاملى القنوات الناصلة ، وكانت عدتها مائة قناة » • ثم اجتاز الضيوف « سماطى الفرسان أصحاب الجواشن ، ثم أفضوا الى صفى الفرسان أصحاب التجافيف ، وكانت عدتها مائتى تجفاف » • وكان اصطفاف الجيوش يزداد زينة وفخامة كلما اقترب من مدينة الزهراء ، اذ أنه بعد أن انتهت صفوف أصحاب التجافيف ، بدأت صفوف « أصحاب العدة الرائعة من البنود الغريبة الانواع » وتبعتها صفوف « الجنائب ، خيول أمير المؤمنين المقربة ، مكسوة بسروج الخلافة ولجمها المحرقة والمعرقة » ، وكانت ترابط على « باب الصورة القبلى » فى مدينة الزهراء • وهنا بدأت صفوف حرس الخليفة «فى أحسن زيهم ، متقلدين السيوف الجالية ، متقلنسين بالقلانس الموشية»، وصفوف طبقات الخدم والخصيان « فى زيهم الجميل ، عليهم اللامات السابغة والسيوف الجالية المرصعة بالجواهر الفاخرة » ، وصفوف طبقات أخرى من الحرس « على رؤوسهم الطشنيات المفضضة المرقشة » ، وانتهى عرض الصفوف عند أبهاء القصر الداخلية بفرسان العبيد ، « عصبة رائقة المرأى ، كاملة الشكة ، على رؤوسهم البيضات المذهبة • وبأيمانهم الحراب الواسعة العريضة ••• المزينة بأنابيب الفضة » • واصطف كبار أرباب الوظائف والخدمة فى فصلان القصر وأبهائه ، على النظام الذى سنلخصه

فيما بعد بمناسبة الاحتفال ببيعة الخليفة(٥١) • واستقبل الحكم المستنصر بالله الاميرين وحاشيتهما أحسن استقبال ، وأكرم وفادتهم ، « ووعدهم بالاحسان اليهم والتشريف لهم » • ويضيف ابن حيان الى وصفه الشامل أن ذلك اليوم كان « من أحد الايام العقم بقرطبة فى اكتمال حسنه ، وجلالة قدره » ، وأنه « خلد حديثه زمنا فى أهلها » ، وأنه طار خبره « بالاندلس فى الحسن والزينة »(٥٢) •

(٩)

المحن والنكبـات

عاش أهل قرطبة أجيالا فى دعة ونعيم • كان هذا هو الطابع الغالب على تاريخهم ، ولكنهم مروا بفترات عصيبة ، وخاصة فى القرنين الاخيرين من هذا التاريخ • أما قبل ذلك فلم يشر المؤرخون الى غير نكبات عابرة ، أولها المأساة التى تبعت ثورة أهل الربض فى شهر رمضـان سـنة ٢٠٢ (مارس ٨١٨) ، فى عهد الامير الحكم بن هشام ، وما لاقاه العامة فيها من صنوف الضيق والدمار والاضطهاد • وأشار المؤرخون الى أن الطاعـون أصاب قرطبة فى سنوات ٣٠٣ (٩١٥) و ٣٣٥ (٩٤٧) و ٣٣٨ (٩٤٩) وأنه مات فيها عدة من الشيوخ والعلماء •

وأقبلت نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخـامس (بداية القـرن الحادى عشر الميلادى) ، فكانت فترة قاسية ، بدأت بثـورة الغـوغاء فى جمادى الاخرة سنة ٣٩٩ (فبراير ١٠٠٩) ، وانتهابهم مدينة الزاهـرة وتدمير دور البربر • وفى السنة التالية ، كانت وقعة جبل قنطش ، فى ربيع الاول (نوفمبر ١٠٠٩) ، حين خرج أهل قرطبة لصد البربر والفرنج وقيل انه هلك منهم هنالك عشرون ألفا ما بين قتيل وغريق •

وكانت سنة ٤٠١ (١٠١٠) أشد السنوات قسوة على أهل قرطبة ، فاض نهر الوادى الكبير فيضانا هدم فى أرباض المدينة « نحو ألـفى دار وما لا يحصى من المساجد والقناطير ، ومات فيه نحو من خمسة آلاف نفس، ردما وغرقا ، وذهبت فيه أمتعة الناس وأموالهم ، وهدم أكثر السـور ، وردم كثير من الخندق ، وأقام هذا السيل ثلاثة أيام »(٥٣) • وتبـع تلك

الايام وباء شديد ، مات فيه الكثير ، وضاقت الحال بأهل قرطبة « حتى أكل الناس الدم ... والميتة »(٥٤) . وعظم البلاء لان البربر كانوا يحاصرون المدينة ، واستمر حصارهم لها مدة سنتين ونصف ، من ربيع الاول سنة ٤٠١ الى أواخر شوال سنة ٤٠٣ ، (نوفمبر ١٠١٠ الى مايو ١٠١٣) ، ووقعت فى ذلك الشهر مذبحة فى وسط المدينة ، وهاجم الغوغاء مدينة الزهراء ، للمرة الثانية ، وأحرقوا جامعها ، ونهبوا ما كان قد تبقى فيها من القناديل وصفائح الابواب والحصر(٥٥) .

وحدثت محنة فى شهر ربيع الاول من سنة ٤٣٩ (سبتمبر ١١٤٧) ، هلك فيها قوم من أهل قرطبة ، وانقطعت القنطرة(٥٦) . وفى سنة ٥٢٥ شبت النار بسوق من أسواق المدينة أتت على جميع ما كان فيه حتى أن الناس رجموا « ابن المناصف ، صاحب السوق ، لتقصيره فى المعونة » . وفى السنة التالية وقعت مجاعة شديدة ، وانتشر الوباء بين أهل قرطبة ، وكثر عدد موتاهم(٥٧) .

وأخيرا كانت الطامة الكبرى ، فى شهر شوال سنة ٦٣٣ (يونيه ١٢٣٦)، التى سقطت قرطبة على اثرها ، وتفرق أهلها ، ولم تقم بعدها لهم ، ولا لها، قائمة .

حـــواشى الفصل الســابع

(١) تنظر صفحتا ٧و٨ فيما سبق من هذا الكتاب . وقد توقفت هجرة العرب بعد ذلك فترة من الزمن ، ثم عادت مع دخول عبد الرحمن الداخل الذى فتـح ابواب الاندلس أمام أنصاره وعشيرته . ويتضح من مراجعة كتاب « جمهـرة انساب العرب » لابن حزم ، مدى اهمية الاسرات العربية الاصـيلة فى تطعيم اهل الاندلس بصفة عامة ، وأهل قرطبة ، بصفة خاصـة ، بالدم العـربى . وتزداد الظاهرة اهمية بظاهرتين اخريين ، الاولى تضخم الســلالات العربية السريع بكثرة التناسل ، وثانيها اعتاق الموالى ، ثم تضخمهم بنفس الوسائل . وسنشير الى هاتين الظاهرتين بعد قليل . هذا وقد لخص المقرى فى الصفحات ٢٧١ و ٢٧٩ من الجزء الاول من « نفح الطيب » ما كتبه المؤرخون عن القبائل العربية التى استقرت بالاندلس .

(٢) يبدو أن البربر نزحوا الى شمال الاندلس ، ثم ثاروا فى سنة ١٣٢ (٧٥٠) اثر سنة القحط الشديد ، وفى أعقاب تلك الثورة رجـع كثير منهم الى مواطنهم فى بلّاد المغرب ، وظلت طوائف منهم تهـاجر فيما بعـد ذلك الى تلك المواطن . وقد سبق أن رأينا فى باب الاحداث التاريخية أن افواجا اخرى من البربر كانت تفد الى الاندلس ، وكان يستقدمها الامراء ، ويعينون افرادا منها حرسا لهم ، وخاصة منذ منتصف القرن الرابع ، فى عهد الخليفتين الناصر لدين الله والمستنصر بالله ، وفى عهد المنصور . وقد رأينا كذلك كيف ثار هؤلاء البربر فى قرطبة ودخلوا الزهراء ودمروها ، تنظر صفحات ٧٢ الى ٧٤ فيما سبق من هــذا الكتاب .

(٣) ومن امثلة هذا التكاثر أن المؤرخين رووا أن القحطانيين قد أصبحوا فى الاندلس اكثر عددا منهم فى الجزيرة العربية .

(٤) تنظر صفحة ٢٧ من كتاب « أسبانيا الاسلامية فى القــرن العاشر » لمؤلفه ليفى بروفنســال .

(٥) اتفق جميع المؤرخين « على أن ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التى

استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها » ، تنظر صفحة ١٥٨ من الجزء الرابع من « نفح الطيب » للمقرى . وذلك بمناسبة ما ذكره ابن حـــزم من أن محمد بن يوسف الوراق « أندلسى الاصل والفرع ، أباؤه من وادى الحجارة ، ومدفنه بقرطبة ، وهجرته اليها ، وان كانت نشأته بالقـــيروان » . وجـــرى مؤرخو الاعلام ، مثل الخشنى وابن الفرضى والضبى وغيرهم ، على أن ينسبوا الى « أهل قرطبه » كل من ولد فيها وشب واتخذها مقاما له . والقرطبى ، فى مدلول رواياتهم ومفهومها ، عربى مسلم قبل كل شىء ، ويقولون كذلك « العربى المولد والمنشأ والدار والوفاة » .

(٥ب) يسمى المؤرخون اهل قرطبة المستقرين « البلديين » اى اصحاب البلد ، ويميزهم المقرى عن البربر بقوله « الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة»، صفحة ٣٢ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » .

(٦) ذهب أحد الكتاب الاسبان حديثا الى أن سكان الاندلس القـــوط دخلوا جميعا ، أو معظمهم ، فى الدين الاسلامى ، لانهم وجدوا تعاليمه مناسبة لعقائدهم ، ولانهم كانوا قـــد ضـــاقوا ذرعا بالخـــــلافات المذهبية فى الديانة المسيحية ، وبفساد رجال الدين وغطرستهم . ولكن الكاتب تخيل بعد ذلك أن العرب لم يغزوا الجزيرة ، وانما القوط ، أهلها الاصليون ، هم الذين أسلموا واستعربوا . واذا كان هذا الكاتب يعتمد فى سرد أحداث ما قبل الفتح ، بمـــا كانت تشمله من اضطهاد سياسى وتزعزع عقائدى ، على المصادر اللاتينية ، فهو يتجاهل المصادر العربية فى سرد أحداث الفتح وما بعـــد الفتـــح . ينظر « العرب لم يغزوا أسبانيا قط » لمؤلفه (أنياشيو أولاجو)

Olague, ignacio, Les AraBs
nont jacnaıs envaBı LEspgne Flammatıon parıs, 1969

(٧) تنظر صفحة ٣٢ من كتاب « أسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر » لمؤلفه ليفى بروفنسال .

(٨) تنظر الحاشـــية (٣٦) من الفصـــــل الاول ، فيما ســـبق مـــن كتابنا هـــذا .

(٩) تنظر صفحة ٧٥ من الجـــزء الاول من كتاب « تاريـــخ أســـبانيا الاسلامية » لمؤلفه ليفى بروفنسال .

(١٠) تنظر صفحة ٧٦ من المرجع المشار اليه فى الحاشية السابقة . وقد اثنى المؤلف على السياسة الحكيمة التى اتبعها أمراء العرب عند الفتح مع المسيحيين ، من تسامح وعطف ، مكنهم من الاستمرار فى أداء اعمالهم ومزاولة مهنهم والمساهمة فى الانتاج ، وادى الى اندماج المولدين منهم فى العرب . واعترف المؤلف بأن المسيحيين كانوا ، قبل الفتح العربى ، يعانون الامرين من اسيادهم القوط .

(١٠ب) تنظر صفحة ٨٩ فيما بعد والحاشية رقم (٢١) .

(١١) ورد بصفة خاصة فى المعاهدة التى عقدها عبد العزيز بن موسى بن نصير مع الامير الفيزيقوطى تيوديو الا يكره أحد من أهل البلاد على دينهم .

(١٢) عن معاملة المسلمين للمسيحيين فى الاندلس بصفة عامة ، وفى قرطبة بصفة خاصة ، تنظر صفحات ٢٢٦ وما يليها وصفحتا ٢٣٢ و ٢٣٣ والحاشية (١) من صفحة ٨١ من الجزء الاول من كتاب « تاريخ اسبانيا الاسلامية » لمؤلفه ليفى بروفنسال ، وتنظر صفحات ٣١٧ الى ٣٤٦ من الجزء الاول من كتاب « تاريخ المسلمين فى اسبانيا » ، لمؤلفه دوزى ، وتراجع صفحة ٢٧٥ وما يليها من كتاب « التاثيرات الاسلامية » للمؤلف .

(١٣) عرفت تلك الجماعة المتعصبة فى التاريخ المسيحى باسم « المستشهدين » وكان يتزعمهم قسيسان يدعيا « يوليخيوا » و « البارو » ، وقد حوكموا ، وعوملوا معاملة الزنادقة من المسلمين ، ولقوا مثل الجزاء الذى لقيه ، فى السنة نفسها ، مسلم ادعى النبوة وحكم عليه بالقتل والصلب .

(١٤) بدأ المعاهدون ينكرون لمواطنيهم العرب منذ أيام الفتنة ، وظهر خطرهم فى بداية القرن السادس ، مما دفع ، فى سنة ٥٢٠ (١١٢٦) ، ابا الوليد ابن رشد ، قاضى الجماعة ، الى التوجه الى مراكش ليشرح لامير المسلمين على بن يوسف خطر المعاهدين على الامة الاسلامية فى الاندلس « لنقضهم العهد وخروجهم على الذمة » باستدعائهم المسيحيين ومساعدتهم ، وقد أفتى ابن رشد بموجب اجلائهم عن مواطنهم ، واخذ امير المسلمين بهذه الفتوى وأمر

« بتغريب » المعاهدين ، وبادر ولاة الاندلس بتهجيرهم الى بـلاد العـدوة . وبالرغم من ذلك فقد بقيت جماعات منهم بقرطبة .

(١٥) كانت اللغة الرومانسكية أو « العجمية » ، وهى المعـروفة عنـد المؤرخين باللغة « اللطينية » ، متداولة مع هذا بين المستعربين ، والى حد ما ، بين المولدين . ولكن اللغة العربية كانت هى السائدة وكانت لها الصدارة وكان يتكلمها معظم السكان . وقد ظن بعض الكتاب أن اللغة اللطينية ، وهى اللغة الرومانسكية ، كانت متداولة ومنتشرة بين العرب كذلك ، (تنظر صفحة ٥١ من كتاب « اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر » وصفحات ٤ من الجزء الثانى من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » لمؤلفهما ليفى بروفنسـال) ، وذلك استنادا الى رواية مؤداها أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أكمـل ، فى مجلس من مجـالس مسامراته ، بيتا من الشعر بكلمة رومانسكية ، ووردت هذه الرواية فى صفحة ٢٢٧من الجزء الثانى من «البيان المغرب» لابن عذارى.وهذه الرواية.انصحت، انما تدل على أن أهل قرطبة احتفظوا ببعض كلمات عجمية وتداولوها فى لغة تخاطبهم العامية ، اما تيسيرا للمعاملة ، واما على سبيل التفكه والمزاح .

(١٦) كان بعض وجهاء قرطبة يمضون أحيانا سهراتهم فى بعض هـذه الاديرة ، وقيلت فى ذلك أشعار ، تنظر صفحتا ٦٦ و ٦٧ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى . وقد روى المقرى أن « أبا عامر بن شهيد بات ليـلة باحدى كنائس قرطبة ... والقس قد برز فى عبدة المسيح ، متوشحا بالزنانير أبدع توشيح ... » ثم أنشد أبياتا منها :

ولرب حان قـد شممت بديره   خمر الصبا مزجت بصرف عصـيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم   متصاغـرين تخشـعا لـكبيره

(١٧) اقتصرت تسمية « أهل الذمة » على اليهود ، أما المسيحيون فكانوا فى الغالب يسمون المعاهدين .

(١٧ب) تنظر صفحة ٣٧ــ٣٨ من كتاب « اسبانيا الاسلامية فى القـرن

العاشر » لمؤلفه ليفى بروفنسال . هذا ولم يسجل التاريخ غير مرة واحــدة حادثا ضد اليهود طيلة حكم العرب لقرطبة ، وذلك فى سنة ٥٢٩ (١١٣٥) اذ عثر فى حى اليهود على قتيل مسلم ، فثارت العامة ضد اليهود واقتحمت منازلهم وقتلت عددا منهم .

(١٨) تنظر صفحتا ٣٦٢ و ٣٦٣ من الجــزء الثالث من كتاب « تاريــخ اسبانيا الاسلامية » لمؤلفه ليفى بروفنسـال . هذا وقد قدر المؤرخون القدامى عدد دور قرطبة « مائة الف دار وثلاثة عشر الف دار للرعية خصوصا ، وربما نصف العدد أو اكثر لارباب الدولة وخاصتها » ، ولو صح هذا العــدد لاربى عدد السكان عن المليون بكثير . تنظر صفحتا ٧٨ و ٧٩ من الجــزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(١٩) مساحة بيت صلاة المسجد الجامع ١٤٠٠٠ مترا مربعا ، وهى اكبر مساحة لبيت صلاة فى العالم الاسلامى كله . وكان هذا البيت يتسع وحده لاكثر من ثلاثين الفا من المصلين . ولكنا نعرف أن بيت الصلاة كان يضيق بهذا العدد فى يوم الجمعة . وأن كثيرا من المصلين كانوا يصطفون لاداء صلاتهم فى البهو والمجنبات والمؤخر ، بل ان كثيرا غيرهم كانوا يصطفون فى الشوارع المحيطة بالمسـجد .

(٢٠) كان لاهل البيت ، وهم أفراد الاسرة المالكة ، نقيب يرعى مصالحهم، وينوب عنهم عند الامر ، كان لهم ولانصارهم أرزاق هلالية ومعارف سنوية .

(٢١) كان يطلق اسم الصقالبة على الارقاء عمــوما ، ســواء كانوا من القوط أهل الجزيرة ، أو اسجلبوا اليها من بلاد أوروبا . وكان للعرب كما كان للمولدين موال وعبيد ، وكان هؤلاء ينسبون اليهم ، ويعدون كذلك من طبقتهم الخــاصة .

(٢٢) تنظر صفحات ٣٣٣ وما بعدها من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى ، وفيها وصف مسهب لهذه الهدية .

ومما يدل على ضخامة هذه الهدية أنها كانت تشتمل على « خمسمائة الف

مثقال من الذهب العين ، واربعمائة رطل من التبر ومصارفة خمسة وأربعون الف دينار ، ومن سبائك الفضة مائتا بدرة ، وذلك بالاضافة الى كميات غالية من المسك والعنبر ، ومقاطع فخمة من الاقمشة الحريرية والمذهبة والثياب والجلود والفرش والبسط والاسلحة ، وعدد كبير من الخيول والبغال « المسرجة الملجمة » ، وبالاضافة الى الجوارى « المتخيرات بكسوتهن وزينتهن »، والضيع التى « تغل آلافا من أمداد الزرع » .

(٢٣) تنظر صفحة ٣٥٨ من المرجع المشار اليه فى الحاشية السابقة ، وفيها وصف مفصل لهذه الهدية .

(٢٤) الف حبيب الصقلى « كتاب الاستظهار والمغالبة ، على من انكر فضائل الصقالبة » ، والف ابن حزم « جمهرة انساب العرب » ، ومن هذين الكتابين نستطيع ادراك مدى المنافسة بين الطائفتين .

(٢٥) صفحة ٢٧٤ من الجزا الاول من « نفح الطيب » للمقرى . وتنظر صفحة ٣٦ فيما سبق من كتابنا هذا .

(٢٦) تنظر صفحة ١٤ فيما سبق من كتابنا هذا .

(٢٧) تنظر صفحات ١٣٦ و ١٣٨ و ١٣٩ من الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وفيها يشير ابن عذارى الى « الدائرة » والى « أميرى الدائرة » محمود وعنبر . وكان ، مثلا ، طرفه بن عبد الرحمن الذى اشرنا اليه أعلاه ، صاحب « المطبخ » وارتقى الى « صاحب المواريث » . تنظر كذلك صفحات ٢٠٣ و ٢٠٩ و ٢٢٠ و ٢٢٣ من الجزء الثانى من نفس المرجع .

(٢٨) تنظر صفحة ٥٧ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى (طبعة بولاق) ، وصفحة ٦٢ من الجزء الرابع من « الذخرة » لابن بسام .

(٢٩) تنظر صفحة ٢٤٢ من طبعة ليدن من كتاب « أحسن التقاسيم » للمقدسى .

(٣٠) كانت قصور الامراء والاغنياء تعج بالجوارى ، وخاصة فى عهد عبد

الرحمن الاوسط ، الذى كان يبذل عناية خاصة فى انتقاء جواريه ، وقد اشتهرت منهن طروب وشفاء واهتزاز ومعمرة وفخر وفضل وعلم وكلام ، كان لكل منهن مسجد أنشأته فى قرطبة ، وكان منهن الاديبات والمغنيات .

(٣١) تنظر صفحتا ٧٨ و ٧٩ من كتاب « المرقبة العليا » لمؤلفه النباهى .

(٣٢) صفحتا ١٤٧ و ٢٠٤ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٣٣) اعترف المؤرخون المستشرقون بهذه الحقيقة . تنظر ، مثلا ، صفحة ٤٦٥ من الجزء الثالث من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » تأليف ليفى بروفنسال .

(٣٤) راجع « تاريخ علماء الاندلس » لابن الفرضى .

(٣٥) كان الحج يعتبر كذلك فرصة لطلب العلم فى بلاد المشرق .

(٣٦) تنظر صفحة ٨٠ من الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى، وتنظر صفحة ١٢٧ من « حديقة الافراح » للشروانى ، طبع القاهرة ، سنة ١٣٠٢ (١٨٨٤) .

(٣٧) « نفح الطيب » للمقرى .

(أ) « كتاب فى آداب الحسبة » لمؤلفه أبى عبد الله محمد بن أبى محمد السقطى المالقى الاندلسى ، الذى عاش فى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، نشره (كولان) و (ليفى بروفنسال) فى سنة ١٩٣١ تحت عنوان :

manuel His Panique de Hisba; Traité d'Abou Abdallah As-Sakati, Publié Par Y.S. Colin et E. Lévi-Provençal, Paris, 1931.

(ب) المركاس هو نوع من اللحم المفروم المخلوط بالكمون والثوم يحشى فى المصران بعد سقيه مع الخل والمرى .

(جـ) الهرائس نوع من الدقيق المحشو باللحم .

(د)البلاجة نوع من الخبز المخلوط بالكبد أو بلحم الارانب .

(هـ) الاسفيدباج نوع من الاطعمة البيضاء اللون .

(و) الاسفنج نوع من العجين المسكر المقلو بالزيت .

(ز) المجبنات صنف من الحلو من العجين المحشو بالجبن .

(ح) المسمنات عجين من الدقيق مخلوط بالسمن ومقلو بالزيت

(ط) السخينة هى القمح المسلوق .

(ى) استقينا هذه المعلومات الخاصة بالمطبوخات والاشربة من الباب الخامس من كتاب « آداب الحسبة » للسقطى ، صفحة ٤٦ وما يليها ، وعنوان الباب « فى ذابحى الجزور وبائعى اللحم والحوت وانواع المطبوخات » .

(ك) صفحتا ٣٥ و ٣٧ من « كتاب آداب الحسبة » للسقطى .

(ل) صفحة ١٠٤ من (أعمال الاعلام) لابن الخطيب .

(ل٢) يذكر الادريسى (صفحة ٢١٢ من نزهة المشتاق) والحميرى (صفحة ١٥٨ من روض القرطاس) انه كان « على السد ثلاث بيوت أرحاء ، فى كل بيت منها أربعة مطاحن » . وقد أقيم هذا السد على ضفاف النهر ، عند نهاية الرصيف ، لتحويل المياه ودفعها الى تحريك الارحاء ، وكان محل هذا السد منتزها لاهل قرطبة .

(م) واشتهرت قرطبة ببعض المحاصيل التى كانت تزرع فى سهولها الخصبة ، وكانت بها مناطق شاسعة مغروسة بأشجار الزيتون والفواكه ، واشتهرت ، مثلا ، بنوع من الرمان كان يسمى « السفرى » ، نسبة الى سفر ابن عبيد الكلاعى ، أو « الرصافى » نسبة الى الرصافة التى غرس بها هذا الرمان بعد جلبه من بلاد الشام فى عهد عبد الرحمن الاوسط (تنظر الحاشية رقم (٥) من صفحة (٢٨٢) من الجزء الثالث من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » لمؤلفه ليفى بروفنسال) ، وكانت بناحية قريبة من قرطبة غابة كثيفة من شجر البلوط ، واصبحت تعرف بفحص البلوط .

(ن) صفحة ٢٠٣ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى . هذا وكانت هنالك أحكام لتنظيم البيع والشراء وتحديد المكاييل والموازين ، وقد

وردت بعض هذه الاحكام فى صفحات ٣٤ وما يليها من « كتاب آداب الحسبة » للسقطى . وكانت المتاجر والحوانيت تفتح من طلوع الشمس الى غروبها .

(س) الاتراق هى الاحذية ، هذا وقد اكتسبت صناعة الجلود فى قرطبة شهرة عالمية ، منذ عهد الامارة والى وقتنا هذا ، بل انه ما زال يطلق على صناع الاحذية فى فرنسا اسم Cordonnier وهو لفظ مشتق من اسم قرطبة (Cordo Ba)

(ع) صفحة ١٨٧ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(ف) نجد فى الملحق الذى اعده (كولان) و (ليفى بروفنسال) لكتاب « آداب الحسبة » للسقى ، صفحات ١١ الى ٧٢ من القسم الفرنسى ، اسماء لفيف من أرباب الصنائع ، منها ، الخياطون والصباغون والقصارون والرفاؤن والدباغون والنشارون وصناع الاتراق ، والقطانون والحصارون والجبارون والجباصون والحدادون والزجاجون والدهانون والعشابون والخبازون والغربالون والطحانون والرفادون والسفاجون والقطاعون والهراسون والسراجون والقفاصون .

(ص) نشر احد علماء الاثار حديثا بحثا مستفيضا عن النقود فى قرطبة والاندلس ، ينظر : مايلز : عملة اسبانيا الاموية ، جزآن ، نيويورك ، ١٩٥٠ .
Miles, Yeorge C.; The Coinage of The Umayyads of Spain, Hispanie Numistie series, monographnumber I, 2 Vols; New York, 1950.

(ق) تراجع صفحات ١١٣ الى ١١٧ من الجزء الاول من المرجع المشار اليه فى الحاشية السابقة ، ومن الدنانير الذهبية التى عثر عليها دينار يحمل اسم الاندلس وسنة ١٠٢ (٧٢١) .

(ر) صفحة ٨٨ من « كتاب البلدان » لابن الفقيه ، وقيل ان الذى اشار على عبد الرحمن الاوسط بذلك هو حارث بن أبى شبل .

(ش) صفحة ١٩٨ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وصفحة ١٩٨ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » .

(ت) صفحة ٢٣١ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى ،

وصفحة ١٠٥ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى . ويجد القارىء فى الجزء الثانى من كتاب (مايلز) المشار اليه فى حاشية سابقة ، فى صفحة ٥٥١ وما يليها ، جداول بأوزان النقود الاندلسية . ويمكن الاستدلال من هذه الجداول على نسبها المختلفة ، ويراجع صفحات ٢٥١ الى ٢٦٠ من الجــزء الثالث من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » لمؤلفه (ليفى بروفنسال) وفيها ملخــص واضــح لبعض هذه الجداول ولاوزان الدراهم والدنانير وقيمها .

(ث) تراجع صفحات ١٥٩ و ٢٢٩ و ٢٥١ من الجزء الثانى من « البيــان المغرب » لابن عذارى .

(خ) كثيرا ما كان يسجل على النقود اسم الاندلس بدلا من قرطبة ، وان كان من المعروف انها كانت تسك فى دار السكة بقرطبة ، ثم بمدينة الزهــراء ابتداء من سنة ٣٣٦ (٩٤٧) .

(ذ) عثر كذلك على كمية من الفلوس ، وكان الدرهم يعادل ستين فلسا، تنظر صفحة ٨٨ من « كتاب البلدان » لابن الفقيه .

(ض) لم تكن أسماء الامراء تسجل قبل اعلان الخلافة ، باعتبار أن ضرب السكة كان من حق الخليفة وحده ، وكان يكتفى على الظهر بنقش البسملة او آية قرآنية .

(٣٨) صــفحتا ١١٠ و ١١٤ من القسم الاول من « صــــورة الارض » لابن حــوقل .

(٣٩) صفحتا ٢٠٧ و ٢٠٨ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٤٠) صفحة ٢٩٧ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٤٠ب) « نفح الطيب » للمقرى .

(٤١ب) صفحة ٤٧ من « كتاب آداب الحسبة » للسقطى .

(٤٢) كانت تفرض على أهل مدن الاندلس عامة ، وأهل قرطبة بصـــفة خاصة ، أحكام فى النظافة . وقد نقل الينا ابن عبـــدون فى « كتاب الحســـبة » المشار اليه فى حاشية سابقة ، بعض هذه الاحكام فى فصل « فى ذكـــر المبانى واصلاح الطرق والسروب والمزابل واماطة ما فيه ضرر للمسلمين » (صفحـــات ٣١ الى ٣٦) . ومما جاء فيها أن أهل الارباض كانوا يؤمرون بحماية الطـــرق بالامتناع عن « طرح الزبول والاقذار والكناسة فيها » ، والعناية باصـــلاح « المواضع المتطامنة التى تمسك الماء والطين » وأن « يصلح كل أحد فناء داره ويحميه » ، وأنه « يجب أن لا يطرح شىء من الزبل داخل المدينة . . . ويجب أن يؤكد أيضا على الذين يبيعون الحشو والدوم والربيع وكل ما له زبل أن ينقوا مواضعهم » (صفحة ٣٥) ، وأنه يجب على الباعة أن يراعوا نظافة الاسواق (صفحة ٣٦) .

(٤١ب) صفحة ٤٧ من « كتاب آداب الحسبة » للسقطى .

(٤٣) صفحة ٣٢٤ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى ، ونجـــد وصفا مفصلا لهذه السفارة فى القسم الثانى من المقتبس لابن حيان .

(٤٤) صفحة ٢٤٢ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى . وتنظر صفحة ١٥٣ من الجزء الثانى من « تاريخ اسبانيا الاســـلامية » لمـــؤلفه ليفى بروفنسال ، وفى صفحة ١٦١ اورد هذا المؤلف عن المصـــادر اللاتينية وصـــفا لسفارة ثانية من الامبراطور (أوتون الاول) الى الخليفة الناصر ، فى ســـنة ٣٤٥ــ٩٥٦ وكان تاريخ السفارة الاولى سنة ٣٤٢ كما جاء فى صفحة ٢١٨ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٤٥) صفحة ٣٤١ و ٣٤٣ وما يليهما من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى وترجع شهرة هذه السفارة الى ارتجاج الاديب الكبير على القالى أمام ابهة الحفل ، وبهته وتوقفه عن اتمام خطبته ، وانبراء الفقيه المشهور منذر بن سعيد البلوطى بارتجال خطبة بليغة رائعة .

(٤٦) شرحه ، صفحة ٣٤٢ . ويجد القارىء وصفا مسهبا لسفارة استقبلها الخليفة عبد الرحمن الناصر فى صفحة ١٩٥ من الجزء الثانى من « مجاضرة الابرار ومسامرة الاخيار فى الادبيات والنوادر والاخبار » لمؤلفه محى الدين بن العربى ، جزآن ، طبع القاهرة ، سنة ١٣٠٥ (١٨٨٨) .

(٤٧) تراجع صفحات ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٧ الى ٣٦٩ من الجزء الأول من « نفح الطيب » للمقرى ، وصفحة ٢٣٥ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى . هذا وكانت آخر سفارة شهدتها قرطبة هى سفارة بريل الثالث

(Borrell III) ، دوق برشلونة ، الى الحاجب عبد الملك المظفر بالله فى سنة ٣٩٤ (١٠٠٤) ، تنظر صفحة ٦٤ من القسم الرابع من « الذخيرة » لابن بسام .

(٤٨) أشرنا فى صفحة ٥٦ فيما سبق من كتابنا هذا الى انتصارات الحكم المستنصر بالله فى المغرب الاقصى . وكان الحكم قد أمد بالاموال والاسلحة جعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الاندلسى الذى كان أميرا على الزاب وشجعه على محاربة زيرى بن مناد ، والى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله على افريقية . ولقى هذا الوالى حتفه فى المعركة فى شهر رمضان من سنة ٣٦٠ (يوليو ٩٧١) . وأرسل جعفر أخاه يحى الى قرطبة فى شهر ذى القعدة حاملا معه رأس زيرى ليبشر الخليفة الحكم بانتصاره ، ثم ما لبث أن لحق به ووصل الاميران الى قرطبة يوم الاثنين ٢٤ ذى القعدة (١٨ سبتمبر) .

(٤٩) يقع هذا الوصف فى أربع عشرة صفحة ، من صفحة ٤٤ الى ٥٧ ، من القسم الخامس من كتاب « المقتبس » لابن حيان

(٥٠) كانت هذه المنية تقع على ضفاف الوادى الكبير ، جنوبى الجانب الغربى لقرطبة ، وكان طول الطريق منها الى قصر الزهراء لا يقل من عشرة كيلو مترات .

(٥١) تنظر صفحتا ١٥٦ و ١٥٧ فيما سبق من كتابنا هذا .

(٥٢) صفحتا ٥٣ و ٥٧ من القسم الخامس من « المقتبس » لابن حيان .

(٥٣) صفحة ١٠٥ من الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٥٤) شرحه ، صفحة ١٠٦ .

(٥٥) شرحه ، صفحة ١٠٧ ، وتنظر صفحتا ٦٨ و ٦٩ فيما سبق من كتابنا هـــذا .

(٥٦) صفحة ٣١٨ من الجزء الاول من « كتاب الصلة » لابن بشكوال .

(٥٧) « البيان المغرب » لابن عذارى .

الفصل الثامن

نظم الحكم والخدمة

١ ــ الامارة والخلافة وولاية العهد .

٢ ــ الحجابة والوزارة .

٣ ــ الخطط الكبرى : الرسائل ، الخزانة ، السكة ، الشرطة ، المدينة ، السوق ، المواريث وغيرها .

٤ ــ القضاء والرد والمظالم .

٥ ــ الجيش .

الفصـــــل الثـــامن

نظم الحـــكم والخـــــدمة

ليس فيما وصل الى أيدينا من كتب المـــؤرخين غـــير بيانات ضئيلة متفرقة ، مقتضبة أحيانا ، مبهمة غالبا ، عن نظم الحكم فى الاندلس بصفة عامة ، وفى قرطبة بصفة خاصة . هذا من جهة ، ومـــن جهـــة أخرى ، فان ما ورد فى هذه الكتب عن هذه النظم يسجل الوجه النظرى منها ، أو الهيكل العام فحسب ، أما ما كان يحدث فى الواقع فقد كان رهنا برغبة الحاكم ، اما تمشيا مع تقاليد مرسومة ، واما خروجا عنها .

وأغلب الظن أن نظم الحكم فى عهد الولاية كان لا يختلف كثيرا عما كان متبعا فى الولايات الاخرى للدولة العربية ، فى العصر الاموى ، فى بلاد المشرق والمغرب . فكان الوالى ، مثلا ، كما رأينا ، يعين لقرطبة من قبـــل الخليفة فى دمشق ، وغالبا ، من قبل واليه بالقيروان . وقد حـــدث أكثر من مرة أن أسقط فريق من أهل قرطبة واليهم ، وبايعوا واليا آخر عليهم ، ثم صارت الولاية للاغلب ابتداء من سنة ١٢٧ ، لا شأن فيها لا للخليفـــة ولا لوالى القيروان(١) .

(١)

الامارة والخلافة وولاية العهد

وبدأت شئون الحكم تتجلى منذ سنة ١٣٨ ، فى عهد الامير عبد الرحمن الداخل ، وتتبلور ، بعد ذلك بقرن ونصف ، فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر . كان أمير الاندلس ، مثله فى ذلك مثل خلفاء بنى أمية ، هو الحاكم المطلق ، الامر الناهى فى شئون الدولة وشئون الرعية ، لم يكن لسلطته حد ، الا ما يتصوره هو نفسه من « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، ونشر العدالة ورفع الظلم . وكانت الرعية تهابه ، اما عن حب وتبجيل ، واما عن كراهية وازدراء . وكان أرباب الوظائف ، علا شأنهم أو قل ، طوع أمره،يرفع منهم من يشاء،ويعزل منهم من يشاء،ويحبس منهم من ينطق بحبسه ومصادرة أمواله ، ويقتل منهم من يستبيح دمه ، فيما عدا استثناء واحد اختص الامير به غالبا ، كما سنرى ، رجال القضاء . كل ذلك اما اشباعا لهوى ، أو تحقيقا لمصلحة . كانت الاندلس ، وكانت قرطبة ، ملكا خالصا لاميرها ، أهلها ومالها وعقارها ، فى الحدود التى رسمها الشرع ، وفقا لرغبته وتفسيره لهذه الحدود ، فلما تلقب الامير بلقب الخلافة ، عظم شأنه وازدادت هيبته ونفوذه .

كان من أهم مقومات الامير والخليفة وواجباته امامة المصلين فى صلاة الجمعة بالمسجد الجامع بقرطبة ، وان كان كثيرا ما كان يفوض فى ذلك اما « قاضى الجماعة ، واما صاحب الصلاة » ، كما كان يفوض الوالى فى كور الاندلس فى أداء واجب الامامة . وكذلك كان من المفروض أن يقود الجيوش بنفسه ، وينظمها ويشرف على اعداد الصوائف والشواتى،ويحدد وجهاتها ، وهو الذى كان يعين الحجاب والوزراء وأصحاب الخطط ،

والسفراء الذين كان يوفدهم خارج حدود الدولة فى ظروف خاصة • وهو الذى كان يراجع أموال الخزانة ويأمـر بجبايتها والصرف منها ، كما كان يشرف على أمواله الخاصـة •

واذا كانت هذه السلطة الواسعة قد جعلت عاهل الاندلس يستمتع بمعظم خيراتها ، فانها من جهة أخرى قد حملته أعبـاء جسيمة ، حتى أن الخليفة عبد الرحمن الناصر قد عد ، كما قيل ، الايام التى صفت له فى عهده المديد ، فلم تزد عن أربعة عشر يوما(٢) • واذا كان خليفـة مثل الحـكم المستنصر بالله قد أنكب على جمع الكتب والمطالعة وطلب العـلم ورعاية العلماء ، فانما كان يفوض بعض شئون الدولة الى حجاب ووزراء أكفاء قادرين ، ممن حازوا رضاه ، واكتسبوا ثقته •

وكانت هذه السابقة سببا من الاسباب التى شجعت الحاجب ابن أبى عامر على الاستئثار بالحكم واغتصاب معظم سلطات الخليفة ، فلم يحتفظ لهشام المؤيد بغير رسوم الخلافة وألقابها ، كالخطبة باسمه فى المساجد ، وتسجيل اسمه على السكة والطراز ، وتذييل الاوامر والمراسيم والسجلات بخـاتمه •

وكان من رسـوم الخـلافة الجـلوس على السرير(٣) ، والمسـك بالخيزران • ولسنا نعرف اذا كان هذا التقليد كان متبعا منذ عهد الناصر لدين الله ، وأغلب الظن أن الذى استحدثه هو ابنه الحكم المستنصر بالله ، يوم بيعته فى الثالث من رمضان سنة ٣٥٠ (١٥ أكتوبر ٩٦١) ، وأن الذى كان متبعا من قبل هو أن يتربع الامير أو الخليفة على مـرتبة تسمـو على غيرها من المراتب • وكان الخاتم من أهم رسوم الامارة والخلافة ، وهـو الذى كان يحمل اسم العاهل مصـحوبا بعبارة يختارها من عبارتـين اما

« بقضاء الله راض » أو « بالله يثق وبه يعتصم »(٤) • وكانت هذه العبارة تنقش كذلك على ألوية العامل فى الجيش •

وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله أول من تلقب « بالالقاب السلطانية »(٤ب) • وأصبحت هذه سنة متبعة من بعده ، فتلقب الحكم بالمستنصر بالله ، وابنه هشام بالمؤيد • واتبع ملوك الطوائف جميعا هذا التقليد ، حتى أصبحوا يعرفون فى كتب المؤرخين بألقابهم الملكية(٤ج) • وكان الامير أو الخليفة يحرص على أن يعلن خضوعه للعزة الالهية بأن يسبق اسمه على السكة وفى المكاتبات والخطب بلفظة « عبد الله » كما كان كذلك يحرص على أن يؤكد افتخاره وهيبته فى ذكر الالقاب « السلطانية » التى كانت تتبع اسمه •

وكان من أهم الرسوم كذلك ، سواء فى عهود الامارة أو الخلافة ، حفلات البيعة ، بيعة ولاية العهد وبيعة الامارة والخلافة • وكان حفلا عظيما يشهد بعظمته ما رواه المؤرخين عن بيعة الحكم(٥) • كان الخليفة قاعدا على سرير الملك فى « البهو الاوسط من الابهاء المذهبة القبلية التى فى السطح الممرد » من قصور الزهراء ، وكان يحيط به أخوته وأعمامه ووزراؤه ووجوه الناس • ثم يتقدم اليه الخاصة ، فينصتوا « لصحيفة البيعة » ، ويلتزموا « الايمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها » ••• « على الرسم فى مجالس الاحتفال المعروفة » • واصطف فى المجلس الذى قعد فيه الخليفة « أكابر الفتيان ، يمينا وشمالا ، الى آخر البهو ، كل منهم على قدره فى المنزلة » ، ••• قد تقلدوا السيوف ، ثم تلاهم الفتيان الوصفاء ، عليهم الدروع السابغة والسيوف الجالية ، صفين منتظمين فى السطح [الممرد] • وفى الفصلان المتصلة به [وقف] ذوو الاسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان ••• بأيديهم السيوف ، يتصل بهم من دونهم

من طبقات الخصيان الصقالبة ، ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيهم وجعابهم، ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوف العبيد الفحول شاكين فى الرائعة والعدة الكاملة . وقامت التعبئة فى دار الجند ، والترتيب من رجالة العبيد ، عليهم الجواش والاقبية البيض ، وعلى رؤوسهم البيضات الصقلبية ، وبأيديهم التراس الملونة والاسلحة المزينة ، انتظموا صفين الى آخر الفصل ، وعلى باب السدة الاعظم البوابون وأعوانهم ، ومن خارج باب السدة فرسان العبيد والرماة ، موكبا اثر موكب ، الى باب المدينة الشارع الى الصحراء » . وكان الخاصة نازلين فى فصل القصر ، قاعدين فى المجلسين الشرقى والغربى ، فتقدموا بدورهم ، بعد الاخوة والاعمام والوزراء والوجهاء ، للالتزام بالايمان . « ولما تمت البيعة أذن للناس بالانفضاض » . فكان حفلا رائعا واستعراضا عظيما . وكان الخليفة يفوض القضاة فى أخذ البيعة من العامة فى المسجد الجامع .

وكان يدعى فى خطبة الجمعة بالمساجد ، أول الامر ، للامير الاموى ، عقب الدعاء للخليفة العباسى . ولم يدم ذلك غير أشهر من بدء امارة عبد الرحمن الداخل ثم أسقط الدعاء للخليفة العباسى وأصبح يدعى للامير وحده ، متخذا لقب الامام ، أو ابن الخلائف(٥ب) ، وقيل ان عبد الرحمن الاوسط كان يدعى له بأمير المؤمنين . ولما تقلد الناصر الخلافة ، صار يدعى له وحده ، بالاضافة الى ذلك باسمه الناصر لدين الله . ثم لما استأثر المنصور بن أبى عامر بالسلطة فرض الدعاء لنفسه بعد الدعاء للخليفة ، واستمر الدعاء للخليفة الى أن ألغيت الخلافة فى ذى الحجة سنة ٤٢٢ (ديسمبر ١٠٣١) ، فكان يدعى بعد ذلك للمتغلب على قرطبة ، حتى سنة ٤٨٤ (١٠٩٢) ، حين ضمها المرابطون الى أملاكهم وأعيدت الخطبة ، لفترة من الزمن ، للخليفة العباسى .

وكان الامير أو الخليفة يعقد بعض المجالس للتداول فيما يعن له من الشئون أو التشاور أو المسامرة • وكانت أهم هذه المجـالس « مجـالس الخاصة » التى كان يدعى اليها حاجبه ووزراءه وأرباب الوظائف الكبرى ووجهاء قرطبة • ولم يصل الينا شىء عما كان يدور فى هـذه المجـالس ، الا أن الجلوس فيها كان حسب رسم المراتب • وكان الامير أو الخليفـة يجمع أحيانا مجلس « المشورة » ، يجمع فيه القضاة والفقهاء «المشاورون» ليستفتيهم فيما يطرأ عليه من الشئون الدينية • أما مجـالس المسامـرة فكانت مقصورة على فئة من الاخصاء ، وكانت مجـالس مـرح وطـرب وشراب ورقص وغناء ، وعادة ما كان الامير يصـطفى متطيبا يشـارك فى هذه المجالس(٦) •

كان الذى يلى الامير ، أو الخليفة ، فى مرتبته العليا ، نظـريا ، ولى عهده ، ان كان قد بويع بولاية العهد • وكان الامير يعين ابنه الاكبر وليا لعهده ويأخذ البيعة له ، أو يوصى قبل موته بذلك • وحدث أن خلف الامير عبد الله أخاه المنذر ، بعد موته ، وكان أبوهما محمد بن عبد الرحمن ، فيما يرجع ، قد أوصى بذلك ، كما حدث أن اختار عبد الله بن محمد هذا حفيده عبد الرحمن لولاية العهد ، متخطيا أولاده ، لانه كان قد قتل ابنه الاكبر ، فاصطفا ولده عبد الرحمن هذا عوضا عنه ، وقربه اليه • ولم يكن لولى العهد سلطة فى شئون الدولة ، الا ما يعهد له به الامير أو الخليفة ، مثـل قيادة حملة من حملات الجهاد ، أو الاشراف على تنفيذ رغبة من رغباته ، أو مشروع من مشروعاته • فلم تكن تظهر لولى العهد مرتبة عليا فى غـير الحفلات المرسومة •

(۲)

الحجـــــابة والوزارة

أما الذى كان يشغل حقا المرتبة التالية للامارة فقد كان الحـــاجب • وكانت الحجابة أهم خطة فى الدولة ، وأعلى مـرتبة من الوزارة • وكان الحاجب يسمى أحيانا الوزير « الاقرب » ، لانه كان بحكم مرتبته « أقرب الوزراء الى الخليفة » • ويفهم مما رواه المؤرخون أن الحاجب كان أصلا وزيرا ضمن جماعة من الوزراء يختاره الامير « لمكان النائب » « فيسميه بالحاجب »(۷) ، فقد كان يوسف بن بخت وزيرا وحاجبا فى عهـــد عبـــد الرحمن الداخل ، وكان عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وزيرا وحاجبا فى عهد الحكم الربضى ، وكان عيسى بن شهيد وزيرا وحاجبا فى عهد عبـــد الرحمن الاوسط وكان بدر بن أحمد المولى وزيرا وحاجبا فى عهد عبد الرحمن الناصر • ولكن الحاجب ، بالرغم من علو قـــدره ، لم يكن بمثـــابة رئيس للوزراء ، ولم يصل الى هذه المرتبة الا فى عهد الحـــكم المستنصر بالله • وكان شأن الحاجب يرتفع بقدر قوة شخصيته ، الى درجة أن الامير عبـــد الله بن محمد لمـــا خشى من خطره أبقى المنصب شاغرا مدة من الزمن ، وكذلك فعل الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فانه كان قد عين عند توليه الامارة بدرا حاجبا ، ولمـــا مات هذا الحاجب فى سنة ۳۰۹ (۹۲۱) عين موسى بن محمد بن حدير خلفا له فى مرتبة الحجابة ، ولمـــا مات فى سنة ۳۲۰ (۹۳۲) لم يعين خلفا له ، وبقى بدون حاجب الى نهـــاية خـــلافته فى ســـنة ۳٥۰ (۹٦۱) ، أى ثلاثين سنة • ولكن الحكم المستنصر بالله عين جعفر المصحفى حاجبا له ، وفوضه فى شئون الدولة حتى أصبح الحاكم الفعلى لها ، واتخذ لقب « سيف الدولة » • وعندما عين المنصور بن أبى عامر ابنه وولى عهده

حاجبا ، أسبغ على نفسه لقب « الملك الكريم » ، ولم يبق للخـلافة معه سوى الاسم والصورة(٨) •

وكانت الوزارة مرتبة عالية من مراتب الدولة ، ولكن الظاهر أنه لم تكن للوزارة وظائف ثابتة أو « ولاية محـدودة » ، انمـا كان للوزارة « رزق » معلوم وراتب سام ، وكان للوزير حظوة عنـد الامـير • كانت الوزارة ، فيما يبدو لى ، لقبا يمنحه الامير تكريما وتشريفـا ، ولم تكن ، على حد اصطلاح المؤرخين ، « خطة » ، بالرغم من أن كثيرا منهم وصفها بهذه الصفة • فقد ذكر ابن عذارى ، مثلا ، أن الامير عبد الله بن محمـد ولى محمد بن حجاج « خطة الوزارة » ••• « وأغزاه معه وزيرا »(٩) • وهذا معناه ، فى رأيى ، أن الامير منح قائده لقب وزير ، تشجيعا له ، اذ كان يتبع اللقب زيادة الراتب ، وتقديرا لاقدامه ، اذ كان يتبع اللقب كذلك التقدم على غيره من القواد فى المرتبة • ويؤكد هذا الرأى أن كثير من أرباب الوظائف الكبرى منحوا فى عهود مختلفة ألقاب الوزراء ، فقد كان فطيس بن سليمان كاتبا فى عهد الحكم الربضى ، ومنحه هذا الامير لقب وزير • وكذلك منح الامير عبد الله بن محمد لقب وزير لكاتبه عبد الله بن محمد الزجالى، ولصاحب المدينة محمد بن وليـد بن غانم • وكان عبـد الرحمن الناصر « يستوزر » كثيرا من قواده ، « وصار اسم الوزارة عاما لكل من يجالس الملوك ويختص بهم »(١٠) • بل أصـبحت الوزارة لقبا للشيوخ والفقهاء والعلماء(١١) •

ومما يزيد رأينا حجة فى أن الوزارة فى تاريـخ قـرطبة كانت لقبا لا خطة ، وتشريفا لا تكليفا ، أن استحدث فى عهد عبد الرحمن الناصر لقب « ذى الوزارتين » ، لا ، كما يبدو من مـدلول اللفـظ ، وكما كان متبعا فى بلاد المشرق ، للجمع بين وزارة السيف ووزارة القلم ، بل زيادة فى التكريم

والعطاء . واذا كان المقــرى يفسر « ذا الوزارتين » بأنه « الوزير الذى ينوب عن الملك »(١٢) ، فانه يشرح فى ســياق رواية أخــرى السبب فى استحداث هذا اللقب بقوله بأن أحمــد بن شــهيد ، صــاحب الهــدية المشهورة(١٣) كان أول من حظى بلقب ذى الوزارتين ، وذلك أنه كان وزيرا عند الخليفة عبد الرحمن الناصر فزاده فى ســنة ٣٢٧ (٩٣٩) « حظــوة واختصاصا ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء جميعا ، وأضعف له رزق الوزارة ، وبلغه ثمانين ألف دينار أندلسية » ... « وسماه ذا الوزارتين »، « وكان أول من تسمى بذلك بالاندلس ، امتثالا لاسم صاعد بن مخلد ، وزير بنى العباس ببغداد »(١٤) .

(٣)

الخطـط الكبرى

كانت الوزارة لقبا ، ولكن شئون الدولة كانت موزعة بين عدد كبير من أرباب الوظائف الكبرى ، الذين كانوا يسمون « قوام الخدمة » وكانت وظائفهم تسمى « الخطط » • ويرجع الفضـل الى الامير عبـد الرحمن الاوسط فى تنظيم هذه الوظائف وترتيب « رسوم المملكة » ومراتب « أهل الخدمة » وطبقات « الخاصة » ، لا بالنسبة « لاصناف » الوظائف فحسب، بل بالنسبة كذلك لاهميتها وتسلسل مراتبها • وجعل هذا الامير لبعـض هذه الخطط « دواوين » ، كما أنه أمر ببناء مجلس داخـل قصر الامارة بقرطبة ، وعلى مقربة من أحد أبوابه ، وهو باب السـدة ، وجعـله مقرا للحاجب والوزراء وقوام الخدمة ، وكان يسمى « مجلس الخدمة » ، ثم اتخذ فى عهد الخلافة اسم « خدمة الخليفة » • وظل هذا المجلس قائمـا هنالك الى أن نقله المنصور بن أبى عامر الى قصر الزاهرة •

وأغلب الظن أن بعض هذه « الخطط » كانت تشرى ، بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، ولعل هذا هو السبب فى أن عبد الرحمن الناصر كان يكثر من العزل والتولية ، أو على الاصح ، كان يكثر من نقل ولاته على الخطط، فينقل الواحد منهم ، مثلا ، « من خطة المدينة أو خطة الضياع أو خزانة المال الى غيرها من الخطط ، أو يقدمهم الى الوزارة ، أو يستبقيهم فيهـا دون ولاية محدودة » • ومعنى ذلك أن « الخطه » ، أى الوظيفة ، كانت تستمد أهميتها ، لا من طبيعه « ولايتها » ، أى اختصاصاتها ، بل من قدر « مرتبتها » فى تسلسل المراتب المرسومة فى الحفلات ، وبالتالى من مقدار « رزقها » ، أى راتبها •

وكان تقليد كل هذه « الخطط » يصدر فى « صـك » عن الامـير أو الخليفة ، وكان أربابها يختارون ، فى معظم الاحوال ، من أفراد البيوتات العربية العريقة فىقرطبة ، أو من أصحاب الجـاه فيها ، أو من بيـوتات الموالى ، عربا أو صقالبة ، ولم يحدث الا فيما ندر ، أن اختار الامير ، أو الخليفة ، لاحدى هذه الوظائف الكبرى ، فردا من أفراد أسرته ، فيما عدا تقليد واحد منهم ، ولد أو أخ أو ابن عم ، قيـادة الجيش ، فى حمـلة من حملات الجهاد أو اخماد الفتن •

وكان من أهم هذه الخطط « خطة الرسائل » وكان صـاحبها يسمى « الكاتب » أو « كاتب الرسـائل » أو « صـاحب الرسـائل » ، وكان « له حظ فى القلوب والعيون »(١٥) • ثم اتسعت مهام الكاتب فعين عبـد الرحمن الناصر أربعة كتاب ، لكل واحـد خطة : كاتب لاهل الخدمـة ، وكاتب لاهل الثغور والسواحل والاطراف ، وكاتب للعهود والتوقيعات ، وكاتب لمطالب الناس وحوائجهم وتنجيز التوقيعـات عليهم(١٦) • وكان الخليفة بالاضافة الى هؤلاء الكتاب كاتب « الخاص » • وكان الخليفـة يعهد اليه بكتابة التواقيع التى كان هذا الكاتب يعهد ، عادة ، بصـياغتها الى « كاتب الانشاء » ، بعد اشارته له بوضعها ، حسب أهميتها ، فى صورة بطاقة أو رسالة أو منشور أو سجل(١٧) • وقد بلغ فن الانشاء حدا كبيرا من البلاغة اللغوية ، يشهد به ما سجله المـؤرخون من رسـائل الكتاب فى مناسبات مختلفة • ولعل أفضل الامثلة على ذلك ما نقـله ابن بسـام فى « الذخيرة » عن رسالة كتبها أحمـد بن برد ، كاتب الحـاجب عبد الملك المظفر ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وهى رسالة لا تدل فحسب على مدى العناية بالانشاء ، بل هى توضح طابع الرسائل بصفة عامة فى ديوان الامارة والخلافة بقرطبة(١٨) •

وكان من أهم الخطط « خزانة المال » ، وكان صاحبها يسمى « خازن المال » ، أو « صاحب المخزون » • وكثيرا ما كان بالقصر أكثر من واحد يتولى هذه الشئون ، اذ أنه يروى أن عبد الرحمن الناصر عزل « خزانه » الخمسة ، وعين أربعة غيرهم ، اختارهم من وجهاء قرطبة(١٩) • وكان عدد الخزان يزداد بازدياد ايرادات الدولة وتنوعها • وكان بجانب خزانات المال « بيت المال » ، ولكن هذا البيت كان مقصورا على أموال الاوقاف ، كما أنه كان ملحقا بالمسجد الجامع ، وكان القضاة يتولون شئونه • أما خزانات المال فكان لها بيت خاص داخل القصر • وهى كذلك غير « خاصية بيت المال » ، وهى ادارة أموال الخليفة الخاصة وخزانته ، وكان لها صاحب مستقل ، كما كان لها بيت خاص آخر فى داخل القصر •

وأغلب الظن أنه كانت تتصل بخطة خزانة المال خطة أخرى كبرى هى خطة « الزمام » ، وصاحبها يسمى « كاتب الزمام » ، وهى « وظيفة رفيعة القدر ، عالية الشأن » لان عظماء الناس ووجوهم يحتاجون الى صاحبها ، وكان مختصا بالحسابات والمالية (١٩ب) • وأغلب الظن كذلك أن خطة الزمام هذه كان يطلق عليها كذلك خطة « الخراج » ، وكان متوليها يسمى صاحب الخراج أو صاحب الاشغال الخراجية ، وكان « أعظم من الوزير ، وأكثر اتباعا وأصحابا » ، وان كان المقرى يجعل منها خطتين مختلفتين(١٩جـ) •

واختلفت ايرادات خزانة المال باختلاف سنوات الرخاء فى الاندلس• وذكر ابن بشكوال « أن جباية الاندلس بلغت فى مدة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار من السوق » وأن المستخلص ، وهو خاصية بيت المال ، بلغ « سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار »(٢٠) • وذلك بالاضافة الى الجباية العينية ، وكانت

تسمى « الوظائف المخزنية » ، وكان معظمها من الحبوب التى كانت تحفظ فى الارهاء ، والتى كانت تقدر سنويا بثلاث وخمسين ألف ضريبة من القمح، وثلاث وسبعين ألفا من الشعير • وقيل ان المخزون فى الارهاء بلغ ، فى عهد المنصور بن أبى عامر ، مائتى ألف ضريبة(٢١) •

وبلغت الجباية فى قرطبة وكورتها فقط ، فى عهد الامير الحكم الربضى ، ٠٠٠ر١٤٢ دينار ، وبلغت « الوظيفة المخزنية » ٠٠٠ر٥٣ ضريبة من القمح و ٠٠٠ر٧٣ من الشعير ، أما ايرادات خزانة المال من الاندلس فى عهد هذا الامير ، فقد بلغت ٠٠٠ر٦٠٠ دينارا ، وارتفعت فى عهد عبد الرحمن الاوسط الى ألف ألف دينار ، وقيل ان الرخاء كان يسود البلاد فى عهد هذا الامير ، وكانت الخزائن تمتلىء بالذهب والحبوب ، حتى أن هذا الامير كان يوزع منها بسخاء على أهل قرطبة عندما أصاب القحط الاندلس فى سنة ٢٠٧ (٨٢٢) ثم فى سنة ٢٣٢ (٨٤٦) • ويحدثنا الرواة كذلك أن المخزون بخزانة المال كان ، فى سنة ٣٤٠ (٩٥١) ، فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، عشرين ألف ألف دينار ، وأنه ارتفع فى سنة ٣٦١ (٩٧٧) ، سنة وفاة الخليفة الحكم المستنصر بالله ، الى ضعف هذا القدر •

وكانت ايرادات خزانة المال تجمع من رسوم دار السكة والجزية والصدقات والجبايات والخراجات والاعشار والضمانات والمغارم والاموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالى والمكوس ورسوم الاسواق والمصادرات(٢٢) • وكان يعهد الى « متقبل » بجباية « القبلة » ، وهى ضريبة على الاسواق ورسوم النبيذ • وكان أهل قرطبة يدفعون « الجباية » مقسمة على اثنى عشر شهرا ، كما كان عليهم أن يدفعوا « التقوية » ، وهى ضريبة تفرض عند استنفار الجيوش ، فكان كل قادر منهم يكلف بتزويد جندى واحد بالمؤونة والسلاح •

وكانت ايرادات « خاصية بيت المال » تجمع من غلة « الضيع » وهى الاملاك الخاصة بالامير أو الخليفة ، والتى كان يديرها « مناصفون » ، وكان على رأسهم « صاحب الضيع » أو « الضياع »(٢٣) • وقد بلغ قدر هذا « المستخلص » فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، كما رأينا ، ٧٥٠ر٠٠٠ دينارا سنويا ، والظاهر أنها تضخمت فى نهاية عهده ، حتى أن ابنه الحكم المستنصر بالله أمر باستقطاع ربع « المستخلص » ، وتوجيهه لاعمال البر ولفقراء أهل قرطبة(٢٤) • وكان الخلفاء والامراء ينفقون من هذا المستخلص على شئونهم الخاصة وعلى قصورهم وحرمهم وحرسهم ، كما كانوا يدفعون منها الصلات والمعاريف والخلع •

وكانت « السكة » خطة هامة من خطط الدولة ، وقد أنشأها ، كما رأينا ، الامير عبد الرحمن الاوسط ، عندما أنشأ الامير دارا للسكة(٢٥) • وأصبح المتحصل من هذه الدار مبلغا عظيما • يروى عن عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر « أن سكة دار ضربه على الدراهم والدنانير دخلها فى كل سنة مائتا ألف دينار ، وصرف الدينار سبعة عشر درهما »(٢٦) • وكان يسمح لاهل قرطبة أن يقدموا ما يحصلون عليه من ذهب وفضة لتضرب فى هذه الدار دنانير ودراهم ، نظير رسم مئوى ضئيل هو الذى كان يتجمع منه دخل هذه الدار • وقد جدد الخليفة عبد الرحمن الناصر دار السكة ونظر ادارتها ، وجعلها خطة كبرى كان يسمى رئيسها « صاحب السكة »، ونقلها الى مدينة الزهراء ، وكان موقعها قبل ذلك بجوار المسجد الجامع عند باب العطارين(٢٧) •

وكانت « الشرطة » خطة كبرى ، بل كان لها أكثر من خطة • وقد استحدثها الامير عبد الرحمن الاوسط ، واقتطع اختصاصاتها من خطة « السوق » ، وكانت تسمى فى عهده « أحكام الشرطة » ، وكان لها قسمان،

شرطة كبرى ، وشرطة صغرى ، وأضـاف اليهما الخليفة ، عبـد الرحمن الناصر قسما ثالثا ، كان يسمى « الشرطـة الوسـطى » • و « الشرطـة الكبرى » أو « العليا » كانت تختص بالخاصة والدهماء ، وجعل لصاحبها « الحكم على أهل المراتب السـلطانية والضرب على أيديهم فى الظلمات وعلى أيدى أقاربهم ومن اليهم من أهل الجـاه »(٢٨) • وكان مقر هـذه الخطة داخل القصر بالقرب من باب من أبوابه ، وكان تحت امرة صاحبها وبين يديه « رجال يتبوؤن المقاعـد ••• فـلا يبرحـون عنهـا الا فى تصريفه »(٢٩) • وكان صاحب الشرطـة الكبرى يعـد من أكابر رجالات الدولة ، حتى أن ولايتها كانت تعتبر « ترشيحا للوزارة والحجابة »(٣٠) • أما الشرطة « الصغرى » فكانت تختص بالعامـة من أهـل قرطبة • وأما الشرطة « الوسطى » فلم نستطع تحديد اختصاصها ، غير أننا نعرف أن المنصور بن أبى عامر ولى هذه الخطة فى سنة ٣٦١ (٩٧٢) •

وكان صاحب الشرطة « عظيم القدر عند السلطان وكان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون الا فى حضرة السلطان الاعظم ، وهو الذى يحد على الزنا وشرب الخمر وكثير من الامور الشرعية راجع اليه »(٣١) • وكان للمنصور بن أبى عامر صاحب شرطة خاص به ، بالاضافة الى أصحاب الشرطة الثلاث(٣٢) •

ويذكر الرواة أن « صاحب المدينة » أو « والى المدينة » كانت خطة من الوظائف الكبرى فى قرطبة • ويستدل على أهمية هذه الوظيفة من أن راتبها كان فى عهد عبـد الرحمن الاوسـط مائة دينـار بينما كان راتب « صاحب السوق » ، وهو موظف كبير كذلك ، كان ، فى العهد نفسه ، ثلاثين دينارا • وكان يعاون صاحب المدينة جماعة من « الدرابين » ، وهم المكلفون

بالعسس والطواف بالليل ، فى شوارع المدينة وأحيائها • ولهذا كان صاحب المدينة يسمى أحيانا « صاحب الليل » • وكثيرا ما كان يجمع هذا الصاحب بين خطته و « خطة الشرطة » • ولما أنشئت مدينة الزهراء ، عين الخليفة عبد الرحمن الناصر « صاحبا » آخر خاصا بمدينته ، وكذلك عين المنصور بن أبى عامر صاحبا خاصا لمدينة الزاهرة عند انشائها ، فأصبح فى قرطبة ثلاثة أصحاب لمدنها الثلاث •

ولم يحدد الرواة اختصاصات صاحب المدينة مثلما أشاروا الى بعض اختصاصات صاحب الشرطة ، أو الى بعض اختصاصات «صاحب السوق» اذ كان لاسواق قرطبة « خطة » ، وهى من الخطط العتيقة فى قرطبة التى يبدو أنها أنشئت منذ عهد الولاة • وكان اختصاص صاحبها فى أول الامر متسعا ، يشمل الشرطة والمدينة • وقد حدد الامير عبد الرحمن الاوسط ، عند تنظيمه لادارة الدولة ، اختصاصات هذا الصاحب ، وكانت لا تقتصر على الاشراف على الاسواق ، وكان قراره وحكمه فى شئونها قاطعا ، كأنه « قاض »(٣٣) ، امتدت اختصاصاته الى مراقبة النظام فى المدينة ، وتتبع حركات العامة والسفهاء • وكان هذا الصاحب من « أهل العلم والفطن »، وكان له الحق فى معاقبة المخالفات بعقوبة « الضرب والتجريس فى الاسواق » فان لم يرتدع المخالف « نفى من البلد »(٣٤) • وكانت هذه الخطة تسمى ، بعد عهد الخلافة ، « خطة الحسبة » ، وكان صاحبها يسمى « المحتسب » ، وكانت لاصحاب هذه الخطة « فى أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه ، لانها عندهم تدخل فى جميع المبتاعات وتتفرع الى ما يطول ذكره »(٣٥) • ولا شك فى أنه كان يشترط فى صاحب هذه الوظيفة ، بصفة خاصة ، علمه بنواحيها وخبرته فى شئونها ، وهذا ما يفسر قول المقرى من أنه كان كأنه « قاض » ، اذ كانت

خطة « السوق » أو خطة « الحسبة » وخطـة « القضـاء » ، وبالتـالى « المشورة » ، وهى وحدها التى يجاز اليها المرشح بعلمه ونزاهته •

ومن الخطط الهامه كانت خطة « المواريث » ، وصاحبها مسئول عن الحكم فى المواريث الحشرية ، أى التى لم يثبت لهـا وريث شرعى ، وفقا لاحكام المذهب المالكى ، بالنسبة للمسلمين ، أو وفقا لاحكام أهل الذمـة والمسيحيين • وكانت هذه المـواريث تؤول الى الدولة ، ولا تدخـل فى « بيت المـال » ، انما تخصص لها هـذه الخطـة لرعايتها واسـتغلالها وادارتها • وكان صاحب هذه الخطة يستمد سلطته من قاضى الجماعة ، ويليه أهمية ، وان كان الذى يعينه هو الامير أو الخليفة(٣٦) • وقد سبق أن أشرنا الى أن المنصور بن أبى عامر قـد بدأ ارتقائه فى الوظائف بتعيينه صاحبا للمواريث فى عهد الحكم المستنصر بالله فى سنة ٣٥٨ (٩٦٩)(٣٧) •

وقد تعددت الخطط الكبرى فى دواوين الدولة بقرطبة ، ومن بـين هذه الخطط ، فيما نعـرف ، « خطة الوثائـق » ، و « خطـة البنيان أو المبانى » ، « خطة البرد » وهى البريد ، و « خطة السـاقية » وهى رى الاراضى ، و « خطة الفحص » ، وهى المناطق الزراعية ، و « خطة القطوع » وهى اقطاعات الولاة ، و « خطة الصدقة » وهى الزكاة ويسمى صاحبها « المصدق »(٣٨) ، و « خطة الخراج » ، و « خطة الصاغة » وتتبعها دار الصناعة ، هذا بالاضافة الى أصـحاب « الكور » وهم الولاة والعمال ، وأصحاب « الثغور » •

وكانت هنالك غير هذه خطط خاصة بالقصر ، مثل « البيازرة » ، و « الخيل » و « المطبخ أو المطابخ » ، و « السـيف » ، و « الطـراز » ، و « الطب والحكمة » و « الانزال أو النزائل » وهى الضيافة •

وتعددت الاحوال التى كان يجمع فيها صاحب احدى هـذه الخطط الكبرى بين أكثر من خطة واحدة ، وسنرى أمثلة من ذلك فى الجزء الثالث من هذا الكتاب الخاص « بعلماء قرطبة وأعلامها » • وكثيرا ما كان صاحب الخطة « محلفا » ، أى كان يحلف اليمين قبل تعيينه • وكان يتبع كل خطة من هذه الخطط جمع من الموظفين ذوى المـراتب الادنى ، وهم « النظار » و « المشرفون » و « الامناء » و « الشهود » و «المتقبلون » ، و «الدرابون» وغيرهم •

وكان يوم الاحد « يوم راحة للخدمة » فى الدواوين(٣٩) ، ولعل هذه العادة كانت متبعة منذ عهد الامير محمد بن عبد الرحمن ، عنـدما عـين القومس كاتبا له فى منتصف القرن الثالث (التاسع الميلادى) •

(٤)

خطة القضـــاء

كانت خطة « القضاء » خطة جليلة ، بل لعلها كانت ، كما سنرى ، أجل الخطط ، وكانت على كل حال « أعظم الخطط عند الخاصة والعامة » ، اذ كان صاحبها هو الوالى « للحكم الشرعى » فى مدينة قرطبة(٤٠) •

كان صاحب هذه الخطة يسمى فى أول الامر « قاضى الجنـــد » ، ثم أصبح يسمى بعـــد تولى الامـــير عبد الرحمن الداخـــل الامارة « قاضى الجماعة » ، وأول من اتخذ هذا الاسم هو القاضى يحى بن يزيد التجيبى ، وان كان بعض القضاة احتفظ فيما بعد باسم قاضى الجند ، مثل القاضى محمد بن بشير ، المتوفى سنة ١٩٨ (٨١٤) ، فى عهد الحكم الربضى(٤٠ب)• ثم ان قاضى الجماعة أصبح يسمى فى أواخر عهد الخلافة ، أى فى أوائل القرن الخامس (أوائل القرن الحادى عشر الميلادى) ، « قاضى القضاة »، ولعل أول من تسمى بهذا الاسم هو القاضى يحى بن ذكوان فى سنة ٤٠٥ (١٠١٥) ، ولم يكن لقاضى الجند ، أو قاضى الجماعة ، أو قاضى القضاة ، سلطة القضاء خارج حدود قرطبة وأرباضها • ولكن ســلطته فى حـــدود اقليمه ، أو كورة قرطبة ، كانت أوسع مدى من سلطة أى قاض آخـــر فى مدينة أخرى بالاندلس ، لقربه من مقر الامـــير أو الخليفة ، اذ كان هـــذا يستشير القاضى فى كثير من الشئون ، وكان القاضى نفسه يستطيع أحيانا أن يفرض رأيه على الامير •

وكان قاضى الجماعة عادة ، ذا شخصية محبوبة محترمة عند الخاصة والعامة على السواء ، اذ أنه كان يجمع الى علمه بالفقه وأصـــول الدين ،

صفات يتميز بها عن غيره من أرباب الوظائف الكبرى ، وهى الهيبة مع التواضع ، والعدالة والنزاهة والاستقامة ، وأصبحت هذه الصفات من تقاليد هذه الوظيفة • ومما يؤكد جلال هذه الوظيفة وأهميتها أنه أفردت كتب لاصحابها(٤١) ، بحيث أصبح عدد القضاة المعروفين لنا أكبر بكثير من أى طائفة أخرى من أعلام قرطبة(٤٢) •

وعظم أمر القضاة فى قرطبة ، حتى أن الاحكام التى أصدرها كانت تتبع فى غيرها من بلاد الاندلس ، بل وفى بلاد المغرب ، وظلت تتبع فى هذه البلاد مدة طويلة ، حتى بعد سقوط قرطبة ، وكان قضاة بلاد المغرب « يقولون فى الاحكام : هذا مما جرى به عمل قرطبة »(٤٢ب) • وكان للقاضى اذن فى قرطبة مركز سام ، وكان يستمد من اعتزازه بمركزه هذا الحق فى اصدار أحكامه ، غير مبال برضاء أصحاب الجاه والسلطة • وذكر الرواة أمثلة عديدة من صرامة القضاة أمام الامراء ، ومن ذلك ما رووه عن القاضى محمد بن بشير ، الذى سبق أن أشرنا اليه ، والذى لم يتراجع فى رد الامير الحكم بن هشام ، وله قصص كثيرة فى الاجتراء فى الحق على العظماء(٤٣) • وتشيد كتب المؤرخين بالقاضى منذر بن سعيد البلوطى الذى « كان لا يخاف فى الحق لومة لائم » حتى أنه تجرأ مرارا على الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فوبخه مرة على رؤوس الملأ لتخلفه عن حضور صلاة الجمعة ثلاث مرات متوالية ، واستنكر منه مرة أخرى بناءه قبة مذهبة فى قصر الزهراء ، ولم يتراجع فى أن يخاطبه بقوله « والله يا أمير المؤمنين ، ما ظننت أن الشيطان ، لعنه الله ، يبلغ منك هذا المبلغ »(٤٤) • وكثيرا ما يذكر الرواة أن قاضيا من القضاة اشتهر بعدله وصلابته ، ولم يكن الامراء يغضبون من هذه الصرامة ، بل كانوا على العكس يخصون القضاة برعايتهم ، ويعلنون تبجيلهم لهم ، ومن ذلك ما قاله الامير هشام بن عبد

الرحمن عن القاضى مصعب بن عمران أنه « لو سجل » عليه فى مقعده من الامارة لخرج عنه(٤٥) • ولهذا قلما عزل قاض ، الا أن يقلد « خطة » أخرى ، وكان معظم القضاة يحتفظون بوظيفتهم حتى وفاتهم(٤٦) •

وتتضح أهمية وظيفة قاضى الجماعة من مضمون الكتاب الذى بعثه الخليفة الحكم المستنصر بالله الى القاضى محمد بن اسحاق بن السليم عند تقليده هذه الخطة فى شعبان سنة ٣٥٣ (أغسطس ٩٦٤)(٤٧) • ونجد بيانا مفصلا باختصاصات هذه الوظيفة وبالصفات الواجب توفرها فى صاحبها فى « كتاب الحسبة » لابن عبدون ، الذى سبق أن أشرنا اليه(٤٨) ، وفيه فصل فى « أمر القاضى ومعرفة الوجوه التى تصلح له وباب منفرد عن « القاضى » •

وكان قاضى الجماعة يحكم فى جميع الاحوال الشرعية ، كالوصايا والمواريث والطلاق والتحجير والقسمة والاحباس وغير ذلك ، وكان يوقع شهادات التوثيق التى يحررها الشهود والعدول • وكان من اختصاصه كذلك اقامة الحدود ، التى أهمها « الحبس والتشهير والطرد والقتل » ، وفى هذه الاحوال ، كان يجب على صاحب الشرطة تنفيذ هذه الاحكام • ثم ان القاضى كان يشرف على ادارة بيت المال ، الذى كانت تحفظ أمواله ، كما رأينا ، فى مقصورة من المسجد الجامع ، وكان القاضى يتصرف فيها وفقا لصالح الامة • وكان يعاونه فى ذلك ناظر الحبوس ، أو أكثر من ناظر واحد(٤٩) •

وكان مقر خطة القضاء عادة فى المسجد الجامع ، وأحيانا يحدد فى مسجد آخر بالقرب من دار القاضى ، أو فى داره نفسها • وكان يحيط بالقاضى فى هذا « المجلس » الذى كان يسمى « مجلس الحكم » ،

« الفقهاء المشورون » • وكان للقضاة زى يميزهم عن غـيرهم من الفقهاء أخضر اللون(٤٩ب) • وكان للقاضى كاتب ، كما كان له حاجب يدعو أصحاب المظالم ومن يصحبهم من العدول للمثول بين يديه •

وكان من مهام قاضى الجماعة كذلك أن يؤم المصلين فى صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ، وفى صلوات الاعياد والاستسقاء ، وأن يخطبهم فى هذه المناسبات ، وفى مناسبات أخرى • ولهذا كثيرا ما كان يسمى كذلك « صاحب الصلاة »(٥٠) • وامامة الصـلاة أصبحت « خطـة » ، وأحيـانا ما كانت الخطتان منفصلتين ، لكل منهما صـاحب أو وال ، وكثـيرا ما كان قاضى الجماعة يجمع « الصلاة » الى خطته •

وكان يعاون القاضى فى خطته الاولى حاكم أو « صاحب الاحكام » • وكان يحيط نفسـه بجمـع مـن الفقهـاء يطلـب الشـورى منهم ، وكانوا يسمون « الفقهاء المشورون » ، يعينهم الامير أو الخليفة ، وكانوا يفتون القاضى فيما يعرضـه عليهم ، وكانوا يبعثون اليه فتاويهم كتابة(٥١) ، وكثيرا ما كان يدعوهم الى الاجتماع به فى مجلس كان يسمى « مجلس الشورى » • وكان للقضاة زى.يميزهم عن غـيرهم من الفقهاء وكان يعاون قاضى الجماعة ، خارج حدود العاصمة ، فى كور قرطبة ، قاض كان يسمى « المسدد »(٥٢) •

وكانت خطة « الرد » تتصل ، أو على الاصح ، تكمل خطة القضاء ، اذ كان صـاحب الرد يحـكم فيما اسـترابه القضـاة وردوه عـن أنفسهم »(٥٢ب) • وأغلب الظن أنه كان يتلقى كذلك اعتراضات الاطراف من أحكام القضاة وشكاوى الناس الى الامـير ، الذى كان يحيل هـذه الشكاوى الى « مجلس الشورى » أو الى قاضى الجماعة •

أما خطة « المظالم » فكانت اختصاصاتها تختلف عن اختصاصات خطة

« الرد » ، وكذلك كانت تختلف عنها فى نظم بلاد المشرق الاسلامى ، وأغلب الظن أنه كان يعهد الى صاحبها بتنفيذ أحكام القاضى ، كما يتضح من رواية عن المنصور بن أبى عامر الذى طلب من صاحب شرطته الخاص أن يسلم فتى من فتيانه مع المتظلم منه الى « صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق »(٥٣) . وأغلب الظن كذلك أن خطة المظالم هـذه لم تكن موجودة فى عهد الامارة ، وأنها استحدثت فى عهد الخلافة ، فى عهد عبـد الرحمن الناصر . وورد فى بعض روايات المؤرخين ذكر « صاحب الوثائق ورفع كتب المظالم » ونرجح أن هذا الصاحب بالذات كان يجمع بين خطتى « الوثائق » و « المظالم » .

(٥)

الجيـــــش

يتبقى لنا ، فى باب نظم الحكم والخدمة ، أن نلخـــص نظم الجيش وخططه فى قرطبة(٥٣ب) . وكانت هذه الخطط عديدة ، منها خطة الاسلحة وتتبعها خزانة السلاح ومنها خطة الابنية ، وهى المختصة ببناء السرادقات والاخبية وغيرها ، وخطة الخيل ، وخطة العرض ، وخطـــة الحشم وخطة السيف(٥٤) . وقد اهتم أمراء الاندلس وخلفائها اهتماما كبيرا بتحصين دولتهم وترويدها بسلسلة ممتدة من القلاع و الحصون والمعاقل فى الثغرين الاعلى ، أو الاقصى ، والاوســـط ، أو الادنى . وكانت عنـــايتهم بتنظيم الجيوش وتدعيمها وتقويتها بالاسلحة والرجال لا تقل أهمية ، أن لم تزد .

وأول ما يرعى الاهتمام انشاء « الديوان » . وهو الذى كان يسجل فيه « المتدونون » وهم أفراد الجيش النظامى ، أو « الجند المتـــدون » ، وهم الذين كانت تحق لكل واحد منهم « عطايا » و « أرزاق » معلومة . وكان هذا الديوان يجدد من عهد لاخر ، وتعمل له « ملاحق » وكان قسم كبير من هذا الديوان والملاحق يخص الجند المقيمين فى الكور والقـــلاع ، وهم الذين كانوا يتجمعون عند « الاستنفار » ، وكانوا يسمـــون حينئـــذ « الحشود » . ولكن قسما هاما من هذا الديوان كان يخص الجند من أهل قرطبة نفسها . وهذا يفسر ما يجـــرى كثرا فى كتب المـــؤرخين من ذكر « الجنود والحشود » .

وكانت هنالك فئة ثالثة هى « المرتزقه » . وكان الحكم بن هشـــام « أول من جند بالاندلس الاجناد والمرتزقة ، وجمع الاسلحة والعـــدد ،

واستكثر من الخدم والحواشي والحشم ، وارتبط الخيول على بابه ، واتخذ المماليك ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وبلغوا في عهده « خمسة آلاف ، منهم ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل »(٥٥) . وكان يطلق على هؤلاء المماليك من الجلالقة والصقالبة والفرنج ، الذين كانوا يشترون من المناطق المسيحية في شمالي الجزيرة ، اسم « الداعرة » أو « العرافة » ، كما كانوا يسمون « الحشم »(٥٦) .

وأصبحت من تقاليد أمراء الاندلس بعد ذلك أن يجندوا المرتزقة ، حتى تكونت منهم في قرطبة طائفة هامة من الموالي ، هي التي كانت تعرف بالصقالبة ، والتي ظهر شأنها بصفة خاصة منذ عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر .

والى جانب هؤلاء المماليك كانت هنالك فرقة أخرى من المرتزقة البربر أو العبيد ، وهي التي جندها الحكم المستنصر بالله ، وجعل منهم ثلاث فرق « بوبرية » ، بلغ عددهم سبعمائة فارس ، « فرسان صدق شهروا بالبأس »(٥٧) . وقد أكثر المنصور ابن أبي عامر من اقتناء العبيد الذين كان يجلبهم من « العدوة » ، واستغنى بهم ، كما رأينا ، عن الصقالبة ، ورفع من شأنهم ، واختار منهم « عرفاء » ورؤساء ، وزعهم على فرق الجيوش المختلفة من العرب ، وحط من شأنهم ، وهذا ما قصده المقرى بقوله « وقدم رجال البوابرة وزناته ، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم »(٥٨) .

وأخيرا كان الى جانب الجنود والحشود والحشم والمرتزقة فرق « المطوعة » ، أو فرق « الوفود » التي كانت تفد على قرطبة من المتطوعين للجهاد والاشتراك في الصوائف . وكان يفرض ، أول الامر ، على أهل

قرطبة ، وعلى أهل الاندلس عامة ، أن يقدموا أفرادا من كـل أسرة منهم للاشتراك فى حشود الصوائف ، وكان البعض منهم يستطيـع أن يبعث بديلا عن الفرد المحشود ، وهؤلاء كانوا يسمون « البعوث » • ولما تولى الامارة محمد بن عبد الرحمن ألغى هذا النظام « ووضع عن أهـل قرطبة ضريبة الحشود والبعوث » ، وفتح أمامهم باب التطوع(٥٩) • وقد أقبل الناس على التطوع حتى أنه عندما استنفر الامير محمد هـذا لصـائفة أعدها لغزو « جليقية » فى سنة ٢٤٩ (٨٦٣) ، استجاب للاستنفار أكثر من واحد وعشرين ألف متطوع من بلاد الاندلس ، أما من استجاب من أهـل قرطبة فكان عددا كبيرا « لم يوقف على قدره »(٦٠) •

وكثيرا ما كان الامير أو الخليفة هو الذى يتولى قيادة « العسكر » ، بنفسه ، وأحيانا كان ينيب عنه ولى العهد ، أو ولدا من أولاده ، ويوليهقيادة « الصائفة » ، أو كان « يرتب » قوادا لها • وكان معظم هذا العسـكر من الفرسان وقلة منه من الرجالة(٦٠ب) وكان يتكون من فرق ، تعرف بأسماء، منها « الخميس » وهـو يتكون من أربعـة آلاف الى اثنى عشر ألفـا من العساكر ، و « الجيش » أو « الفيلق » أو « الجحفل » ، وهو من ألف الى أربعة آلاف ، و « الكتيبة » وهى من خمسمائة الى ألف ، و « السرية » وهى من خمسين الى أربعمائة(٦١) • وكان على كل ثمانية من الجند « ناظر » ، « ويعقد له عقدة » ، وعلى كل خمسة نظار « عريف » « ويعقد له بند » ، وعلى كل خمسة عرفاء « نقيب » « ويعقد له لواء » ، وعلى كل خمسة نقباء « قائد » « ويعقد له علم » ، وعلى كل خمسة قواد « أمير » « ويعقـد له راية أو أكثر »(٦٢) • وكانت هذه الالوية والاعلام والرايات تحمل شارات مصورة « من صور الاسد والنمور والثعابين والعقبان وغيرها من التصاوير الهائلة »(٦٢ب) •

وكان يقام حفل فى المسجد الجامع يحضره الامير أو الخليفة ، قبل تحرك الجيش الى الحرب والجهاد ، يسمى حفل « عقد الالوية » • وكان حفلا عظيما ، يشترك فيه الوزراء والقواد والاكابر والوجهاء ، وتصطف فيه فئات الجيش بأسلحتها وزينتها ، ويبتهج فيه أهل قرطبة ابتهاجا كبيرا(٦٣) • وكذلك كان الاحتفال بعودة الجيوش الظافرة مجالا لاهل قرطبة تمتلىء فيه « قلوبهم فرحا » ، وتتشمخ « له أنوفهم عزا »(٦٤) • وكانت « الالوية » تعلق فى المسجد الجامع بعد عودة أمراء الجيش وقواده الى قرطبة وانتهاء الغزاة •

وكان يقام ، بعد حفل عقد الالوية ، حفل البروز(٦٣ب) • وفيه يبرز الامير ، أو الخليفة ، بنفسه ، وعلى رأس جيوشه ، فى حفل رهيب ، الى فحص السرادق • وهو فسحة كبيرة تقع بالطرف الشمالى من الجانب الشرقى لقرطبة(٦٥) • وكان الامير يستعرض فى هذا الفحص جيوشه • وسمى هذا الميدان السرادق لانه كان يقام فيه سرادق كبير خاص لجلوس الامير وحاشيته ، تحيط به القباب والمظلات • وكان خروج الامير ، أو بروزه ، لهذا العرض ، يحاط بالمراسم الباهرة التى كانت تجرى فى الحفلات الكبرى ، والتى كانت تثير فرحة أهل قرطبة وابتهاجهم(٦٦) • ومن فحص السرادق هذا ، وبعد انتهاء حفل البروز ، تخرج الجيوش الى الغزاة •

وكان « صاحب العرض » أو « المعارض »(٦٧) ، هو المسئول عن هذا الحفل ، بالاضافة الى مسئولياته الاخرى من توزيع الارزاق والنفقات والاشراف على ألبسة العسكر ، ولعله كان لذلك يستعرضهم من حين لاخر •

وبالاضافة الى « العسكر » الذى كان يوجه للغزاة والجهاد وقمع

الثورات فى الاقاليم ، كان للامير حرس خاص به ، يرابط فى قصره ، وهو « الحشم » • وكان هذا الحشم يتكون ، فى عهد الخليفة عبـد الرحمـن الناصر ، من « أكابر الفتيان » و « الفتيان الوصـفاء » و « الخصـيان الصقالبة » والرماة ، ثم « العبيد الفحول » ، ورجاله العبيد و « فرسان العبيد » وفرسان مختارين من الجند(٦٨) •

وكان بقرطبة ، كما كان بالزهراء ، دار للصناعة ، تصنع فيها آلات الحرب ، مثل السيوف والدروع والقسى والنبل والترس ، ومثـل الرماح والحراب والدبابيس والمزاريق والغلالات والدرقات • وكانت هذه الالات تجلب الى خزانة السلاح وتحفظ فيها تحت يدى صاحب الاسلحة(٦٩) •

حـــواشى الفصـــــل الثـــامن

(١) تنظر صفحة ٨ فيما سبق من هذا الكتاب ، والحاشيتان (١٢)و(٣٣) ؛

(٢) صفحة ٣٥٦ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٣) لم يحدد الرواة شكل هذا السرير ، ولكنه يستفاد من بعض أوصاف الحفلات أنه كان عرشا ، أى كرسيا فخم المظهر والصناعة ، يعلو مقعده على المراتب المحيطة به .

(٤) كان خاتم عبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الاوسط ، والمنذر بن محمد ، وعبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر بالله يحمل عبارة « بقضاء الله راض » ، وكانت عبارة « بالله يثق وبه يعتصم » منقوشة على خواتم هشـــام الرضى ومحمد بن عبد الرحمن وهشام بن الحكم .

(٤ب) صفحة ٢٦١ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٤جـ) تنظـــر الفقـــرة الاخـــرة من الحـــاشيه (٢٢٢) ، فيما تقـــدم من هذا الكتاب .

(٥) صفحتا ٣٦٣ و ٣٦٤ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٥ب) شرحه ، صفحة ١٩٨ ، وصفحة ٣٢٨—٣٢٩ من الجزء الثانى من « البيان المغـــرب » لابن عـــذارى . وينظر صـــفحات ٥٥ الى ٦٥ من كتـــاب « دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس » للدكتور أحمد مختار العبادى .

(٦) تنظر صفحة ٣٠٧ من « الحلة السيراء » لابن الابار ، وصفحة ٢٠٩ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٧) صفحة ٢٠١ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٨) تنظر صفحة ٣٧ فيما سبق من هذا الكتاب .

(٩) صفحة ١٣١ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(١٠) صفحة ٢٠٢ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(١١) صفحة ٢٢٢ من الجزء الاول من « كتاب الصلة » لابن بشكوال .

بل ان لقب الوزير منح فيما بعد للقاضى ، مع أن القضاء كان خطة أجـــل

من الوزارة ، ولكنها كانت أقـل « رزقا » ، تنظـر الحاشيتان (٤٢) و (٤٦) فيما بعد .

(١٢) صفحة ٢٠٢ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(١٣) تنظر صفحة ٨٩ ، الحاشية (٢٢) ، فيما سبق من هـذا الكتاب ، ويلاحظ ان عبد الرحمن الناصر منح ابن شهيد هذا اللقب عقب تسـلم هـديته مباشرة ، فى شهر جمادى الاولى من سنة ٣٢٧ .

(١٤) صفحة ٣٣٣ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى . ومن هذا يتضح أن مدلول لفظ الوزارة فى الاندلس يختلف تماما عن مدلوله فى بلاد المشرق، وأنه لم تكن فى الاندلس لا وزارة تنفيذ ولا وزارة تفويض ، وأن ابن خلدون قد اخطأ فى تفسيره لتعدد الوزارة فى الاندلس من أن الوزارة كانت فيها « خطة » ، وانها قسمت « أصنافا » وأنه كان « لكل صنف وزير » وزير لحسبان المال ووزير للترسيل ... الخ ، وأنه كان للوزراء مجلس ، جعل البعض يشبهه بمجلس الوزراء ، وأن الحاجب كان واحدا منهم افرد « للتردد بينهم وبين الخليفة » ممـا جعل البعض كذلك يشبهه برئيس الوزراء . راجع « المقدمه » لاس خـلدون

(١٥) صفحة ٢٠٢ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(١٦) صفحة ٢٢٠ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(١٧) وبالرغم من أهمية « خطة » الكتابة ، فانه كان يكتب فى سجل تعيين صاحبها أنه « ولى رسم الكتابة » ، فى حـين كان يكتب « ولى خطـة كذا » او « تلد خطة كذا » بالنسبة للوظائف الاخرى .

(١٨) تراجع نص هذه الرسالة فى الصفحات ٨٦ الى ٨٨ من القسم الاول من الجزء الاول من كتاب « الذخيرة » لابن بسام .

(١٩) صفحة ٢١١ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(١٩ب) صفحة ٢٠٢ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(١٩جـ) شرحـــه .

(٢٠) نقله المقرى عن ابن بشكوال فى صفحة ١٩٦ من الجـزء الاول من « نفح الطيب » .

(٢١) صفحتا ١١٤ و ١١٥ من القسم الثانى من كتاب « أعمال الاعلام » لابن الخطيب .

(٢٢) صفحات ١٠٨ الى ١١٧ أو ٧٤ الى ٧٩ من « صورة الارض » لابن حـوقل .

(٢٣) صفحتا ٢١٣ و ٢٢١ من الجزء الثانى من « البيان المغـرب » لابن عذارى .

(٢٤) صفحة ٢٥٠ من المرجع المشار اليه فى الحاشية السابقة .

(٢٥) شرحه ، صفحة ١٤٨ من الجزء الاول وصـفحة ٣٥٦ من الجـزء الثانى .

(٢٦) صفحة ١٩٦ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى ، نقلا عن ابن حـوقـل .

(٢٧) صفحتا ١٩٨ و ٢١٥ من الجزء الثانى من « البيان المغـرب » لابن عذارى ، وراجع « صورة الارض » لابن حوقل .

(٢٨) صفحة ١٧٦ من « المقدمة » لابن خلدون ، طبعة التجارية .

(٢٩) شرحـه .

(٣٠) شرحه ، ولعل ابن خلدون كان متأثرا فى حكمه هذا بالحظ الذى ناله المنصور بن أبى عامر بعد تقلده « الشرطة الوسـطى » ، ويلاحظ أن ابن خلدون ، مع هذا ، لم يشر الى « الشرطة الوسطى » وجعل للشرطة قسمين : شرطة الخاصة وشرطة العامة .

(٣١) صفحة ٢٠٣ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى . ويلاحظ أنه بالاضافة الى الابهام الذى يحيط بروايات « المقرى » و « ابن خـلدون » و « ابن عذارى » عن نظام الحكم ، فان كلا منهم يحكم عليها بالمقـارنة بالنظم التى كانت متبعة فى عهده .

(٣٢) صفحتا ٣٨٦ و ٣٨٩ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٣٣) شرحه ، صفحة ٢٠٣ .

(٣٤) شرحه ، صفحة ٢٠٤ .

(٣٥) شرحه ، صفحة ٢٠٤ . وقد ذكر المقرى على سبيل المثال ، فى صفحة ٢٠٣ ، أنه كان للخبز وزن معلوم وسعر محدود ، « وكذلك اللحم ، تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر تاجر أن يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب فى الورقة . هذا ونجد بيانات وافية عن اختصاصات المحتسب فى الاندلس وواجباته فى كتاب عن الحسبة الفه « محتسب » من اشبيلية فى أواخر القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى) اسمه محمد بن أحمد بن عبدون التجيبى ، وقد نشر هذا الكتاب الاستاذ ليفى بروفنسال فى « الجريدة الاسيوية » فى سنة ١٩٣٤ تحت عنوان : "Le Traitéd Ibn Abdún", Jernnal Asiatique, avril-juin 1934, Paris, 1934, PP. 177-299.

ثم ترجمه الى اللغة الفرنسية تحت عنوان :

"Séville musulmane an delr et du XII siede, Le Traite'd Ibn Abdun,

ويوجد فى آداب الحسبة كتاب ثان أشرنا اليه فى صفحة ١١٨ (الحاشية ا) فيما سبق من كتابنا هذا .

(٣٦) صفحة ١٧٣ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٣٧) تنظر صفحة ٣٥ فيما سبق من كتابنا هذا .

(٣٨) صفحة ٣١٧ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٣٩) شرحه ، صفحة ٣٩٤ .

(٤٠) شرحه ، صفحة ٢٠٣ .

(٤٠ب) كان لعبد الرحمن الداخل قاض خاص « للصوائف » ، تنظر صفحة ٤٨ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٤١) مثلا تاريخ قضاة قرطبة للخشنى وتاريخ قضاة الاندلس أو كتاب المرقبة العليا للنباهى .

(٤٢) سيحاول المؤلف فى الجزء الثالث من هذا الكتاب اعداد قائمة متصلة

مسلسلة تسلسلا زمنيا بأسماء القضاه الذين تعاقبوا على شغل هذه الخطة في قرطبة منذ الفتح الاسلامى وحتى نهاية قرطبة . ونذكر هنا أسماء لفيف من القضاة الذين تولوا القضاء منذ عهد الامير عبد الرحمن الداخل والى نهـاية عهد الحكم المستنصر بالله . كان أولهم معاوية بن صالح وكان عبـد الرحمن الداخل يستقضيه عاما ، ويستقضى عبد الرحمن نصر بن طريف عاما ، وتوفى سنة ١٦٨ (٨٨٥) فاستقضى الامر القاضى يحى بن يزيد التجيبى ثم المصعب بن عمران الذى بقى قاضيا الى أن توفى فى عهد الامير الحكم الربضى ، اى انه تولى القضاء لثلاث أمراء على التوالى . واستقضى الامير الحكم بعده محمد بن بشير المعافرى ، فالفرج بن كنانة فبشر بن قطن فعبيد الله بن موسى فمحمد بن تليد فحامد بن محمد بن يحى . وتولى القضاء فى عهد عبد الرحمن الاوسط أحد عشر قاضيا اكثرهم شهرة يحى بن معمر ، الذى كان « صـليب القناة فى الحـق » (صفحة ١٤٨ من الجزء الاول من كتاب « المغرب فى حلى المغرب » لابن سعيد) وتنظر الحاشية (٤٦) فيما بعد . وتولى القضاء فى عهد الامير محمد عبد الرحمن القاضى محمد بن زياد فأخوه أحمد بن زياد فسـليمان بن اسـود البلوطى أو الغافقى ، الذى بقى فى منصبه اثنتان وثلاثين سنة ، فعمرو بن عبد الله المعروف بالقبعة ، وهو أول من تسمى « قاضى الجماعة » . وفى عهد المنذر ، الذى امتد سنتين فقط ، كان القاضى عامر بن معاوية اللخمى . وتولى القضاء فى عهـد الأمير عبد الله بن محمد القاضى النضر بن سلمه ، وهو أول من رفـع الى خطة الوزارة ، فموسى بن زياد ، (تنظر الحاشية رقم (٤٦) فيما بعد) ، ثم محمد بن سلمه فأحمد بن محمد بن زياد اللخمى الذى استمر فى القضاء عند تولى عبـد الرحمن الناصر الامارة وهو الذى « أهان خطة القضاء وتبذل فيها بالركوب الى السلطان » ، (صفحة ١٥٥ من الجزء الاول من كتاب « المغرب فى حلى المغرب » لابن سعيد) ، وعزله الامير ثم أعاده الى القضاء بعد أن استولى على القضاء ثمان سنوات أسلم بن عبد العزيز بن هاشم الذى ولى القضاء للمرة الثانية بعد وفاة ابن زياد فى سنة ٣١٢ (٩٢٤) ، وولى القضاء من بعده أحمد بن محمد بن بقى بن مخلد وتوفى فى سنة ٣٢٤ (٩٣٦) فولى القضاء من بعده أحمد بن عبد الله

الاسبحي الى حين وفاته ، فمحمد بن عبد الله بن ابى عيسى الى حين وفاته ، فمنذر ابن سعيد البلوطى ، القاضى المشهور ، الى حين وفاته فى عهد الحكم المستنصر بالله سنة ٣٥٣ (٩٦٤) أو ٣٥٥ (٩٦٦) ، فخلفه أبو بكر محمد بن اسحاق بن السليم الى حين وفاته فى سنة ٣٦٧ (٩٧٧) بعد وفاة الحكم المستنصر بالله بأشهر .

(٤٢ب) صفحتا ٩٣و٩٤ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى .

(٤٣) صفحات ٣٤٣ الى ٣٤٩ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى، وصفحات ٥٠ الى ٥٢ من « بغية الملتمس » للضبى ، وصفحة ١٤٤—١٤٥ من الجزء الاول من كتاب « المغرب فى حلى المغرب » لابن سعيد .

(٤٤) صفحة ١٠٩ وصفحات ٢٢٣ الى ٢٢٩ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى ، وصفحة ٦٦ الى ٧٥ من « كتاب المرقبة العليا » للنباهى ، وترجمة رقم (١٤٥٢) من « تاريخ علماء الاندلس » لاس الفرضى .

(٤٥) صفحة ٤٤ من الجزء الاول من كتاب « المغرب فى حلى المغرب » لابن سعيد .

(٤٦) هذا الى نهاية عهد المنصور ، وحدث أن عزل بعض القضاة ، أو على الاصح استعفوا الامير القائم ، مثل الفرج بن كنانة الذى استعفى الامير الحكم بن هشام بعد ثورة أهل الربض، وكثر عزل القضاة فى عهد الامير عبدالرحمن الاوسط الذى تتابع على القضاة فى عهده أحد عشر قاضيا ، وذلك لان الفقيه يحيى بن يحيى الليثى كان هو الذى يشير بعزلهم عندما يلمس من أحدمنهم تطبيق أحكام المذهب المالكى ، وكان يتشدد فى ذلك حتى قبل عند وفاته فى سنة ٢٣٤ (٨٤٩) « استراح القضاة من همه » (تنظر صفحة ٨٠ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى) . أما بعد عهد المنصور فكثر تقلب القضاة ، وكان المنصور قد عين خاله محمد بن يحى بن زكريا المعروف بابن برطال قاضيا للجماعة فى سنة ٣٨١ (٩٩١) وعزله بعد ذلك باحدى عشرة سنة وولاه الوزارة.

واخذ منصب القاضى يتزعزع بعد ذلك ، وان كان قد اشتهر البعض بالصلابة فى الحق مثل عبد الرحمن بن محمد بن فطيس ، فانه لم يبق بمنصبه غير سنة واحدة ، من ٣٩٤ الى ٣٩٥ (١٠٠٤ الى ١٠٠٥) . وقيل عن القاضى يونس بن عبد الله بن الصفار ، الذى تولى القضاء سنة ٤١٩ (١٠٢٨) فى سن الثمانين ، قبيل سقوط الخلافة ، وبقى بمنصبه فى عهد جهور بن جهور الى أن مات فى سن التسعين ، انه كان « خاتمة القضاة بقرطبة » ، أى خاتمة القضاة الاجلاء (تنظر صفحة ١٥٩ من الجزء الاول من كتاب « المغرب فى حلى المغرب » لابن سعيد) . وكان قد قيل عن القاضى موسى بن زياد الذى كان قاضيا فى عهد الامير عبد الله بن محمد ثم صار وزيرا أنه « أول من أفسد خطة القضاء ، وكان باطنه غير ظاهره » (تنظر صفحة ١٥٤ من نفس المرجع) .

(٤٧) يوجد نص هذا الكتاب فى الصفحتين ٧٥ و ٧٦ من كتاب « المرقبة العليا » للنباهى .

(٤٨) تراجع الحاشية (٣٥) ، صفحة (١٠٤) ، فيما سبق .

(٤٩) راجع كتاب « قضاة قرطبة وولاتها » للخشنى .

(٤٩ب) صفحة ٣٠٠ من الجزء الاول من « كتاب الصلة » لابن بشكوال .

(٥٠) ولم يكن يطلق على « صاحب الصلاة » لفظة الامام أو امام المسجد، لان لقب الامام كان خاصا بالامير أو الخليفة .

(٥١) راجع كتاب « قضاة قرطبة وولاتها » للخشنى .

(٥٢) صفحة ٢٠٣ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٥٢ب) تنظر الحاشية رقم (١) فى صفحة ١٤٤ من الجزء الثالث من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » لمؤلفه ليفى بروفنسال ، وقد نقل المؤلف هذا النص من الورقة ٢ ب من مخطوطة « كتاب الاحكام الكبرى » لابن سهل المحفوظة بالرباط .

(٥٣) صفحة ٣٨٦ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٥٣ب) ينظر الفصل الخاص بالتنظيمات العسكرية فى الاندلس فى عهد

الخلافة ، وهوالفصل التاسع ، صفحات ٥٥ الى ١١٢ ، من الجزء الثالث من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » لمؤلفه (ليفى بروفنسال) ، وذلك بالاضافة الى المراجع التى سنشير اليها فى هوامش الصفحات التالية .

(٥٤) لم يرد فى كتب المؤرخين ذكر خطة للخيل أو خطة للسيف ، ولكن ورد ذكر صاحب الخيل وصاحب السيف ، مثلا فى صفحتى ١٩١ و ٢٢٣ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى . ولكنا نرجح أنه كان لكل منهما خطة لانه كان لكل خطة صاحب ، ولكل « صاحب » خطة ، وكان « الصاحب يعد من أرباب الوظائف الكبرى ، التى هى الخطط » .

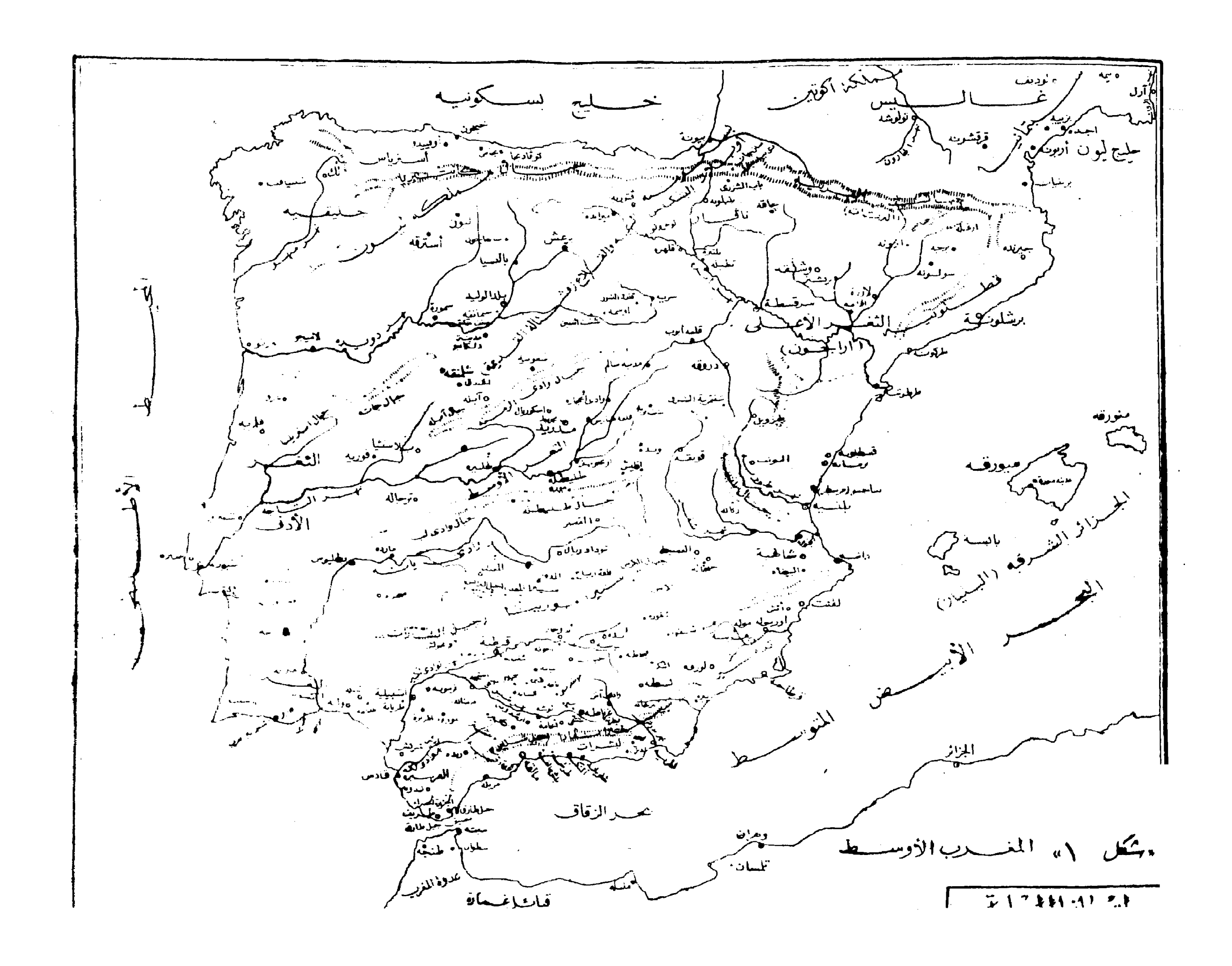
(٥٥) صفحة ٣٢٠ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٥٦) شرحه ، صفحه ٣٦٤ ، وفيها يشير المقرى الى « فرسان الحشم وطبقات الجند » .

(٥٧) صفحة ١٩٢ من القسم الرابع من « المقتبس » لابن حيان .

(٥٨) صفحة ٣٧٤ من الجزء الاول من « نفح الطيب » . وقد أشرنا فى صفحة ٧٥ مما سبق من كتابنا هذا الى الاثار الوخيمة التى ترتبت على سياسة المنصور هذه .

(٥٩) صفحة ١٠٩ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى . هذا وقد فسر البعض خطأ لفظة « ضريبة » التى أوردها ابن عذارى (تنظر ، مثلا ، صفحة ٣٠٧ من القسم الاول من العصر الاول من « دولة الاسلام فى الاندلس » لمحمد عبد الله عنان ، وصفحة ٧١ من الجزء الثالث من «تاريخ اسبانيا الاسلامية » لمؤلفه (ليفى بروفنسال) ، وحسبوا أنها ضريبة مالية ، علما بأن نص ابن عذارى صريح ، وقد كرره فى هذه الصفحة المشار اليها مرتين ، اذ أوضح أن الامير محمد « رفع الضريبة » عن أهل قرطبة « وغيرها من البلاد » و « قطع عنهم الحشود التى كانوا يؤخذون بتجديدها فى كل سنة للصوائف الغازية لدار الحرب وأسقطها عنهم ، ووكلهم الى اختيار انفسهم فى الطواعية للجهاد من غير بعث » أى من غير تجنيد . وضريبة الحشود والبعوث هذه هى

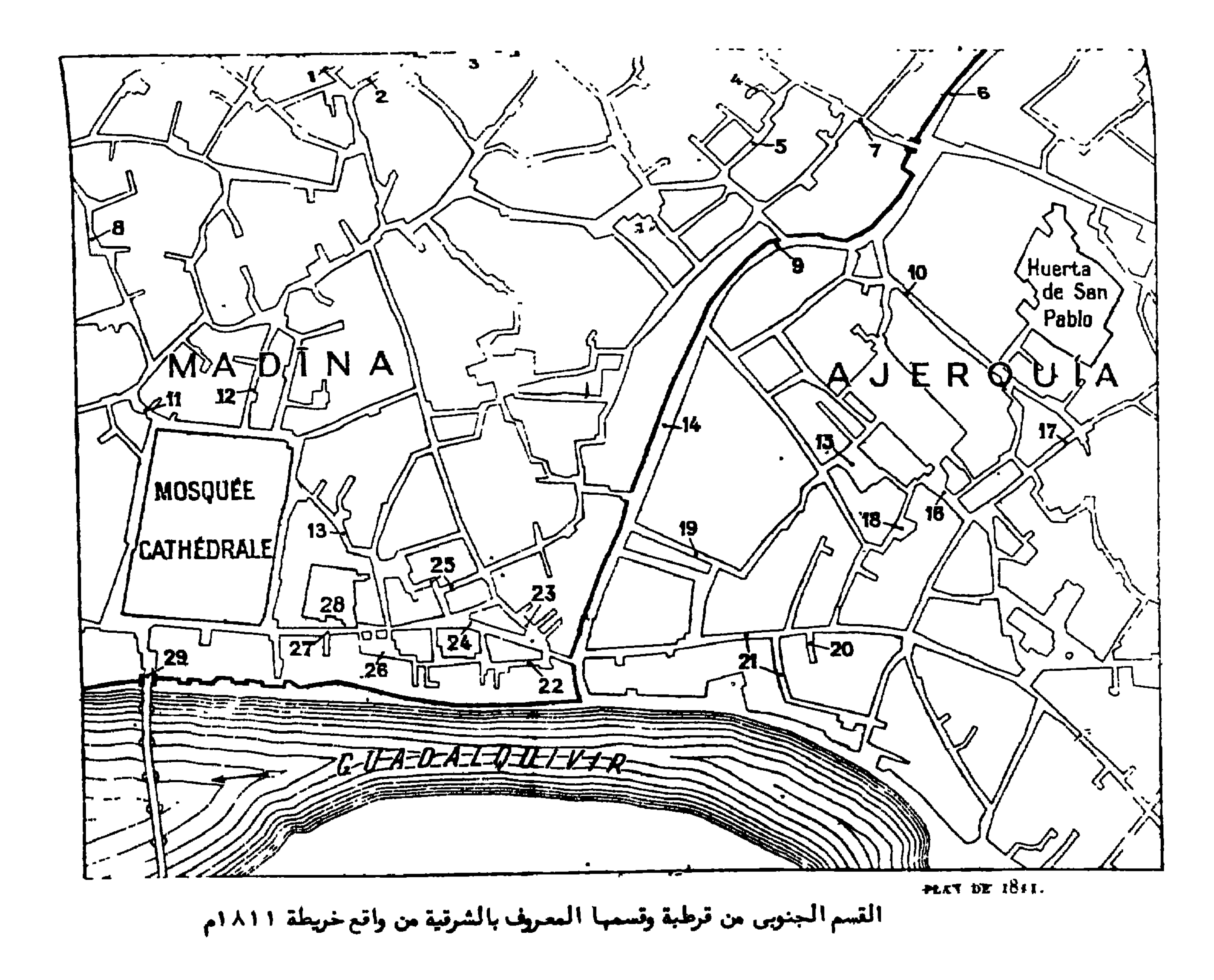


«شكل ١» المغرب الأوسط

SIERRA DE CÓRDOBA
MADĪNAT AL ZAHRĀ
AL-SAHLA
Site présumé d'al-'Āmiriya
DJANIB DE L'OUEST
Jardins du Palais
MADĪNA
SECUNDA
AL RABAD
al-Ramla
AL-PUṢĀFA
AL-SUR
DJANIB DE L'EST
AL-MADĪNA
AL-ZĀHIRA
VILLE ROMAINE
vers Alcolea
L-KABĪR
AL-WĀDĪ
RIO GUADALQUIVIR
LA CAMPIÑA

0 1 2 3 km
Torrents et ravins
Chemins
Sentiers
Zones habitées et jardins
Restes de Munyas
Tracé supposé du fossé de défense

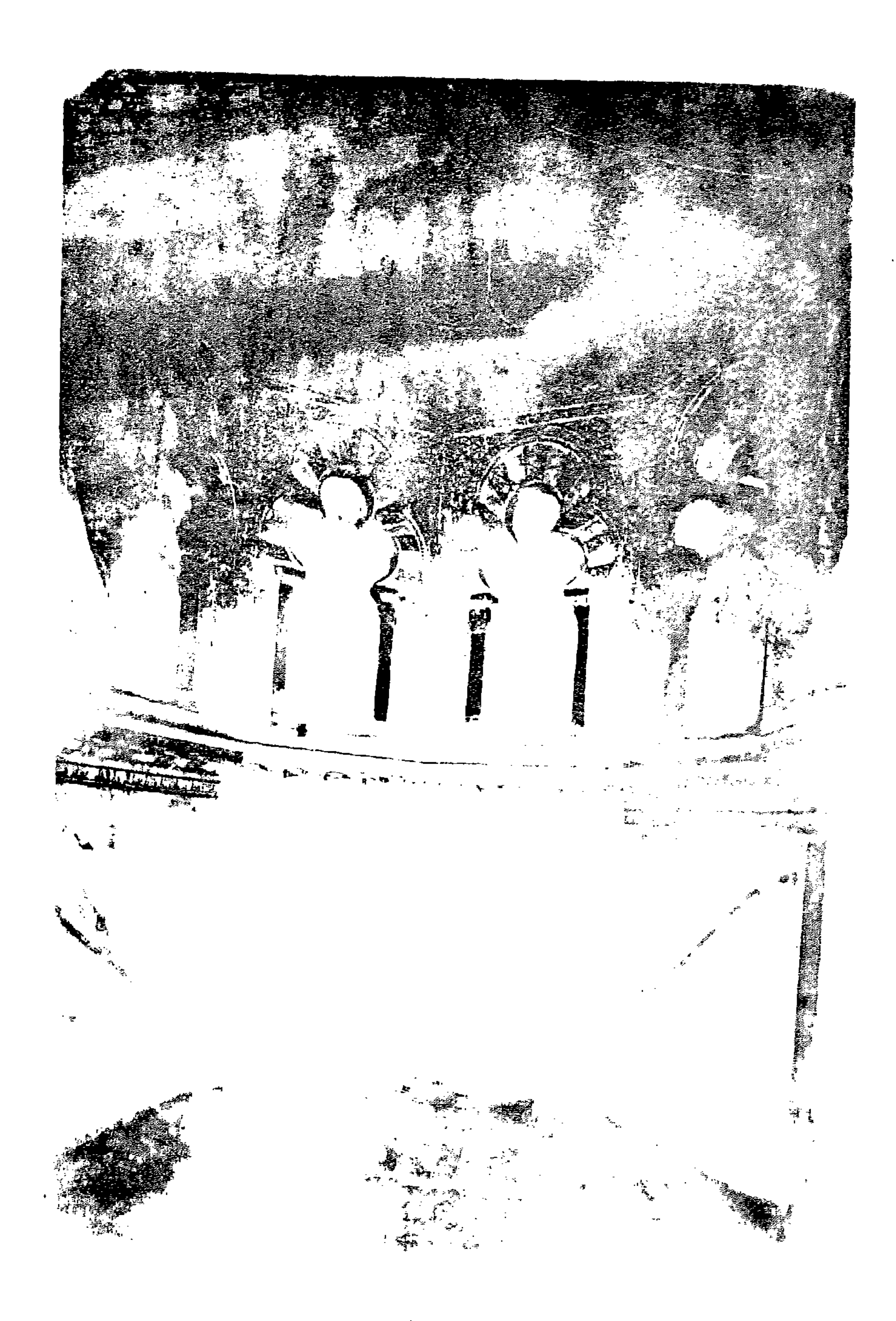
مجموعة التجمعات العمرانية بقرطبة في القرن الرابع الهجرى



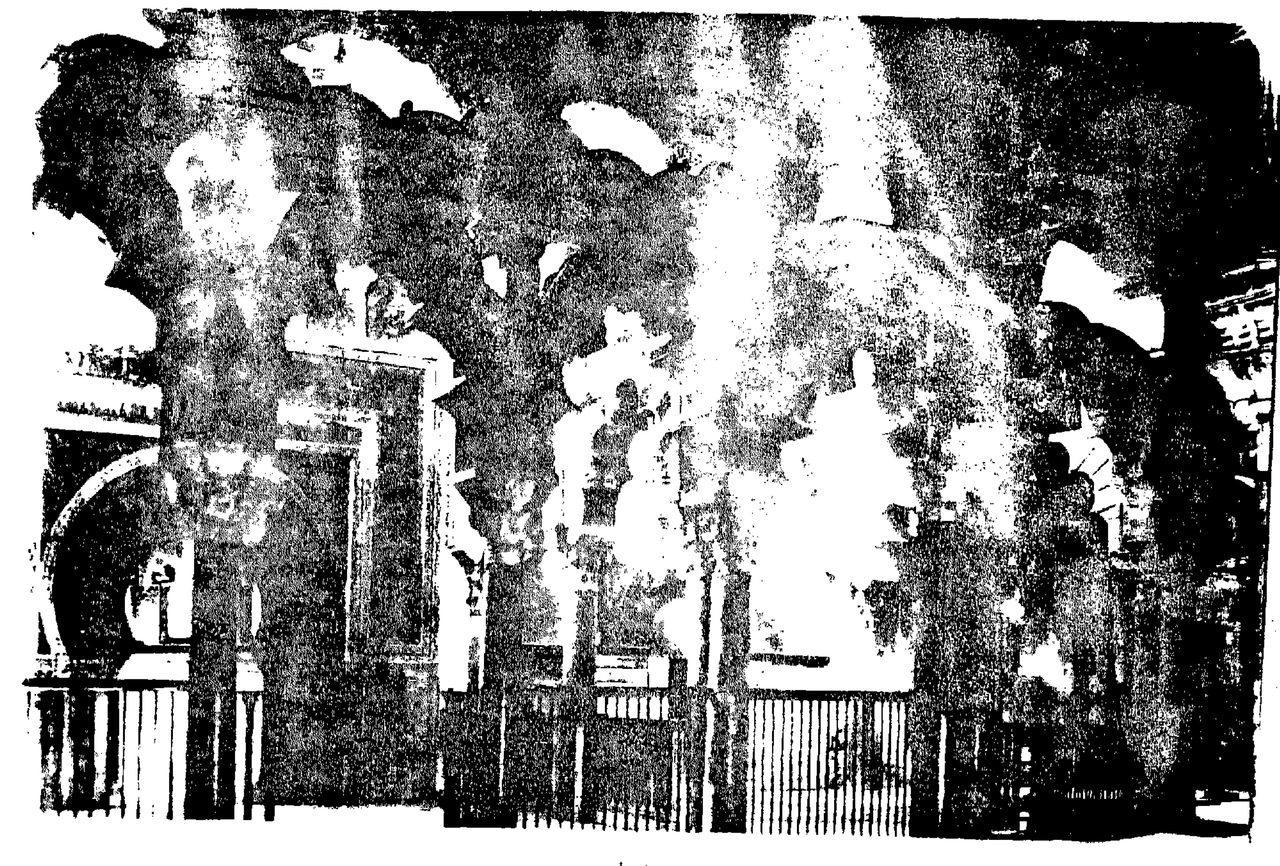
القسم الجنوبي من قرطبة وقسمها المعروف بالشرقية من واقع خريطة ١٨١١م



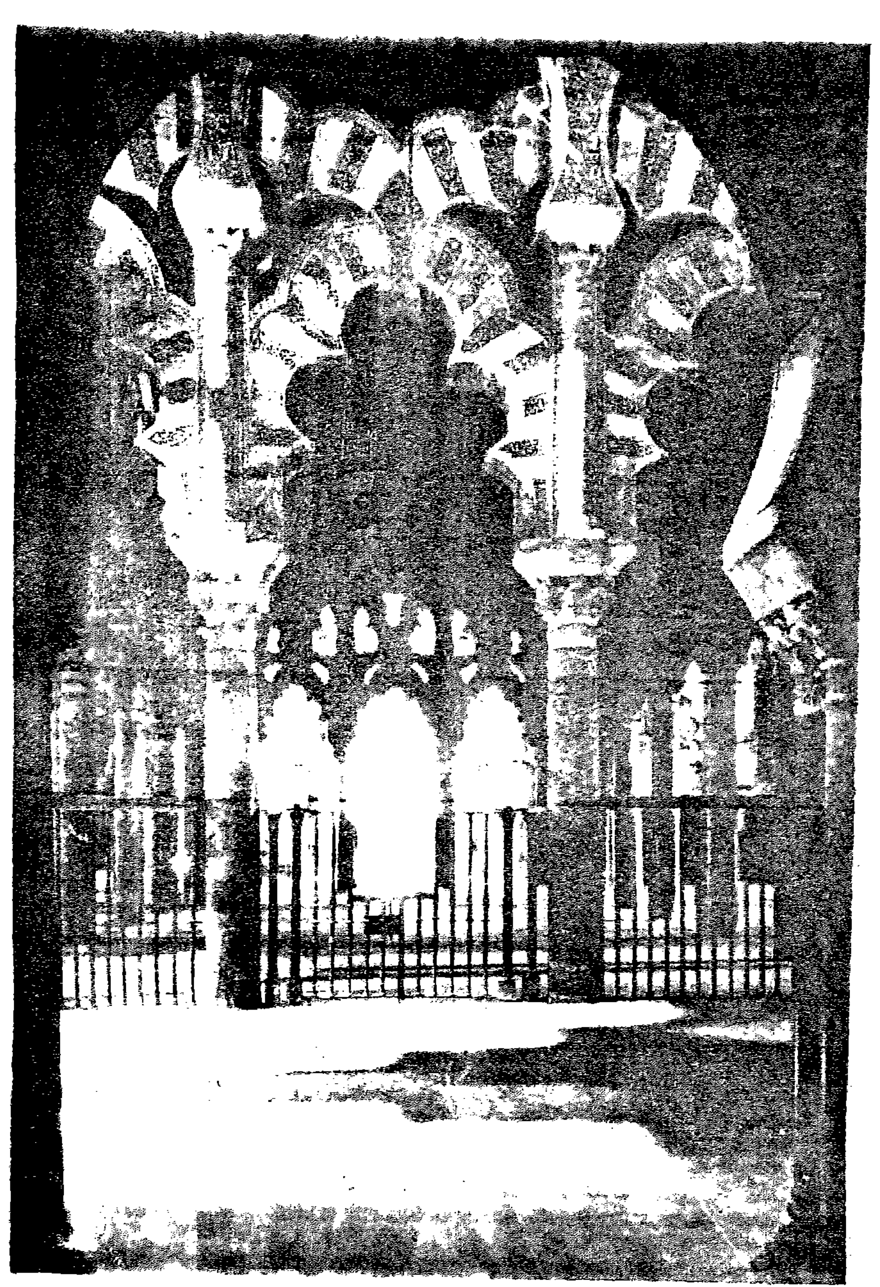
جزء من الجدار الفاصل بين المسجد الاول وزيادة عبدالرحمن الاوسط



حوفة المحراب



وجهة المحراب بجامع قرطبة

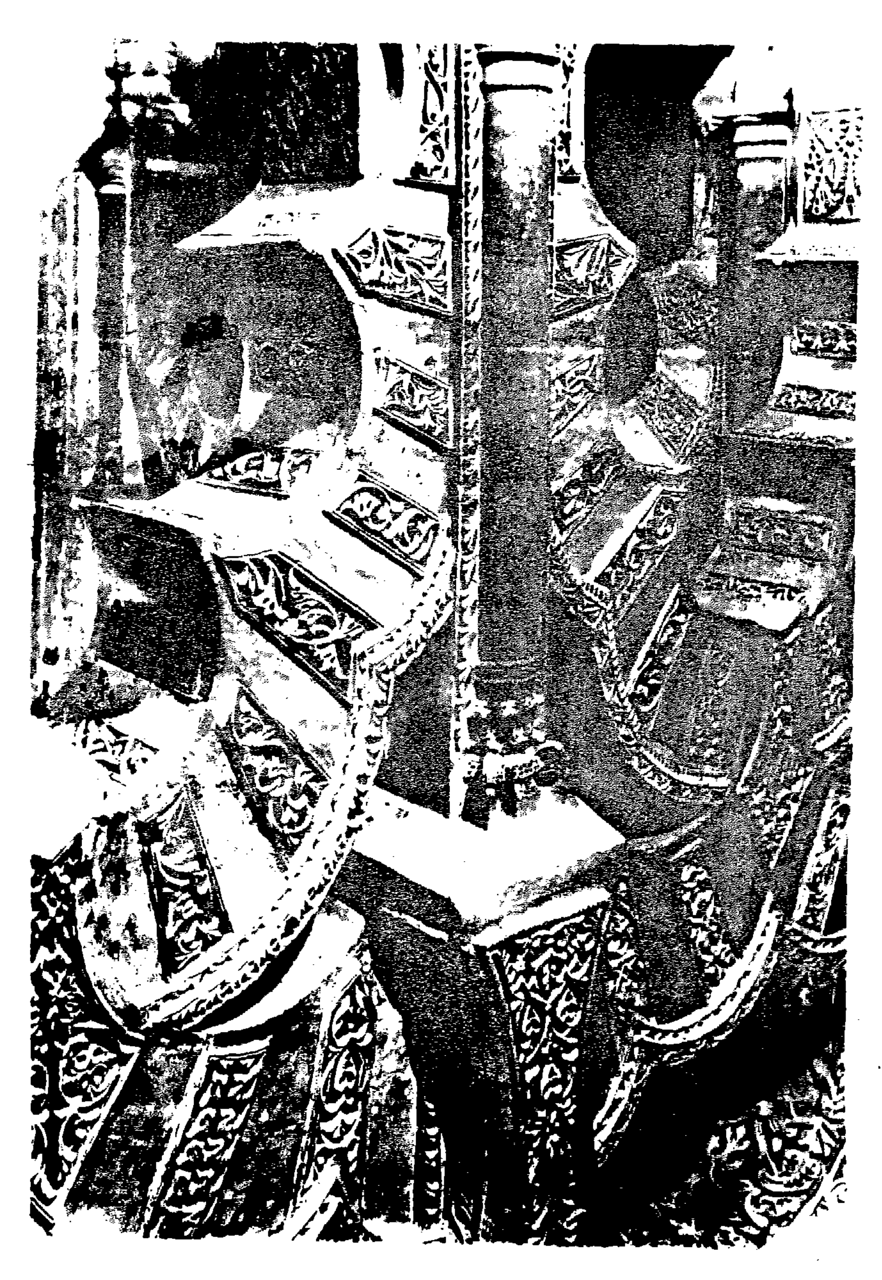


تشبيكة العقود أمام المحراب بجامع قرطبة

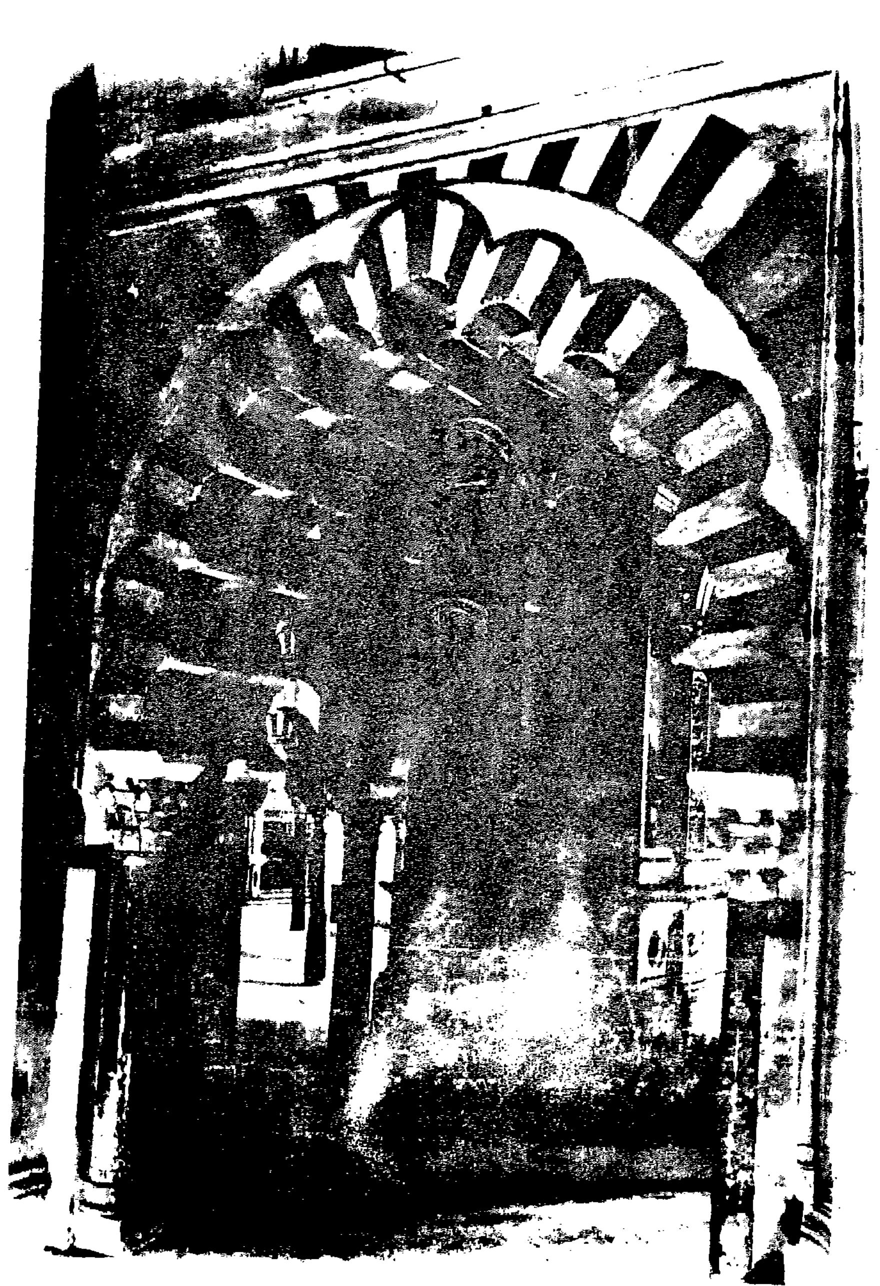


جانب من الاقواس التى تحمل قبة الضوء بجامع قرطبة

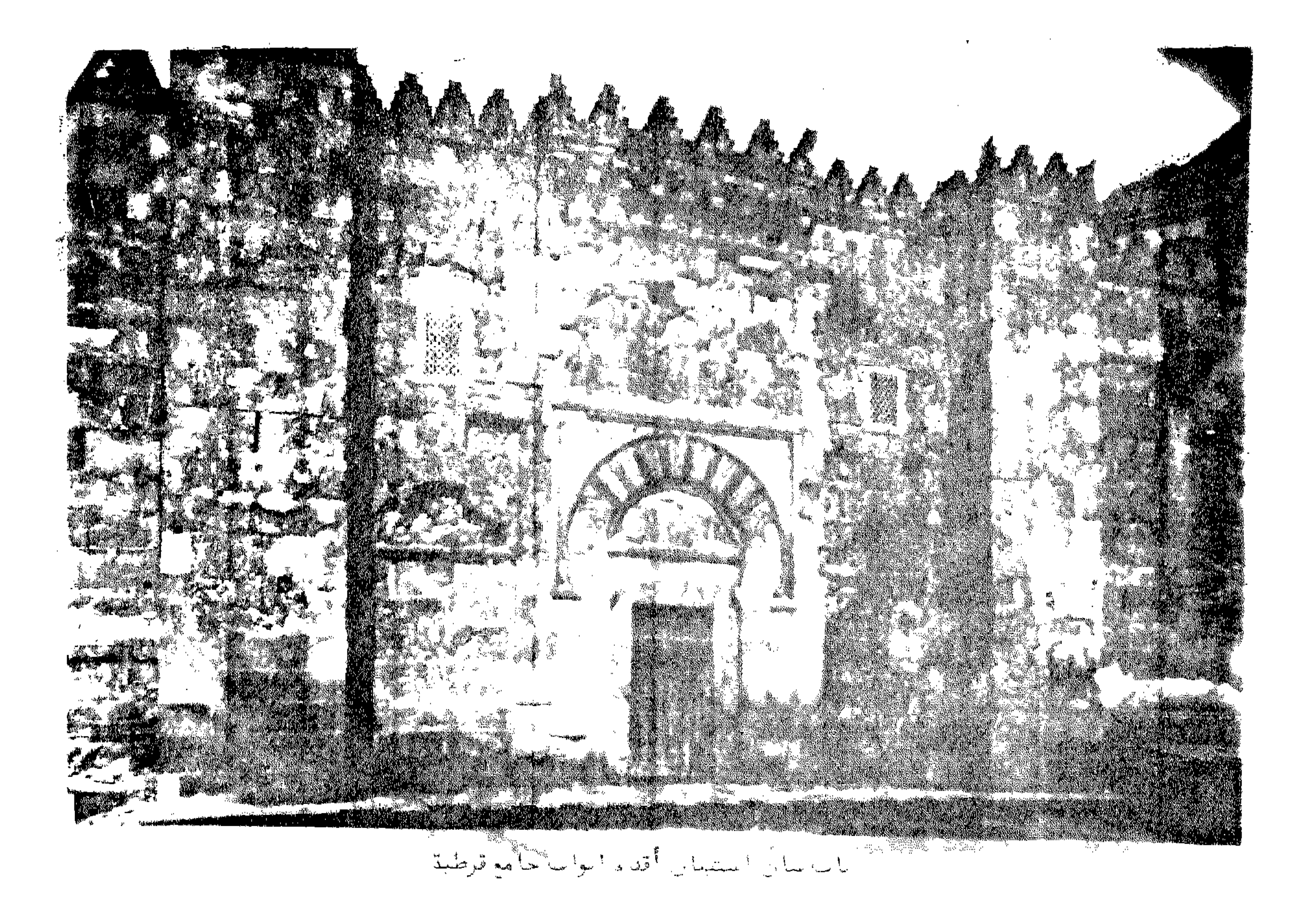
(زيادة الحكم المنتصر)



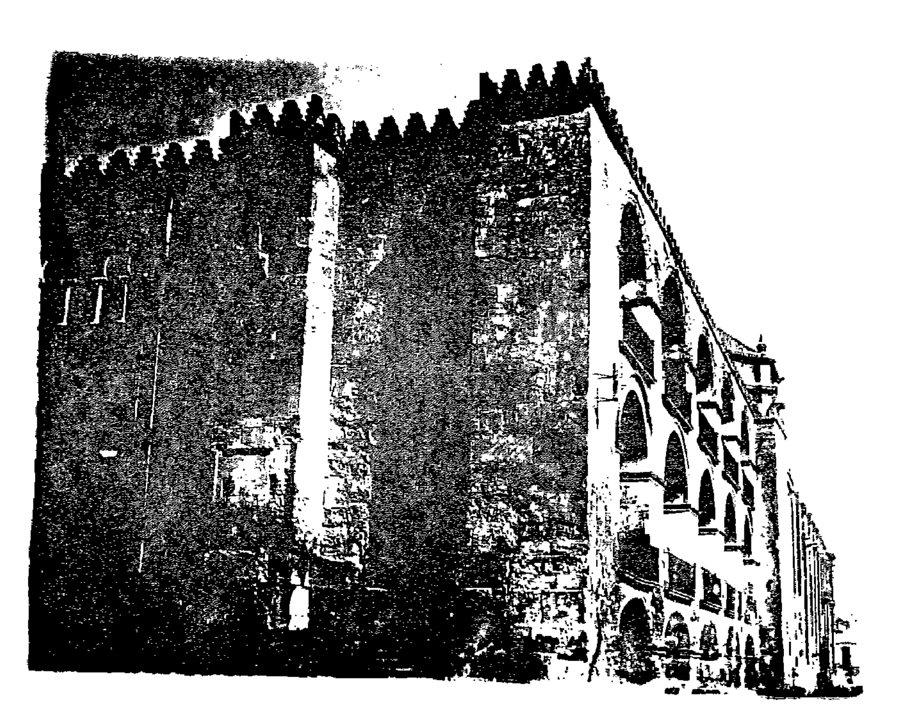
تفصيلات زخرفية بعقود قبة المحراب



أنموذج من عقود الزيادة الحكمية



باب سان استيبان أقدم أبواب جامع قرطبة

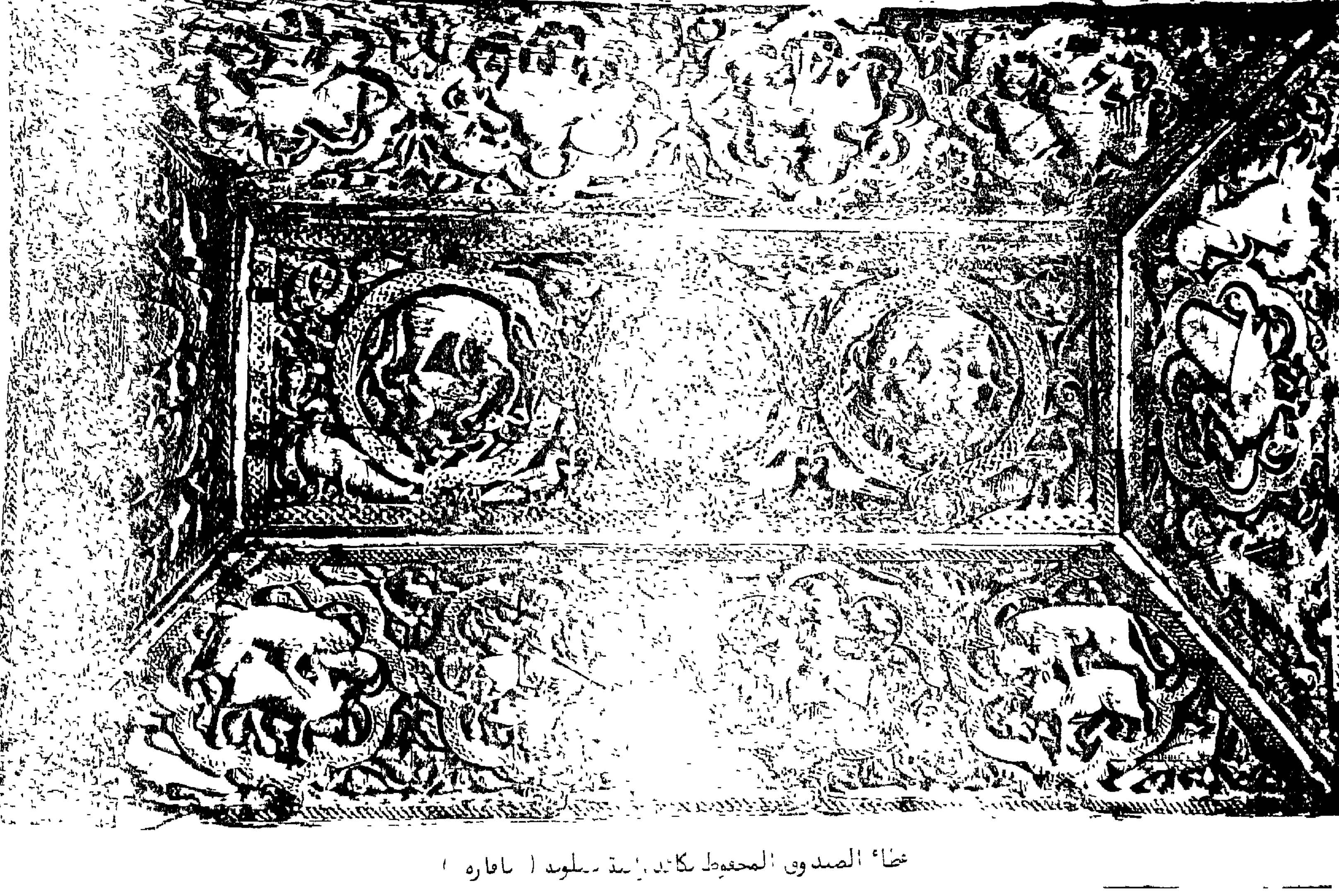


الجدارين القبلى والغربى من جامع قرطبة



صندوق من العاج محفوظ بكاتدرائية ببنبلونة





غطاء الصندوق المحفوظ بكاتدرائية سلوند (بافاره)

غير ضريبة « التقوية » التى أشرنا اليها فى صفحة ١٣٨ فيما سبق .

(٦٠) صفحة ١٠٩ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى .

(٦٠ب) كان الفارس يمنح « رزقا » ، ويعطى حملا وحلية وأسلحة ، وكان له الحق فى نفقة جارية لنفسه وعلوفة لفرسه .

(٦١) استقينا هذه المعلومات من صفحة ١٧٣ من كتاب « حلية الفرسان وشعار الشجعان » وهو القسم الثانى من كتاب « تحفة الانفس وشعار سكان أهل الاندلس » لمؤلفه ابن هذيل (على بن عبد الرحمن بن هذيل الاندلسى) الذى عاش فى غرناطة فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع (أواخر الرابع عشر الميلادى) ، وقد نشر هذا القسم الثانى وحققه وعلق عليه « محمد عبد الغنى حسن » ، الجزء السادس من مجموعة « ذخائر العرب » ، دار المعارف، القاهرة ١٩٥١ .

(٦٢) صفحتا ٢٤ و ٢٥ من القسم الاول من « تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس » لابن هذيل . وقد نشر هذا القسم بالطبع الفوتوغرافى على مخطوطة الدار البيضاء (لويس مرسى) فى باريس سنة ١٩٣٦ . ويشتمل هذا القسم على عشرين بابا فى الجهاد والرباط ويحوى الباب الثامن منه « فى حكم ولاة الثغور وذكر الصوائف » ، على بعض الاصطلاحات الخاصة بالاسلحة وانظمة الجيش .

(٦٢ب) صفحة ١٩٧ من القسم الرابع من « المقتبس » لابن حيان .

(٦٣) صفحة ٥ من الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وقد وصف حفل من حفلات عقد الالوية فى المسجد الجامع .

(٦٣ب) أشار ابن عذارى أكثر من مره الى هذا البروز ، تنظر مثلا صفحات ١٦٥ و ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٥ و ١٩٦ و ٢٠٤ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » .

(٦٤) صفحة ١٠٢ من القسم الرابع من « المقتبس » لابن حيان .

(٦٥) حدد ابن عذارى فى صفحة ٢٠٤ من الجزء الثانى من « البيان

المغرب » موقع فحص السرادق فى « جـوفى النهر العظيم » ، والجـوف هـو الشمال ، وحدد ابن حيان فى صـفحتى ٤٣ و ١٠٢ من القسـم الرابـع من « المقتبس » هذا الموقع فى « طرف شرقى قرطبة » اى فى طرف المدينة الشرقية ، او الجانب الشرقى لقرطبة . وقد جمعنا بين الروايتين وحددنا هـذا الموقع فى الطرف الشمالى من الجانب الشرقى لقرطبة .

(٦٦) تنظر صفحات ١١٩ الى ١٢١ و ١٣٣ و ١٣٤ فيما سـبق من كتابنا هذا ، وفيها وصف للمراسم المتبعة فى احتفالات الاستقبال .

(٦٧) تنظر صفحة ٤٢٢ من الجزء الثانى من « نفح الطيب » للمقرى طبع بولاق ، وصفحتا ١٩٤ و ١٩٥ من الجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى

(٦٨) صفحة ٣٦٤ من الجزء الاول من « نفح الطيب » للمقرى .

(٦٩) شرحـه فى صـفحات ١٨٥ الى ٢٣٣ مـن كتـاب « حلية الفرسان وشعار الشجعان » لابن هذيل معلومات مفيدة عن الإسليجة واسمائها واقوال العرب والشعراء فيها .



زخارف محفورة فى الرخام بعصافرة المحراب فى جامع قرطبة

فهرســـــت الموضـــــوعات

القســـم الثانى

عمران قرطبة وحضارتها

طبع بمطابع جريدة السفير
٤ شارع الصحافة
ت ٨٠٣٩٦٤ إسكندرية